

جامعة النجاح الوطنية

عمادة كلية الدراسات العليا

عليه
صحة
عدد

كشف القرآن الكريم
لائحرافات أهل الكتاب وإبطالها

إعداد الطالب

موسى محمود طه سعيد

إشراف

د. محمد حافظ الشريدة

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات

العليا في جامعة النجاح الوطنية

نابلس / فلسطين

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

جامعة النجاح الوطنية

عمادة كلية الدراسات العليا

كشف القرآن الكريم

لائحة إشارات أهل الكتاب وإبطالها

إعداد الطالب

موسى محمود طه سعيد

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ ٢٠٠٣/٧/١٦م وأجيزت

وكانت لجنة المناقشة مكونة من التالية أسماءهم:

التوقيع

محمد حافظ صالح الشريه

التوقيع

د. محمد حافظ الشريدة / رئيساً

د. أحمد مصطفى فواقه / عضواً

د. خضر عبد اللطيف سوندك / عضواً

الإهداء

إلى الرحمة المهداة والنعمة المسداة محمد ﷺ

إلى العلماء العاملين الصادقين

إلى المجاهدين المرابطين

إلى روح أمي الطاهرة

إلى والدي الفاضل

إلى (حموي): والدي اللذين لم يلداني

إلى زوجتي الوفية

إلى فلذة كبدي هبة

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذه الرسالة

شكر وتقدير

عملاً بقوله ﷺ: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله عز وجل"^(١) وقوله ﷺ: "إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس"^(٢) فإنني في هذا المقام لا يسعني إلا أن أزجي خالص شكري وتقديري للقائمين على جامعة النجاح الوطنية والقائمين على كلية الشريعة في الجامعة، كما أتوجه بالشكر الجزيل و عرفان الجميل لأستاذي الفاضل الدكتور محمد حافظ الشريدة الذي أكرمني بعلمه ووسعني بقلبه وأسأل الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء، وأن يرفع درجاته في الدنيا والآخرة إنسه سميع مجيب.

وأتوجه بجزيل الشكر للأستاذين الفاضلين:

فضيلة الدكتور: أحمد فواقه

وفضيلة الدكتور: خضر سوندك

الذين تفضلاً بقبول مناقشة هذه الرسالة.

وأتوجه بالشكر الجزيل للقائمين على مركز نون للأبحاث والدراسات القرآنية وأخص بالذكر منهم الأستاذ الفاضل: بسام جرار رئيس المركز لما يلقاه طلاب العلم منه من مساعدة وتيسير وحسن معاملة. كما أنني أقدم كامل شكري وتقديري لأهل بيتي الذين كانوا لي خير عون في إخراج هذه الرسالة، جزى الله الجميع عني خير الجزاء.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١١٧٠٣) (٢٣٣/١٨)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، وعادل مرشد، وإبراهيم الزبيق، ومحمد رضوان العرقسوسي، وكامل الخراط. مؤسسة الرسالة، بيروت، (الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م). وأبو داود في سننه في كتاب الأئمة - باب في شكر المعروف برقم (٤٨١١)، (١٠٢/٥)، والترمذي في سننه، في كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ /باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك برقم (١٩٥٤)، وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح (٣٣٩/٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢١٨٤٦)، (١٦٦/٣٦).

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
ت	الإهداء
ث	الشكر والتقدير
ج	فهرس الموضوعات
د	ملخص الرسالة باللغة العربية
ذ	المقدمة
١	الفصل التمهيدي
٢	المبحث الأول: سلامة القرآن الكريم من التحريف وهيمنته
	على ما سبق من الكتب الإلهية
١٤	المبحث الثاني: تعريف أهل الكتاب.
٢٤	المبحث الثالث: موقف الإسلام من الإسرائيليات.
٣٣	الفصل الأول: الانحرافات العقائدية عند أهل الكتاب.
٣٤	المبحث الأول: انحرافات اليهود في المولى عز وجل.
٣٤	أولا: اليهود وعبادة العجل.
٤٥	ثانيا: انحرافات اليهود الأخلاقية في المولى عز وجل.
٥٥	المبحث الثاني: انحرافات أهل الكتاب بشأن الملائكة

الصفحة	الموضوع
٥٧	المبحث الثالث: تحريفهم لكتب الله
٧٤	المبحث الرابع: انحرافات أهل الكتاب بشأن النبوة
١٠٠	انحرافات أهل الكتاب في عيسى ﷺ.
١٠١	انحراف اليهود في عيسى ﷺ والرد عليهم
١١٠	انحراف النصارى في عيسى عليه والصلاة والسلام والرد عليهم.
١٥٤	المبحث الخامس: انحرافات أهل الكتاب بشأن اليوم الآخر.
١٦٣	الفصل الثاني: الانحرافات التشريعية عند أهل الكتاب.
١٦٤	المبحث الأول: انحرافات أهل الكتاب في الميدان الاجتماعي.
١٨٠	المبحث الثاني: انحرافات أهل الكتاب في الميدان الاقتصادي.
١٩١	المبحث الثالث: انحرافات أهل الكتاب في الميدان السياسي.
٢١٠	المبحث الرابع: انحرافات أهل الكتاب في الميدان العسكري.
٢٢٦	الفصل الثالث: انحرافات أهل الكتاب الأخلاقية.
٢٢٨	المبحث الأول: الخيانة ونقض العهود والمواثيق.
٢٤٠	المبحث الثاني: الحرص على الحياة.
٢٤٣	المبحث الثالث: القتل وسفك الدماء.
٢٥٢	المبحث الرابع: الفساد.
٢٥٩	المبحث الخامس: تركيتهم لأنفسهم.

الصفحة	الموضوع
٢٧٣	المبحث السادس: قسوة القلب والإصرار على الذنب.
٢٨٣	المبحث السابع : منع النعمة عن الناس.
٢٩٤	المبحث الثامن: الكيد.
٣٠٦	الخاتمة وأهم النتائج.
٣١٠	فهرس الآيات القرآنية.
٣٣٣	فهرس الأحاديث.
٣٣٦	فهرس الأعلام.
٣٤٨	المصادر والمراجع.
٣٦٥	فهرس الفهارس.
B	ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية

ملخص الرسالة باللغة العربية

عنوان هذه الدراسة "كشف القرآن الكريم لانحرافات أهل الكتاب وإبطالها". وقد قمتُ بتقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة وفصل تمهيدي وثلاثة فصول وخاتمة.

بيّنت في هذه الدراسة سلامة القرآن الكريم من التحريف أو التبديل، ثم حدّدت من هم أهل الكتاب وبيّنت موقف الإسلام من مروياتهم.

بالإضافة إلى ذلك قمتُ بدراسة انحرافات أهل الكتاب في الذات الإلهية، والملائكة، والكتب الإلهية، والرُّسُل عليهم الصلاة والسلام، واليوم الآخر. كما أنني ناقشتُ في هذه الدراسة انحرافات أهل الكتاب التشريعية في الميدان الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والعسكري.

ثم عرّجت على انحرافات أهل الكتاب الأخلاقية المتأصلة فيهم، بالإضافة إلى النتائج المترتبة على هذه الانحرافات.

وقد طبّقتُ هذه الخطة على الآيات القرآنية المتعلقة بأهل الكتاب، وقمتُ بإبطال انحرافاتهم من القرآن الكريم، والواقع، ورجعت في بعض الأحيان إلى الكتاب المقدّس.

توصّلت في نهاية هذه الدراسة إلى نتيجة مفادها: أنّ اليهود والنصارى قد انحرفوا عن الطريق السويّ نتيجة لتحريفهم الكتب المنزلة عليهم واختلافهم على أنبيائهم.

وقد جعلت فهرساً للموضوعات وفهرساً للآيات القرآنية وآخر للأحاديث النبوية الواردة في الرسالة، وترجمتُ لبعض الأعلام ممّن تنتضي الحاجة أن أترجم لهم، وختمتُ ذلك بفهرس المصادر والمراجع.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

فإن رسالة الإسلام خاتمة الرسالات السماوية ومتممة لها على أحسن وأكمل وجه، وإن من تمام هذا الختم هيمنة القرآن الكريم على ما سبق من الكتب الإلهية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾^(١). حيث دخل هذه الكتب الكثير من التحريف والتبديل بعد موت الرسل المنزلة عليهم، فكان من تمام رسالة نبينا محمد ﷺ أن يكشف عن بعض هذه التحريفات التي أدخلت على التوراة والإنجيل بعد موت موسى ﷺ ورفع عيسى ﷺ حياً إلى السماء، قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾^(٢).

وقد كشف القرآن الكريم هذه الانحرافات في كثير من الآيات والسور وخصوصاً السور المدنية، مبيّناً هذه الانحرافات، وهي في مجالات شتى منها العقديّة، ومنها التشريعيّة، ومنها الأخلاقيّة، ثم ردّها عليها وأبطلها.

وقد قام المفسرون بتفسير الآيات الخاصة بهذا الموضوع من خلال تفسيرهم لكتاب الله عز وجل، مبيّنين هذه الانحرافات ومفنديين لها، إلا أن حديثهم عن هذا الموضوع جاء مفرقاً

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨ .

(٢) سورة المائدة: الآية ١٥ .

ومشتتاً في تفاسيرهم، وقد قمت في بحثي هذا بجمع جزئيات هذا الموضوع من الكتب التي تحدثت عنه، مع كثير من التعليقات والتحليلات، والاستنباطات التي لم أعر عليها في الكتب التي وقعت بين يدي، فتم بعد كل هذا - فيما أرجو - إخراج مؤلف مستقل يتناول الموضوع من جميع جوانبه. وقد قسّمت هذا الموضوع إلى ثلاثة فصول، مقدماً لها بفصل تمهيدي على النحو التالي:

الفصل الأول: الانحرافات العقدية عند أهل الكتاب.

الفصل الثاني: الانحرافات التشريعية عند أهل الكتاب.

الفصل الثالث: الانحرافات الأخلاقية عند أهل الكتاب.

هذا وقد وقع اختياري على هذا البحث للأسباب التالية:

١. لم أجد من بحث هذا الموضوع بحثاً خاصاً مستقلاً بهذا العنوان وشاملاً تناوله من جميع جوانبه، وكل ما وجدته مسائل فرعية متناثرة في كتب المفسرين الأولين والمعاصرين وبعض الكتب الخاصة، علماً بأن هذا الموضوع قد أخذ حيزاً لا بأس به من كتاب الله عز وجل.

٢. إن الناظر في هذا الموضوع يدرك أنه خط الدفاع الأول للمسلمين أمام أعدائهم لا سيما اليهود منهم، حيث إن معرفة طبيعة العدو تأتي أولاً وقبل كل شيء، واليهود أنفسهم كما يشهد تاريخهم، وتطرق آثارهم، يدركون هذه الحقيقة، ويعملون جاهدين على حشد كل جديد من المعلومات عن المسلمين التي تفيدهم في حروبهم معهم. ومع الواقع الأليم الذي يعيشه المسلمون فإنه ينقصهم التزود بهذا الجانب الضروري، استعداداً للمواجهة الفاصلة، كما أن القرن الماضي وبداية هذا القرن قد شهدا نشاطاً كبيراً للمبشرين من النصارى في مناطق

كثيرة من العالم الإسلامي، ومن المؤسف أن نجد المبشرين يدرسون عن الإسلام الشيء الكثير قبل أن يبدأوا بالتبشير في ديار المسلمين، وكلنا يعلم مدى اهتمام المستشرقين بدراسة الإسلام دراسة عميقة، وما الاستشراق إلا تمهيد للتبشير والاستعمار، في حين نجد عامة المسلمين يجهلون الكثير عن أعدائهم مما سهل وساعد على نجاح المؤسسات التبشيرية العاملة في بلاد المسلمين، لذا كان لزاماً على دعاة المسلمين التعرف على طبيعة أهل الكتاب من خلال الوقوف على انحرافاتهم المختلفة مما يسهل الرد عليهم ، وتفنيد حججهم وإبطال دعواهم.

٣. لقد جاء اختياري لهذا الموضوع قبل كل شيء - خدمةً لكتاب الله عز وجل، وطلباً لرضوانه عز وجل، وتعريف المسلمين بأن دينهم هو وحده الدين الحق. لهذا كله رأيت أن يكون موضوع بحثي: (كشف القرآن الكريم لانحرافات أهل الكتاب وإبطالها)، بناءً على معطيات العصر، ومتطلبات الواقع، مستمداً ذلك من فهم كتاب الله عز وجل وسنة نبيه (صلوات الله وسلامه عليه)، فهي الشارحة والموضحة للقرآن الكريم.

وأسأل المولى سبحانه أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن يوفقني إلى الصواب، ويجنبني الزلل، وأن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع، ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾^(١) ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾^(٢)

والحمد لله رب العالمين

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ٥.

الفصل التمهيدي

ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: سلامة القرآن الكريم من التحريف وهيئته على ما سبق من الكتب الإلهية.

المبحث الثاني: تعريف أهل الكتاب.

المبحث الثالث: موقف الإسلام من الإسرائيليات.

المبحث الأول: سلامة القرآن الكريم من التحريف وهيمنته على ما سبق من الكتب

شاء الله تعالى أن يكون الإسلام خاتمة الرسالات الإلهية، وأن يكون القرآن الكريم الدستور الإلهي للبشر منذ بعثة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وشاء الله تعالى كذلك حفظ القرآن الكريم من أي تحريف أو تبديل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾^(٢) وهذا الحفظ امتاز به القرآن عما سواه من الكتب الإلهية التي طواها الزمن، ولم يبق منها سوى التوراة والإنجيل (وفي رواية الزبور)، فالتوراة الموجودة اليوم غير التوراة التي أنزلت على موسى ﷺ، وكذلك الأناجيل غير الإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ، وهناك من التناقضات بين نصوص التوراة، وبين نصوص الأناجيل ما أثبتته العلماء من المسلمين وغيرهم قديماً وحديثاً، قال سبحانه: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ، تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا وَيَسْتَكْبِرُونَ ﴾^(٣) وقال تعالى في حق اليهود: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾^(٤)

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) سورة فصّلت: الأيتان (٤١-٤٢).

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩١.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤١.

وقال في شأن النصارى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما
ذُكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا
يصنعون﴾.^(١)(٢)

وهكذا طالت يد البشر التوراة والإنجيل بالتحريف والتغيير، لأن الله تعالى وَكَلَّ حَفْظَ
التوراة والإنجيل إلى أهلها، قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون
الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه
شهداء﴾^(٣) فوقع الاختلاف فيما بينهم فكان التحريف^(٤).

ولعل السر في حفظ الله تعالى للقرآن دون سائر الكتب الإلهية هو أن كلاً من التوراة
والإنجيل كان موقوتاً لرسالة موقوتة ولقوم مخصوصين، أمّا القرآن الكريم فقد كُتِبَ له الخلود
والسلامة من الضياع، أو التحريف، وهذا شيء طبيعي، إذا عرفنا أن القرآن الكريم آخر حبل
يبين السماء والأرض وإنه خاتمة الرسالات السماوية، وإذا قضى الله أمراً يَسْرَ له أسبابه،^(٥)
مصدقاً لقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

(١) سورة المائدة: الآية ١٤.

(٢) انظر: الذهبي، محمد حسين، الإسرائيليات في التفسير والحديث ص ١٢ دار الإيمان، دمشق (الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٤) الزمخشري، أبو القاسم جار الله، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٥٣٦/٢)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

(٥) دراز، محمد عبد الله، النبا العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص ١٣، دار القلم، الكويت، (الطبعة السادسة، ١٤٠٥ - ١٩٨٤)، وانظر: القرضاوي، يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص ٢٨، دار الشروق، القاهرة، (الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ).

أقوال العلماء في تفسير هذه الآية:

قال علماء اللغة: إن هذه الصيغة تدل على التأكيد من عدة أوجه منها:

- اسمية الجملة، وتأكيدا بحرف "إن"، والضمير "نحن" تأكيد لاسم إن في أحد وجوه إعرابها، ودخول اللام المؤكدة، وهي اللام المزلحقة، على الخبر: لحافظون. (١)
- وقال الإمام القرطبي: (وإننا له لحافظون من أن يزداد فيه أو ينقص منه، فتولى الله سبحانه حفظه، فلم يزل محفوظاً، وقال في غيره: "بما استحفظوا" فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا). (٢)
- وقال الإمام الألويسي: (ردّ الله تعالى إنكار المشركين تنزيل القرآن على رسول الله واستهزاءهم به فقال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ أي نحن تعظم شأننا نزلنا الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك، ﴿وإننا له لحافظون﴾ أي من كل ما يقدح فيه، كالتحريف والزيادة والنقصان وغير ذلك، حتى أن الشيخ المهيب لو غير نقطة يردّ عليه الصبيان ويقولون له الصواب كذا). (٣)
- وقال الإمام الشوكاني: (أنكر الله تعالى على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم: "يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون" فقال: سبحانه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك). (٤)

(١) المرجع السابق، ص ٣٠، وانظر: الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، (١٧٤/٤) دار ابن كثير دمشق، ودار اليمامة، بيروت، (الطبعة السادسة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).

(٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٠)، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الخامسة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).

(٣) الألويسي، أبو الفضل، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (٢٤/٨)، دار الفكر، بيروت (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

(٤) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (١٢٢/٣)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، (الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

ونستطيع القول: إنه لا يوجد كتاب إلهي على وجه الأرض فيما وصل إلينا لم تطله يد التحريف والتبديل سوى القرآن الكريم، فالقرآن هو القرآن كما أنزل قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، ولا نقول ذلك لأننا مسلمون، بل لأن الأدلة تظاهرت على هذه الحقيقة حتى جعلت العدو يعترف بذلك قبل الصديق، فكم من مفكر غربي وعالم لاهوتي وصل به البحث النزيه إلى هذه الحقيقة الناصعة فاعتق الإسلام!

أدلة حفظ القرآن الكريم:

يمكننا القول إن الأدلة الكثيرة على حفظ القرآن وسلامته من التحريف والتبديل تنقسم إلى قسمين: فهناك أدلة من خارج القرآن، نافع بها علماء الإسلام عن كتاب الله المجيد، وهناك أدلة داخلية " ذاتية " من القرآن نفسه، تبرهن بشكل قاطع على أن القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه مصون ومحفوظ، وربما تكون هذه الأدلة والبراهين أدعى في إقناع الخصوم من سابققتها، وأي شيء أعظم من أن يقوم القرآن بنفسه ليبرهن للناس كافة على أنه كتاب الله، لا غرو في ذلك لأنه معجزة الإسلام الخالدة، ولا نستطيع أن نحيط بهذه الأدلة حيث إنه يتكشف لنا كل يوم منها شيء جديد، وفي مقدمة هذه الأدلة، الإعجاز البياني الذي ينظم القرآن كله، والذي تحدى الله تعالى به الثقلين فعجزوا عن الإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو حتى بسورة واحدة! ومن هذه الأدلة: مطابقة الكثير من الحقائق العلمية التي اهتدى إليها العلماء في هذا العصر في شتى المجالات، والطبية، والفلكية وعلوم الأرض وغيرها من العلوم لما جاء في القرآن الكريم المنزل على محمد ﷺ قبل ما يقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان!

ونضرب هنا مثلاً واحداً للإعجاز العلمي:

قال سبحانه: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾^(١)

كان المفسرون القدماء يعتقدون أن هذه الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن والرحم والمشيمة، إلا أن علم التشريح الحديث أثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه الظلمات عبارة عن أغشية ثلاثة تحيط بالجنين، غشاء فوق غشاء وهي:

غشاء السلي أو الأمنيون، ويحيط بالجنين مباشرة، وغشاء الكوريون، الغشاء المشيمي، والغشاء الساقط، وسمي بذلك لأنه يسقط مع دم الحيض أو النفاس، إذا كان هناك حمل، وهذه الأغشية تمنع الضوء والحرارة والماء عن الجنين، والآية الكريمة أشارت تماماً إلى هذه الأغشية الثلاثة، حيث حددت مكانها وهو بطن الأم، وذلك لا يكون إلا في الرحم ذاته.^(٢)

أسباب حفظ القرآن الكريم:

وفاء بوعده عز وجل بحفظ القرآن من أن تتطرق إليه أهواء البشر، يسر الله لهذا الحفظ أسبابه^(٣) ومن هذه الأسباب:

أولاً: تميّز الأمة العربية التي نزل عليها القرآن بالحفظ، حيث نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، وقد عرف هذا الحفظ في شعرهم وأنسابهم وغير ذلك، ورؤوسهم أوعية لدواوين شعرهم، وصدورهم سجل أنسابهم ... فكيف بالقرآن وهو كتابهم المقدس؟! وقد ساعد على هذا الحفظ من جهة القرآن الكريم سهولة ألفاظه، وعذوبتها، والترغيب في حفظه، فحفظه من المسلمين على مدار التاريخ الآلاف المؤلفة بل الملايين.^(٤) ومن جهة

(١) سورة الزمر: الآية ٦.

(٢) البار، محمد علي، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٤١٧ - وما بعدها - الدار السعودية، (الطبعة العاشرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م). وانظر: عباس، فضل حسن، وفضل، سناء، إعجاز القرآن الكريم ص ٢٧٤، دار الفرقان الأردن.

(٣) القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن، ص ٣١.

(٤) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، (٢٩٢/١) دار الفكر.

الصحابة الكرام فقد ساعدهم على الحفظ سيلان أذهانهم، وقوة حافظتهم، وصفاء طباعهم، وحدة خواطرهم، وبساطة حياتهم. (١) وكان سيد الحفاظ محمد بن عبد الله ﷺ (٢) قال تعالى: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إنا علينا جمعه وقرآنه﴾. (٣)

ثانياً: كتابة القرآن بعد نزوله، حيث اتخذ النبي ﷺ كُتَاباً للوحي، يكتبون ما ينزل عليه على ما تيسر لديهم من أدوات الكتابة، من الجلود، والعظام، وجريد النخل، وصفائح الحجارة، وقد كان النبي ﷺ قد نهاهم في أول الأمر أن يكتبوا عنه غير القرآن فقال: "... ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه" (٤) وذلك لتتصرف الهمم إلى القرآن، ولئلا يختلط بالسنة، ولتتوفر كل الأدوات لكتابة القرآن الكريم (٥). ولم يلتحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى حتى كان القرآن الكريم مكتوباً في السطور ومحفوظاً في الصدور. ويشير الدكتور موريس بوكاي في معرض مقارنته بين القرآن والتوراة والإنجيل من حيث اتصال السند فيقول: "ويختلف الأمر بالنسبة للقرآن فقور تنزله أولاً بأول كان النبي ﷺ والمؤمنون من حوله يتلونه عن ظهر قلب، وكان الكتابة من صحبه يتلونه، إذن فالقرآن تمتع منذ البداية بعنصري الصحة هذين اللذين لا تتمتع بهما الأناجيل". (٦)

ثالثاً: جمع القرآن في عهد الصديق أبي بكر بإشارة الخليفة عمر وبتفويض زيد بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين، وذلك بعدما استحرّ القتل في حفظة القرآن من الصحابة، حيث قتل

(١) الزرقاني، مناهل العرفان، (٢٩٣/١).

(٢) كان النبي ﷺ يعرض القرآن على جبريل مرة في كل عام في شهر رمضان، فلما كان العام الذي قبض فيه النبي ﷺ عرضه عليه مرتين، وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه قد شهد العرضة الأخيرة وكان يقرأ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده الصديق في جمعه وولاه عثمان كتابة المصحف. (الزرکشي، بدر الدين محمد بن عبد الله البرهان في علوم القرآن (٢٩٩/١) دار الفكر، (الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

(٣) سورة القيامة الأيتان (١٦ - ١٧).

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب الزهد، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، انظر: النووي، يحيى بن شرف بن مري، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢٩/١٨) الدار الثقافية العربية بيروت (الطبعة الأولى ١٣٤٩-١٩٣٠).

(٥) الزرقاني، مناهل العرفان (٣١٣/١)، والقرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن ص ٣١.

(٦) بوكاي موريس، القرآن الكريم، والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٥٢، دار المعارف، لبنان، (الطبعة الرابعة ١٩٧٧م).

سبعون حافظاً للقرآن في معركة اليمامة وحدها سنة اثنتي عشرة للهجرة في حروب الردة المشهورة. (١) فكان الجمع في هذه المرحلة عبارة عن نقل القرآن وكتابته في مصحف مرتب الآيات، وكان الهدف من ذلك تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة - مجموعاً مرتباً - خشية ضياع شيء منه، بموت حفظته. (٢) إن كتابة القرآن ليست محدثة، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف، والعسب (٣)، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء). (٤)

رابعاً: في عهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه جمع الناس على مصحف واحد؛ ذلك لما كثرت الفتوحات واتسعت أقاليم الدولة الإسلامية، وما صاحب ذلك من اختلاف في القراءات، حتى وصل الأمر إلى أن يكفر بعض المسلمين بعضاً، فانتدب الخليفة عثمان أربعة من خيار الصحابة وهم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوا المصحف الإمام، ووزع منه عدة نسخ على أهم الأمصار، وبذلك

(١) الزركشي، البرهان (٢٩٥/١) وانظر: السيوطي، جلال الدين، أبي بكر، عبد الرحمن، الإتيان في علوم القرآن، (١/١٢٦) دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الزرقاني، مناهل العرفان، (٢٦٢/١) وانظر: الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص٧٤، دار العلم للملايين، بيروت، (الطبعة العاشرة ١٩٧٧).

(٣) الرقاع: جمع رقعة وقد تكون من ورق أو غيره. [عباس، فضل، حسن، إتيان البرهان، (١/١٩٧) دار الفرقان، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٧م] الأكتاف: جمع كتف، عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب، قال السيوطي هو العظم الذي للبعير أو الشاة. [ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة كتف (٢٧/١٢)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م). وانظر: عباس، فضل، إتيان البرهان (١/١٩٧) العسب: جمع عسيب، وهي جريدة من النخيل كانوا يكشطون خوصها ويكتبون في الطرف العريض منها. [ابن منظور، لسان العرب (١٩٨/١٩) بتصرف، وانظر: عباس، فضل، إتيان البرهان (١/١٩٧).

(٤) الزركشي، البرهان، (٣٠٠/١).

جمع الخليفة الناس على مصحف واحد وقطع دابر الخِلاف.^(١) وكما يقول الدكتور موريس بوكاي : (كان لا بدّ من الاحتياطات اللازمة لضمان انتشار النص في نقائه الأصلي، وكان ذلك هو هدف التحقيق الذي قام به عثمان (رضي الله عنه)، ويضيف الدكتور بوكاي قائلاً: وإذا نحينا جانباً ما قد يكون من أخطاء النسخ فإن أقدم الوثائق المعروفة في أيامنا والتي وجدت في كل العالم الإسلامي تطابق كل منها الأخرى تماماً، كذلك الأمر أيضاً بالنسبة للمخطوطات التي في حوزتنا في أوروبا، فتوجد بالمكتبة الوطنية بباريس قطع يرجع تاريخها حسب تقدير الخبراء إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين أي إلى القرنين الثاني والثالث من الهجرة).^(٢) وهكذا مرّ جمع القرآن الكريم وحفظه بمراحل تجلّت فيها العناية التامة بحفظه نصّاً، وضبطه لفظاً وأداءً.^(٣)

خامساً: تواتر نقل القرآن جيلاً عن جيل تواتراً يستحيل تواطؤهم على الكذب، وقد ذكر العلامة محمد الزرقاني مجموعة من الدواعي والعوامل أدت إلى حفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل غير التي ذكرناها، منها ما هو موجود في الصحابة ومنها ما هو خاص بالقرآن الكريم.

ومن هذه العوامل الخاصة بالصحابة رضوان الله عليهم:

١. حبهم الصادق لله ورسوله حبّاً ملك عليهم مشاعرهم واحتل مكان العقيدة من نفوسهم.
٢. بلاغة القرآن الكريم إلى حدّ فاق كل بيان، فالعرب أمة تعشق كل فصيح وتتنافس في حفظ كل منظوم، فهبوا يحفظون القرآن ويفهمونه.

(١) المرجع السابق (٣٠١/١). وانظر الزرقاني، مناهل العرفان (٢٥٥/١ - فما بعدها). والصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن (ص ٧٨ وما بعدها).

(٢) بوكاي، موريس، القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ص ١٥٦.

(٣) عباس، فضل، إتيان البرهان (١٩١/١).

٣. منزلة الكتاب من الدين، فهو أصل التشريع الأول والدستور الإلهي المنظم لكل العلاقات، وهو أساس خيرى الدنيا والآخرة.

٤. ارتباط كثير من كلام الله بوقائع وحوادث وأسئلة، وهذا من شأنه أن يثير الاهتمام ويلفت الأنظار، وبذا يتمكن الوحي الإلهي في النفوس والعقول ويبقى على مرّ الزمان.

٥. اقتران القرآن دائماً بالإعجاز، وهذا أدعى إلى حفظه؛ لأنّ الشأن فيما يخرج عن نواميس الكون وسننه أن يبقى منقوشاً في الأذهان.

٦. حكمة الله ورسوله في التربية والتعليم وفي الدعوة والإرشاد، مما جعل القرآن والسنة يتقرران في الأذهان ويسهلان في الحفظ والاستظهار.

وهناك عوامل أخرى خاصة بالقرآن منها:

١. تحدّى الله الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله فعجزوا، ومن شأن هذا التحدي أن يفتح عيون الناس جميعاً الأولياء والأعداء على حدّ سواء، أمّا الأولياء فقرءوه وحفظوه؛ ليؤيدوا بإعجازه دينهم ونبیهم ويفحموا به أعداءهم، وأمّا الأعداء: فنتبعوه واقتفوا أثره أملاً في أن يجدوا فيه مطعناً، ولا ريب أنّ هذا التحدي كان من الدواعي التي توافرت على نقل القرآن وتواتره وجريانه على كل لسان.

٢. تشريع قراءة القرآن في الصلاة فرضاً ونفلاً، والترغيب في تلاوته داخل وخارج الصلاة، وهذه وسائل فعالة لمداومة قراءته وحفظه.

٣. المكانة التي امتاز بها كتاب الله عن كل ما سواه، ولا شك أنّ هذه القداسة كان لها عظيم الأثر في عناية المسلمين في كل عصر ومصر بحفظ كتاب الله. ^(١) يقول العلامة الزرقاني: (ونحن نتحدّى العالم بهذه الدواعي التي توافرت في الصحابة حتى نقلوا إلينا الكتاب والسنة

(١) الزرقاني، مناهل العرفان، (ص ٢٩٤ - ص ٣١٥).

وتواتر عنهم ذلك خصوصاً القرآن الكريم^(١) ويقول الدكتور محمد نعيم ياسين: (والحق الذي لا يماري فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى، سوى القرآن الكريم، يدل على هذه الحقيقة أدلة حسية فضلاً عما أخبر به القرآن عن التحريف الواقع في الكتب الموجودة)^(٢) ومن هنا نؤكد أن دواعي وأسباب نقل القرآن الكريم ليس من ناحية أصالة الأحكام فقط، وإنما من نواحي الإعجاز والتحدّي، والتعبّد بتلاوته، وقراءته في الصلاة، والرقية والتبرك به كذلك، وقد أجمعت الأمة الإسلامية على قبول المصحف العثماني وتواتره، وأن الرسول ﷺ جاء به من عند الله عز وجل.^(٣)

هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من الكتب الإلهية:

بقي أن نبين معنى كون القرآن مهيمناً على ما سبقه من الكتب الإلهية، الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾.^(٤)

جاء القرآن الكريم مصدقاً لما سبقه من الكتب في الجانب العقائدي الذي جاءت به جميع كتب الأنبياء، والشرائع السماوية، كأركان الإيمان الستة، كما قال سبحانه: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارَكٌ مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾^(٥) وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾^(٦) إن كلمة مهيمن في اللغة تأتي لعدة معان منها: المؤتمن كما قال ابن عباس (رضي الله عنهما)، ومنها

(١) المصدر السابق (٣١٥).

(٢) ياسين، محمد نعيم، الإيمان ص ٥٥، جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن، (الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

(٣) عناية، غازي، شبهات حول القرآن وتفنيدها ص ٧٣-٧٤، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (الطبعة الأولى ١٩٩٦م).

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٥) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

(٦) سورة فاطر: الآية ٣١.

الشهيد، والرقيب، والقائم على الكتب. ^(١) وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب ^(٢) فمعنى كون القرآن الكريم مهيمناً على غيره من الكتب الإلهية: أنه رقيب وحارس ومؤتمن وشهيد على كل ما جاء فيها، ومفهوم الرقابة أعم وأشمل من مفهوم التصديق. ^(٣)

قال العلامة أبو السعود في تفسير قوله تعالى: ﴿ومهيماً عليه﴾: (أي رقيباً على سائر الكتب المحفوظة من التغيير، لأنه يشهد لها بالصحة والثبات ويقرر أصول شرائعها، وما يتأبد من فروعها، ويعين أحكامها المنسوخة، ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب، وانقضاء وقت العمل بها). ^(٤) ويقول الشيخ عبد الرحمن الميداني: معنى "مهيمناً عليه": (أي رقيباً على ما سبقه من الكتب الإلهية، حيث يشهد لما صحَّ نقله منها بالصحة وموافقة الحق، أو يكشف ما دخل إليها من تحريف وتبديل، ويشهد عليه بالبطلان والفساد). ^(٥) وعلى هذا فهيمنة القرآن الكريم على غيره من الكتب الإلهية لا تقف عند التصديق لما جاء فيها من العقائد، بل تتعدى ذلك إلى الجانب التشريعي فتقرّ بعض أحكامه وتعدّل أو تبدّل بعضها الآخر، ثم تتجاوز هذا إلى تصحيح ما وقع فيها من تحريف، قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾. ^(٦) ومثال ذلك قوله سبحانه: ﴿كلّ الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن نُنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ ^(٧) إذن فالقرآن الكريم هو

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة همي (١٤٠/١٥).

(٢) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل أي القرآن (٢٦٦/٦) دار الفكر، بيروت (١٤٠٥هـ).

(٣) الذهبي، الإسرائيليات ص ١٤، وانظر: الطبري، جامع البيان (٢٦٧/٦).

(٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٤٥/٣).

(٥) الميداني، عبد الرحمن حبكة، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ٤٨١) دار القلم دمشق، (الطبعة السابعة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

(٦) سورة المائدة: الآية ١٥.

(٧) سورة آل عمران: الآية ٩٣.

الأصل الذي يرجع إليه عندما نريد أن نقف على مبلغ ما يصل إلينا من التوراة أو الإنجيل من صدق أو افتراء أو اختلاف، وهو الحكم والقيصل فيما يُنقل إلينا من كتبهم، فإن أثبتته أثبتناه، وإن نفاه نفينا، وكفى بالقرآن شاهداً ودليلاً. (١)

(١) الذهبي، الإسرائيليات، ص ١٥.

المبحث الثاني: تعريف أهل الكتاب:

اختلف العلماء في تحديد من هم أهل الكتاب:

فالحنفية: يرون أن الكتابي هو من يؤمن بنبي ويقرّ بكتاب، فيدخل ضمن هذا التعريف اليهود والنصارى، ومن آمن بزبور داود، وصحف إبراهيم، وشيث، فكلهم أهل كتاب عند الحنفية لصدق التعريف عليهم^(١)

أما الشافعية وأكثر الحنابلة: فقد خصّوا أهل الكتاب باليهود والنصارى دون غيرهم.

قال صاحب التهذيب في فقه الإمام الشافعي: ويعني بأهل الكتاب أهل التوراة والإنجيل.^(٢) وقال في موضع آخر: أما الذين لهم كتاب فهم اليهود والنصارى.^(٣) إلا أن الشافعية لم يكتفوا بذلك، بل فصلوا القول في اليهود والنصارى فقسموا اليهود والنصارى إلى إسرائيليين وغير إسرائيليين، أما الإسرائيليون فأرادوا بهم أولاد إسرائيل "يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وغير الإسرائيليون: من دخل في الديانة اليهودية أو النصرانية من العرب أو العجم أو الترك أو غيرهم.

وصنف ثالث يُشكك في وقت دخولهم هل هو قبل التبديل أو بعده كنصارى تغلب وتتوخ.^(٤)

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي: (أهل الكتاب اليهود والنصارى ومن دان بدينهم

(١) السيوسي، محمد بن عبد الواحد، السكندري، شرح فتح القدير (٢/٢٢٩)، دار الفكر، بيروت، (الطبعة الثانية).

(٢) البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، التهذيب في فقه الإمام الشافعي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (٥/٣٧١)، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م).

(٣) المرجع السابق (٥/٣٦٨).

(٤) بدران أبو العينين، بدران، العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين (ص ٤١-٤٢)، دار النهضة العربية، بيروت، (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م)، وانظر: البغوي، التهذيب (٥/٣٦٨).

المبحث الثاني: تعريف أهل الكتاب:

اختلف العلماء في تحديد من هم أهل الكتاب:

فالحنفية: يرون أن الكتابي هو من يؤمن بنبي ويقرّ بكتاب، فيدخل ضمن هذا التعريف اليهود والنصارى، ومن آمن بزبور داود، وصحف إبراهيم، وشيث، فكلهم أهل كتاب عند الحنفية لصدق التعريف عليهم^(١)

أما الشافعية وأكثر الحنابلة: فقد خصّوا أهل الكتاب باليهود والنصارى دون غيرهم.

قال صاحب التهذيب في فقه الإمام الشافعي: ويعني بأهل الكتاب أهل التوراة والإنجيل.^(٢) وقال في موضع آخر: أما الذين لهم كتاب فهم اليهود والنصارى.^(٣) إلا أن الشافعية لم يكتفوا بذلك، بل فصّلوا القول في اليهود والنصارى فقسموا اليهود والنصارى إلى إسرائيليين وغير إسرائيليين، أما الإسرائيليون فأرادوا بهم أولاد إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وغير الإسرائيليون: من دخل في الديانة اليهودية أو النصرانية من العرب أو العجم أو الترك أو غيرهم.

وصنف ثالث يُشكّك في وقت دخولهم هل هو قبل التبديل أو بعده كنصارى تغلب وتتوخ.^(٤)

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي: (أهل الكتاب اليهود والنصارى ومن دان بدينهم

(١) السيوسي، محمد بن عبد الواحد، السكندري، شرح فتح القدير (٢/٢٢٩)، دار الفكر، بيروت، (الطبعة الثانية).

(٢) البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، التهذيب في فقه الإمام الشافعي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (٥/٣٧١)، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(٣) المرجع السابق (٥/٣٦٨).

(٤) بدران أبو العينين، بدران، العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين (ص ٤١-٤٢)، دار النهضة العربية، بيروت، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، وانظر: البغوي، التهذيب (٥/٣٦٨).

كالسامرة يدينون بالتوراة، ويعملون بشريعة موسى ﷺ، وإنما خالفوهم في فروع دينهم*، وفرق النصارى من اليعقوبية والنسطورية والملكية والفرنجة والروم والأرمن وغيرهم ممن دان بالإنجيل وانتسب إلى عيسى ﷺ، والعمل بشريعتهم فكلهم من أهل الكتاب، وما عدا هؤلاء من الكفار فليس من أهل الكتاب).^(١)

واسئل الشافعية والحنابلة بقوله تعالى: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلم ترحمون* أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾^(٢) ووجه الدلالة: أنه تعالى خص أهل الكتاب بطائفتين هم اليهود والنصارى، ولو كان هناك طوائف أخرى من أهل الكتاب لذكرهم الله تعالى، وإلا لزم عدم الصدق في خبره تعالى، وهذا عين المستحيل!^(٣)

أما السامرة والصابئة والمجوس فاختلف العلماء في حكمهم:

فالسامريون: طائفة من اليهود، يدعون أنهم من الإسرائيليين الذين دخلوا الأرض المقدسة، ويزعمون كذلك انتسابهم إلى ثلاثة من أسباط بني إسرائيل الاثني عشر وهم سبط (لاوي - لفي - ابن يعقوب) وإليه ينسب كهنتهم، وسبط (منسي "منشاي") وأفرايم ابني سيدنا يوسف وإليهما ينسب باقي السامريين.^(٤) وقد ارتبطت تسميتهم بالسامرة التي يقطنونها،

* ويخالفونهم كذلك في بعض أصول دينهم. [انظر: الشريدة، د. محمد حافظ، وغوراني، عمر عبد الخالق، الطائفة السامرية، تاريخها، عقيدتها، شريعتها، عاداتها، واقعها المعاصر، (ص ٤٨ - فما بعدها)، (الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)].

^(١) ابن قدامة المقدسي، أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد المغني على مختصر الخراقي (٣٤٢/٨) دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م).

^(٢) سورة الأنعام: الآيتان (١٥٥-١٥٦).

^(٣) البغوي، التهذيب (٣٧٥/٥).

^(٤) المرجع السابق (٣٧٥/٥) وانظر: بدران أبو العينين، العلاقات الاجتماعية ص ٤١.

والسامرة جزء من أرض فلسطين، وتعرف اليوم بمدينة نابلس. ^(١) والطائفة السامرية هي أصغر طائفة دينية في العالم. ^(٢)

أما الصابئون: فقد اضطربت أقوال العلماء فيهم، فقيل: إن هذا اللفظ ليس بعربي، وقيل: إنه من صبا بمعنى مال، وسمي الصابئ بذلك لخروجه عن الدين الحق إلى الدين الباطل، وقيل هو من صبا إذا خرج، ومنه صبأت النجوم من مطالعها إذا خرجت، ومن هنا سميت العرب كل من خرج عن دينه إلى غيره صابئاً. ^(٣) وقيل: الصابئة: عبدة الكواكب، وقيل: بل هم عبدة الملائكة، والصابئة من سكان العراق في القديم. ^(٤) والراجح: أن حكمهم حكم المجوس تؤخذ منهم الجزية ولكن لا تؤكل ذبائحهم ولا تحل نساؤهم، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ^(٥)

أقوال المفسرين فيهم:

- جاء في تفسير الكشاف: الصابئون قوم خرجوا وعدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة. ^(٦)
- وجاء في تفسير القرطبي: أنه لا خلاف في أن اليهود والنصارى أهل كتاب، ... أما الصابئون فاختلف فيهم: فقال السدي: هم فرقة من أهل الكتاب، وقال مجاهد والحسن بن أبي نجيح: هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية، لا تؤكل ذبائحهم، وقال الحسن وقتادة:

(١) الشريدة، د. محمد حافظ، وعراني، الطائفة السامرية، (ص ٣٠).

(٢) المصدر السابق ص ١٢.

(٣) البغوي، التهذيب، (٣٦٨/٥-٣٦٩). وانظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد خليل عيتاني ص ٢٧٦، دار المعرفة، بيروت، (الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

(٤) الجصاص، أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن (٣/٢٢٨). تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث.

(٥) سورة البقرة: الآية (٦٢).

(٦) الزمخشري، الكشاف (١/١٧٥).

هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرعون الزبور، ويصلون الخمس ويمضي
 الإمام القرطبي قائلاً: والذي تحصل من مذهبهم ... فيما ذكره بعض علمائنا - أنهم
 موحدون معتقدون تأثير النجوم وأنها فعالة، ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم حين
 سئل عنهم. (١)

- وقال الإمام ابن كثير بعد ذكره لأقوال السلف: (وأظهر الأقوال - والله أعلم - قول مجاهد
 ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا
 المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين لهم مقرر يتبعونه، ولهذا كان المشركون
 يندبون من أسلم بالصابي، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض آنذاك). (٢)
 أقوال الفقهاء فيهم:

يرى الإمام أبو حنيفة والحنابلة: أنهم قوم من النصارى يقرعون الزبور، ولا يعبدون
 الكواكب بل يعظمونها كتعظيم المسلمين للكعبة، وإن كانوا يخالفون غيرهم من أهل الكتاب في
 بعض دياناتهم. (٣)

أما المالكية، وأبو يوسف ومحمد من الحنفية: فذهبوا إلى أنهم عبدة أوثان. (٤)
 أما الشافعية، ففصلوا القول فيهم: فقالوا: إن وافقوا النصارى في أصل الاعتقاد
 وخالفهم في الفروع فهم نصارى، وإن خالفهم في الاعتقاد ووافقهم في الفروع فليسوا منهم. (٥)
 ولعل أقرب الأقوال منهم وأوضحها ما ذكره حجة الإسلام أبو بكر الجصاص: حيث بين أن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٩٥/١).

(٢) ابن كثير، أبو الغداء، القرشي دمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (١٠٤/١)، دار الدعوة، تركيا.

(٣) الزحيلي، الدكتور، وهبة، الفقه الإسلامي وأصله، (٦٦٥٧/٩) دار الفكر، دمشق، (الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ -
 ١٩٩٧م) وانظر: ابن قدامة المقدسي، المغني، (٣٤٢/٨).

(٤) البغوي، التهذيب، (٣٧٠/٥).

(٥) المرجع السابق (٣٧٠/٥).

أصل اعتقادهم تعظيم الكواكب السبعة وعبادتها واتخاذها آلهة من دون الله فهم عبدة أوثان في الأصل، وكانوا بالعراق إلا أن الفرس قهروهم وأزالوا مملكتهم، ومنعواهم من إظهار معتقدتهم، وكذلك الروم وأهل الشام والجزيرة كانوا صابئين فلما تنصرت قسطنطين^(١) حملهم على الدخول في النصرانية بالسيف، فدخلوا في الظاهر في عداد النصاري، وبقي كثيرٌ منهم على تلك النحلة مستخفين بعبادة الأوثان، فلما جاء الإسلام، لم يميزهم المسلمون من النصاري، إذ كانوا مستخفين فيهم كاتمين لاعتقادهم، ومن هنا نلاحظ أن أصل هذه الفرقة عبدة أوثان، ثم أظهرت نصرانيتها تقيّة، وذلك خوفاً من البطش وإبقاء على نفسها.^(٢) والحق يقال: إن اضطراب أقوال المفسرين والفقهاء بشأن الصابئة - كما يقول الأستاذ عبد الكريم زيدان - يدل دلالة واضحة على عدم المعرفة بعقيدتهم وبديانتهم، وأنّ ما قيل بشأنهم ما هو إلا من باب التخمين والتقدير أو بناء على ما ظهر من أحوالهم وعبادتهم، والظاهر والله أعلم أنهم ليسوا من أهل الكتاب ولا فرقة منهم، ولو أنّ السلف الصالح عرفوا حقيقة ديانتهم لما حصل مثل هذا الخلاف بشأنهم. هذا ولم يرد في السنة النبوية ما يدلّ على أن الصابئين من أهل الكتاب، أو أنه يسن فيهم سنة أهل الكتاب كالمجوس.^(٣)

أمّا المجوس، فمجوس: كلمة فارسية تطلق على أمة من الناس ويقال: تمجّس الرجل إذا صار مجوسياً، فمجوس كصبور، رجل صغير الأذنين أو هو من صنّع ديناً ودعا إليه.^(٤)

(١) وقسطنطين هذا هو الذي حُرف النصرانية عن التوحيد وفرض الشرك على النصاري حتى الآن. (شاهين، د. مصطفى، النصرانية تاريخاً وعقيدة وكتباً ومذاهب، دراسة وتحليل ومناقشة (ص ٢٠٧) دار الاعتصام، القاهرة).

(٢) الجصاص، أحكام القرآن، (٣/٣٢٨).

(٣) زيدان، عبد الكريم، موجز الأديان في القرآن ص ٩٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

(٤) وقيل: إن لفظ مجوس معرّب " مينج كوش" ونكر بعضهم أنّ كلمة مجوس، معرّب موكوش، فأطلق على أولئك القوم مجوس لأنهم كانوا يرسلون شعور رؤوسهم إلى أذانهم. (الألوسي، روح المعاني (١٢٩/١٧)).

ومجسه تمجيساً: صيره مجوسياً، والنحلة المجوسية، ويقطن المجوس بلاد فارس^(١) ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢) أقوال المفسرين فيهم:

جاء في تفسير الألوسي: المجوس هم قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران وروي ذلك عن قتادة، واقتصر بعضهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر، وآخرون على وصفهم بعبادة النيران، وقيل: هم قوم اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوح، وقيل: هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئاً ومن دين اليهود شيئاً، وهم قائلون إن للعالم أصليين نوراً وظلمة. وفي الكتب المختصة بهم ما يدل على أنهم طوائف، وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى، وأنهم يقولون بالشرائع على خلاف الصابئة، وأن لهم شبهة كتاب، وأنهم يعظمون النار.^(٣)

وجاء في تفسير القرطبي: أن المجوس هم عبدة النيران القائلون إن للعالم أصليين: النور والظلمة، وقال قتادة: الأديان خمسة، أربعة للشيطان وواحد للرحمن. وقيل: المجوس في الأصل النجوس، لتدنيهم باستعمال النجاسات.^(٤)

وفي تفسير الشوكاني: المجوس، هم الذين يعبدون النار ... وقيل هم قوم يعبدون الشمس والقمر ... وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوهم ولبسوا المسوح، وقيل: إنهم أخذوا بعض دينهم من اليهود وبعضه من النصارى.^(٥)

(١) البغوي، التهذيب (٣٧٣/٥).

(٢) سورة الحج: آية ١٧.

(٣) الألوسي، روح المعاني (١٩٢/١٠).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٢).

(٥) الشوكاني، فتح القدير (٤٤٣/٣).

واختلف الفقهاء في شأنهم: فذهب جمهور الفقهاء ومنهم الأئمة الأربعة إلى أنهم ليسوا من أهل الكتاب، وذهب أبو ثور، وداود، وروى عن علي، وحكاه ابن القصار عن المالكية، وابن حزم من الظاهرية إلى أنهم أهل كتاب^(١)، ولكل فريق أدلته نجملها فيما يأتي: استدل أبو ثور ومن معه من الفقهاء على أنهم أهل كتاب بما يلي:

١. ما رواه الإمام مالك في الموطأ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عمر قال: لا أدري ما أصنع بالمجوس فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: "سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب"^(٢) وجه الدلالة في الحديث: أنه أفاد الأمر بمعاملة المجوس معاملة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم وغيرها فدل هذا على أنهم أهل كتاب، والجزية لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب^(٣) بدليل قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾^(٤) وقد صح عنه ﷺ فيما رواه يعقوب بن عتبة، وإسماعيل بن محمد وغيرهما أنه أخذ الجزية من مجوس هجر، ومن المحال أن يفعل النبي ﷺ خلاف ما أمره الله، ولم يبلغنا أنه ﷺ أخذها من المجوس بوحى لتكون خصيصة لهم، وأخذها عمر من مجوس فارس، وأخذها عثمان من البربر.^(٥) ردّ عليهم بأن مدار الاستدلال بالحديث على العمل بمفهوم قوله تعالى: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ في آية أخذ الجزية، وهذا المفهوم معطل: بدليل فعل الرسول ﷺ، حيث أخذ الجزية منهم، وجاء التصريح في

(١) البغوي، التهذيب (٣٧٣/٥).

(٢) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده، (٢٠٩/١)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) البغوي، التهذيب، (٣٧٤/٥).

(٤) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٥) أخرجه عبد الرازق في مصنفه في كتاب أهل الكتابين، باب: هل يسأل أهل الكتاب عن شيء، برقم ١٩٢٦٠ (١٠/١).

(٢٢٧) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٣).

رواية أخرى بتحريم نساءهم، وذبايحهم، المفيد بعدم كونهم أهل كتاب، وليس هذا شأن أهل الكتاب في الأحكام، ولو كانوا من أهل الكتاب لما توقف عمر فيهم، وإذا كان المفهوم معطلاً فلا تدل الآية على منع أخذ الجزية من غير أهل الكتاب، فلا يكون أخذها من المجوس لأنهم من أهل الكتاب! (١)

٢. روى الإمام الشافعي، وعبد الرزق، وغيرهما بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، وأبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) أخذوا الجزية من المجوس، قال علي: "وأنا أعلم الناس بهم كانوا أهل كتاب يقرؤونه، وعلم يدرسونه، فنزع من صدورهم". (٢) وروى قطر بن خليفة أن فروة الأشجعي قال: إن هذا لأمر عظيم يؤخذ من المجوس الجزية، وليسوا بأهل كتاب؟ فقام إليه المستورد بن الأحنف فقال: طعنت على رسول ﷺ فتب، وإلا قتلتك، فقد أخذ رسول الله ﷺ الجزية من مجوس هجر، فرفعوا أمرهم إلى علي بن أبي طالب فقال: "سأحدثكما بحديث ترضيانه عن المجوس، إن المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرؤونه، وإن ملكاً لهم شرب الخمر حتى سكر فأخذ بيد أخته فوقع عليها فرفع كتابهم". (٣) وجه الدلالة من الروایتين: أنه كان لهم كتاب ثم رفع، ولا يخرجهم ذلك عن كونهم أهل كتاب، كما أن اليهود والنصارى بدّلوا أو حرقوا ولم يخرجوا من زمرة أهل الكتاب. (٤)

أما الجمهور فاستدلوا بما يأتي:

١. بقوله تعالى: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلون ﴾ (٥) وجه الدلالة: أخبر

(١) البغوي، التهذيب (٣٧٥/٥).

(٢) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده (١٧٠/١).

(٣) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده (١٧٠/١).

(٤) البغوي، التهذيب (٣٧٥/٥).

(٥) سورة الأنعام: الآيات (١٥٥-١٥٦).

الله تعالى أنه أنزل القرآن وأمر باتباعه، وأنزله قطعاً لحجة المعاندين المنكرين، حتى لا يدعوا أن الكتاب لم ينزل عليهم، وإنما نزل على طائفتين من قبلهم، هما اليهود والنصارى، فدلّت الآية على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى لا غير، فليس المجوس منهم، وإلا لزم الكذب في خبره تعالى، وهذا محال! (١)

٢. بما رواه الحسن بن علي بن أبي طالب بن محمد (رضي الله عنه) قال: «كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام فمن أسلم قبل منه، ومن لا ضربت عليه الجزية، في أن لا تؤكل لهم ذبيحة، ولا تتكح لهم امرأة» رواه أبو عبيد، (٢) وأخرجه عبد الرزاق بلفظ آخر. (٣) وجه الدلالة: دلّت هذه الرواية على أن المجوس يعاملون معاملة أهل الكتاب في أخذ الجزية فقط فلا تحل نساؤهم، ولا ذبائحهم، ومن تكون هذه حالة فليس من أهل الكتاب الذين أحلّ الله نساءهم وذبائحهم. (٤)

٣. بكتاب رسول الله ﷺ، الذي أرسله إلى هرقل عظيم الروم: (٥) «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم» (٦) ولم يكتب مثل ذلك في كتابه إلى ملك الفرس، ولم ينسبهم إلى كتاب. (٧) وجه الدلالة: أن الفرس لكونهم مجوساً لم يخاطبهم النبي ﷺ بصفتهم أهل كتاب مثلما خاطب الروم.

(١) البغوي، التهذيب (٣٧٥/٥).

(٢) أخرجه أبو عبيد في كتاب الأموال، باب أخذ الجزية من المجوس (ص ٣٦) أبو عبيد، القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

(٣) انظر: مصنف عبد الرزاق، كتاب: أهل الكتاب، باب: أخذ الجزية من المجوس، برقم (١٠٠٢٨) (٦/٦٩).

(٤) ابن قدامة، المغني (٣٤٣/٨)، والبغوي، التهذيب (٣٧٦/٥).

(٥) انظر: كجك، مروان، تهذيب سيرة ابن كثير (ص ٤٤٦)، دار طيبة الرياض، (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

(٦) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

(٧) انظر: كجك، مروان، تهذيب سيرة ابن كثير (ص ٤٤٩).

والراجع ما ذهب إليه الجمهور: من أنّ المجوس ليسوا أهل كتاب، وذلك لقوة أدلتهم، وسلامتها عن الطعن فيها، ولعلّ ممّا يؤيد هذا الترجيح، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنْ بِلِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾^(١). فقد ذكرت الآية أهل الديانات الذين هم سعداء في الآخرة وهم الذين عملوا بشرائعهم قبل أن تتسخ، ولم يذكر فيها المجوس، فهم كالمشركين في الحكم، لعدم نسبتهم إلى كتاب، وعدم سعادتهم في الآخرة، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى الفرق الموجودة في زمن النبي ﷺ الذين وعدهم بالفصل يوم القيامة^(٢) فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) فكان نكرهم في هذه الآية دون تلك دليلاً يبعد المجوس عن أهل الكتاب، إذ لو كانوا مثلهم لكان لهم كتاب يعملون بمقتضاه، وكان سبباً لسعادتهم ونجاتهم يوم القيامة.^(٤)

وموجز القول: إنّ الراجع في تعريف أهل الكتاب، هو ما ذهب إليه الشافعية، والحنابلة: بأنهم اليهود والنصارى بمختلف فرقهم، والذي دعانا لهذا الترجيح: هو أنّ الأدلة مجتمعة تدور مع هذا القول، أمّا الآراء الأخرى ففيها تكلف ولا تخلو من ضعف أو مناقشة، كما أنّ أهل الكتاب في اصطلاح القرآن هم اليهود والنصارى فحسب، والله تعالى أعلم.

(١) سورة البقرة: الآية ٦٢.

(٢) البغوي، التهذيب (٣٧٧/٥).

(٣) سورة الحج: الآية ١٧.

(٤) البغوي، التهذيب (٣٧٧/٥).

* وإن كان الغالب اليهود منهم.

المبحث الثالث: موقف الإسلام من الإسرائيليات

في البداية لا بد أن نعرّف معنى كلمة إسرائيليات، فنقول وبالله التوفيق: الإسرائيليات: جمع مفردة إسرائيلية، وهي قصة أو حادثة تُروى عن مصدر إسرائيلي، فهي بالتالي نسبة إلى بني إسرائيل،^(١) وإسرائيل كما هو معروف هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، أبو الأسباط الاثني عشر، ومن تتاسلوا منهم فيما بعد إلى عهد موسى ﷺ ومن جاء بعده من الأنبياء، وإلى يعقوب ﷺ يُنسب اليهود فيقال: بنو إسرائيل. وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم منسوبيين للنبي يعقوب في مواضع كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٢) وقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾^(٣) وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٤).^(٥) لكن مصطلح الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير إلا أن علماء التفسير والحديث يطلقون هذا اللفظ في اصطلاحهم على ما هو أشمل وأعم من ذلك، فيشمل هذا اللفظ كل ما دخل كتب التفسير والحديث والتاريخ القديم من أساطير قديمة يرجع أصل روايتها إلى مصادر بني إسرائيل - اليهودية أو النصرانية - بل إن بعض العلماء توسع أكثر من ذلك، فعَدَّ من الإسرائيليات كل ما دسّه أعداء الإسلام من يهود ونصارى وغيرهم على التفسير والحديث والتاريخ مما لا أصل له في الحقيقة والواقع؛ ليفسدوا عقائد المسلمين ويلبسوا عليهم دينهم! وإنما أطلق على الجميع لفظ الإسرائيليات من باب التغليب

(١) الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث ص ١٩. وانظر: أبو شهبه، محمد بن محمد، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ١٢.

(٢) سورة المائدة الآية ٧٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٤٠.

(٤) سورة الإسراء الآية ٤.

(٥) الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث ص ١٩ - أبو شهبه، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ١٢.

للجانِب اليهودي على الجانب النصراني، لكثرة النقل والأخذ عن الجانب اليهودي، حيث اشتهر أمر اليهود، وكثر اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط سلطانه في بقاع الأرض. ^(١) وقد كان لليهود وثقافتهم الدينية الخاصة بهم، والتي تستمد مصادرها بدايةً من التوراة، ثم من الوصايا والشروح التي لم تؤخذ عن موسى ﷺ كتابةً، وإنما تناقلها القوم مشافهةً جيلاً بعد جيل ونمت وتزايدت، حتى دونت فيما بعد، وأطلق عليها اسم: التلمود. ^(٢) وأما النصارى فمصدر ثقافتهم الدينية ومعارفهم يعود في الغالب إلى الأناجيل وشروحها، والرسل وسيرهم، هذه المصادر كلها كانت المنابع الأصلية للإسرائيليات، التي حُشيت بها كتب التفسير والتاريخ والقصص، والمواعظ، وإن كان في هذه الروايات بعض الحقّ فيها باطل كثير، وكذب صراح، وافتراءات جمّة... ^(٣) والحق يقال: إن ما جاء في كتب التفسير من الإسرائيليات أكثر بكثير مما ورد فيها من النصرانيات التي لا تكاد تذكر بجانب الإسرائيليات وأثارها السيئة، فهي أبعد أثراً، وأشدّ خطراً، أما النصرانيات فقد ورد معظمها في الأخلاق والمواعظ. ^(٤) والحقبة أن

(١) الذهبي، الدكتور محمد حسين، التفسير والمفسرين، بحث تفصيلي عن نشأة التفسير تطوره وألوانه ومذاهبه (١٦٥/١) (الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، والمؤلف نفسه، الإسرائيليات في التفسير والحديث (١٩-٢٠). وانظر: أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (ص ١٣ - فما بعدها).

(٢) التلمود: هو مجموعة من التفاسير والشروح للتوراة وضعها أحبار اليهود لاستمرار هيمنتهم على العالم، وتتعلق هذه الشروح بشؤون العقيدة والشريعة والتاريخ، بالإضافة إلى الروايات الشفوية التي تناقلها اليهود جيلاً بعد جيل، وبلغ ما جمعه هؤلاء المجتهدون من اليهود ثلاثة وستين سقراً، تمّ تأليفها خلال القرنين الأول والثاني الميلادي وقد أطلق عليها اسم "المشناة" وتعني: الشريعة المكررة؛ لأنّ المشناة تكرر وياضاح وتكمل لما ورد في التوراة، وبجانب المشناة توجد "الجمارا"، وهي عبارة عن: حواشي وتفسيرات وتعليقات للمشناة وضعها مجتهدون آخرون من اليهود في الفترة الممتدة بين القرنين الثاني والسادس الميلادي، فمعنى الجمارا: الشرح والتعليق، ومن المشناة والجمارا يتكون التلمود، الذي يأتي بمعنى: التعاليم والآداب الدينية لليهود ويعتقد أكثر اليهود أنّ التلمود كتاب مقدس، وهو في منزلة التوراة، بل إنّ بعضهم يضعه في منزلة أسمى من منزلة التوراة، وقد احتوى التلمود على كثير من الأكاذيب والافتراءات التي لا يقبلها النقل أو العقل! انظر: طنطاوي، د. محمد سيّد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ٨٧) دار الشروق، القاهرة (الطبعة الأولى ١٩٩٧. أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ١٣.

(٣) الذهبي، التفسير والمفسرون (١٧٠/١)، والإسرائيليات (ص ١٩ - ص ٢٠).

(٤) أبو شهبة، الإسرائيليات، ص ١٤. وصالح، السيد سعد الدين، العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية (ص ١٨٥ - فما بعدها)، مكتبة الصحابة، جدة، ومكتبة التابعين، القاهرة (الطبعة الثانية).

ما أدخله اليهود على الإسلام والمسلمين أفسد التاريخ وأتعب الفقهاء ورواة الحديث. (١) وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء وفتشنا في صفحات التاريخ، فإننا ندرك السر في ذلك حيث إن اليهودية منيت بالفشل العسكري أمام دعوة الإسلام الفتية بقيادة المصطفى ﷺ، فقتل من اليهود من قُتل وشرّد منهم من شرّد في المدينة المنورة وخبير، ففطن اليهود إلى سلاح أخطر من السلاح العسكري يعرضهم عن هزيمتهم ويشفي غليلهم وحقنهم على الإسلام والمسلمين، ذلك هو سلاح الغزو، فدسّت الإسرائيليات والنصرانيات على حين غرة من المسلمين، ولم تمض سنوات قلائل حتى غصت بها كتب المسلمين. (٢)

موقف الإسلام من هذه المرويّات:

إنّ المتنبّع للنصوص الشرعية أو المأثور عن السلف الصالح بشأن رواية الإسرائيليات يجد أنّ هناك أدلة تجيز روايتها وأخرى تمنعها، وسنعرض لكلا الأمرين باختصار ثم نوفق بينهما ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ونبدأ أولاً بأدلة المنع وأهمّها:

(١) الآيات الكريمة الدالة على أن اليهود والنصارى بدّلوا وحرفوا كتبهم وأخفوا الكثير منها، ممّا أفقد الثقة بها، وإذا فقدنا الثقة في كتاب فمن باب أولى لا تجوز الرواية عنه، ومن هذه الآيات: (٣) قوله تعالى: ﴿ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ (٥) وقوله

(١) نعناعة، محمود، تاريخ اليهود ص ١٠٩، دار الفكر، الأردن (الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

(٢) القرضاوي، يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم (ص ٣٤٥).

(٣) الذهبى، الإسرائيليات في التفسير والحديث (ص ٥٥).

(٤) سورة المائدة: الآية ٤٦.

(٥) سورة المائدة: الآية ١٣.

تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾^(١)

(٢) الحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كان أهل الكتاب يقرعون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: "أما بما أنزل... الآية".^(٢)

(٣) الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد وابن أبي شيبة والبخاري من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما): "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه فغضب، فقال: "أمتهوكون"^(٣) فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبوا به، أو يباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني"^(٤)

(٤) الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرعونه لم يشب،^(٥) وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله وغيروا

(١) سورة المائدة: الآية ١٤.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير، باب (قولوا أما بالله وما أنزل إلينا). برقم ٤٤٨٥، وانظر: شرح الحديث في ابن حجر المسقلائي أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ، فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢١٦/٨). دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).

(٣) أمتهوكون فيها: أي أمتهيون في ملتكم، انظر: ابن منظور، لسان العرب (١٦٠/١٥).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٥١٥٦) (٣٤٨/٢٣)، جاء في مجمع الزوائد للهيتمي: رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري وفيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما، (الهيتمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد (١/ ١٧٤)، دار الريان للتراث، القاهرة، ودار الكتاب العربي، بيروت (١٤٠٧هـ).

(٥) يشب: أي لم يخلط، انظر: ابن حجر، فتح الباري (٢٩٢/٥).

بأيدهم الكتاب، فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم

عن مسألتهم؟ ولا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم".^(١)

أما أهم أدلة جواز الرواية عنهم فهي:

(١) الآيات الواردة في القرآن الكريم الدالة على جواز الرجوع إلى أهل الكتاب وسؤالهم عما

بأيديهم منها، قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ

مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٢) ففي هذه الآية إباحة سؤال النبي ﷺ لأهل الكتاب، وكذلك أمته، وكما هو

مقرر شرعاً أن خطاب الله تعالى لنبيه ﷺ خطاب لأُمَّته ما لم يقم دليل بالتخصيص كما هو

الحال في هذا المقام.^(٣) ومنها قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ

إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ التَّوْرَةَ، قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾^(٤) ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٥) قيل: هو الحصين بن سلام حبر اليهود الأعظم

وقد سماه النبي ﷺ بعد الله بعد إسلامه، وقيل: هم من اليهود والنصارى، ومنهم ابن سلام

وفي ذلك إباحة الرجوع إلى أهل الكتاب.^(٦)

(٢) الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «بلغوا

عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الشهادات، باب (لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها برقم ٢٥٣٩، ٢٩٢/٥).

(٢) سورة يونس: الآية ٩٤.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٥/٨) وانظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير (٢٨٤/٦)، دار سحنون، تونس، (١٩٩٧م) وانظر: الذهبي الإسرائيليات (ص ٥٧). والمراد بالشك في الآية على سبيل الفرض والتقدير؛ لأن الشك لا يتصور منه أصلاً، أو هو خطاب للنبي ﷺ والمراد به: أمته. الزمخشري، الكشاف (٣٥٢/٢).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٩٣.

(٥) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٢١/٢).

من النار^(١) وقد ذكر الإمام ابن كثير هذا الحديث في مقدمة تفسيره، مستدلاً به على جواز التحديث عن أهل الكتاب فيما علمنا صدقه. ^(٢)

(٣) الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "إن الله عز وجل ابتعث نبيه ﷺ لإدخال رجل الجنة فدخل الكنيسة فإذا هو يهودي، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة، فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا وفي ناصيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ ما لكم أمسكتم، قال المريض إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبي ﷺ وأمته فقال: هذه صفتك وصفة أمك، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ثم مات فقال النبي ﷺ لوأ أخاكم^(٣) فقول النبي ﷺ: "ما لكم أمسكتم" واستماعه للمريض، وهو يقرأ من التوراة دون إنكار عليه دليل على جواز الأخذ عنهم بما لا يتعارض مع شريعتنا. ^(٤)

(٤) ما ثبت من سؤال بعض الصحابة رضوان الله عليهم من أسلم من أهل الكتب عن بعض ما جاء في كتبهم مما ورد مجملاً في القرآن الكريم، كأبي هريرة، وابن عباس وغيرها، ومن ذلك سؤال أبي هريرة لكعب الأحبار (رضي الله عنه) عن الساعة التي أخبر النبي ﷺ أنه يُستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة، ثم سألته لعبد الله بن سلام عن هذه الساعة، ومراجعتهما في ذلك.

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ما نُكِر عن بني إسرائيل برقم ٣٤٦١، انظر: ابن حجر، فتح الباري (٦/٦١٤).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/١).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم ٣٩٥١ (٦٤/٧).

(٤) الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث (ص ٥٩).

(٥) ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما. (١)

بعد إجمالة النظر في أدلة المنع وأدلة الجواز السابقة نرى أنّ بإمكاننا إزالة التعارض بين الأدلة ثم التوفيق بينهما فنقول وبالله التوفيق: إن دين الإسلام دين معرفة وعلم وثقافة وقد حدثنا القرآن الكريم عن كثير من الأمم السابقة، لناخذ العبرة والعظة من قصصهم، وحدثنا النبي ﷺ عن بعض قصص السابقين كقصة الأبرص والأقرع والأعمى من بني إسرائيل، (٢) وهناك آيات كثيرة أجازت للمسلمين سؤال أهل الكتاب للاعتبار والاعتاظ بما عندهم، كقوله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ (٣) والحق يقال: إن ما ورد من أدلة على جواز التحديث عن أهل الكتاب، يُحمل على ما علمنا صدقه بموافقته لما عندنا من نصوص الكتاب والسنة، أمّا الأدلة التي تنهانا أن نأخذ عن أهل الكتاب، فإنها تُحمل على ما علمنا كذبه - لمخالفته ما عندنا - فنجزم بأنه مما طالته يد التحريف والتبديل من كتبهم، وهذا القسم لا تجوز حكايته إلا على سبيل بيان كذبه وبطلانه: كالطعن في الرسل (عليهم السلام) ثم إن هناك سببا آخر ذكره الإمام ابن حجر في الفتح، وهو أن النهي عن الأخذ عن أهل الكتاب كان في أول الإسلام، وقبل استقرار الأحكام، فكان النهي مخافة الخلط والتشويش على الأحكام والعقائد، ثم لما استقرت الأحكام والعقائد جاء الأمر بالإباحة. (٤) وما لم نعلم صدقه ولا كذبه وذلك بسكوت شرعنا عنه فنتوقف في قبوله مع جواز روايته على سبيل الحكاية فقط، وعلى هذا يُحمل حديث

(١) الذهبي، الإسرائيليات (ص ٥٩)، والزاملة: الدابة التي يُحمل عليها المتاع، انظر: الزمخشري، جار الله، محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة (٤٢٢/١)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب: الأنبياء، باب: حديث أبرص وأعمى، وأقرع في بني إسرائيل برقم ٣٢٢٧٧ (١٢٧٦/٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٦٣.

(٤) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (٦١٧/٦).

النبي ﷺ: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بما أنزل إلينا"^(١) بعد هذا البيان بقي علينا أن نحدد بوضوح موقف الإسلام من مرويات أهل الكتاب وهو: القبول أو الرد أو التوقف في ذلك:

- فالمقبول من مروياتهم الذي نصدقه وتجوز لنا روايته هو ما كان صحيحاً بموافقته لما في شريعتنا وقيام الدليل من شرعنا على تصديقه، فصار جزءاً من علومنا الشرعية ومثال ذلك: ما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري قال: حدثني يحيى بن بكر، حدثنا الليث عن خالد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلأ لأهل الجنة، فأتى رجل من اليهود، فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة، قال: بلى، قال: تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم، قال (بالأم وتون قالوا: وما هذا، قال: ثور، ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً"^(٢)

- والمردود منها والذي نكذبه ولا تجوز لنا روايته إلا على سبيل إظهار بطلانه، ونجزم بوصول يد التحريف والتبديل إليه، هو ما كان مخالفاً لما في شريعتنا، وأبطله الكتاب والسنة، ومثاله: ما رواه ابن جرير في تفسيره قوله تعالى: ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على

(١) أخرجه الإمام البخاري، في كتاب التفسير، باب: قولوا آمنا بالله وما أنزل (إلينا) برقم (٤٤٨٥)، انظر: ابن حجر، فتح الباري (٢١٦/٨).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة برقم: (٦١٥٥)، البخاري، أبو عبد الله، الجعفي، محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وروايته وأيامه (٢٣٨٩/٥) تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. والإمام مسلم في صحيحه، في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٣٥/١٧).

كرسيه جسداً^(١) حيث أورد رحمه الله عدة روايات في تفسير الآية، وفي بعضها، أن الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان هو شيطان اسمه صخر المارد، وفي رواية ثانية: أن اسمه آصف حيث سلط على ملك سليمان.^(٢)

- والذي نتوقف فيه هو ما سكت عنه شرعنا فلم يقد دليل من شرعنا على تأييده أو تفنيده، وتجاوز لنا روايته فقط على سبيل الحكاية لا تصديقاً له، ومثاله: ما ذكره ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾^(٣) حيث ذكر قصة رجل من بني إسرائيل على عهد موسى ﷺ وكان هذا الرجل مكثرًا من المال، وكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب ابنته فأبى أن يزوجه لها، فغضب على عمه وعزم على قتله ... إلى آخر القصة،^(٤) ومثاله كذلك: أسماء فتية أهل الكهف.

والخلاصة:

١. ما جاء في الكتب السابقة مما يتعارض مع شريعتنا: فإننا نكذبه ولا نأخذ به.
٢. ما جاء في الكتب السابقة مما يتفق مع شريعتنا: فإننا نصدقه ونحدث به.
٣. ما جاء في الكتب السابقة مما لا يتفق ولا يتعارض مع شريعتنا: فإننا نتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه.

(١) سورة ص: الآية ٣٤.

(٢) الطبري، جامع البيان (١٥٦/٢٣).

(٣) سورة البقرة: الآية ٦٧.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٨/١ - فما بعدها).

الفصل الأول: الاحرافات العقديّة عند أهل الكتاب

ويتضمن خمسة مباحث:

المبحث الأول: اتحرافات اليهود بشأن الذات الإلهية.

المبحث الثاني: اتحرافات أهل الكتاب بشأن الملائكة.

المبحث الثالث: تحريف أهل الكتاب لكتبهم الإلهية.

المبحث الرابع: اتحرافات أهل الكتاب بشأن النبوة.

المبحث الخامس: اتحرافات أهل الكتاب بشأن اليوم الآخر.

المبحث الأول: انحرافات اليهود بشأن الذات الإلهية: ويشمل:

١. اليهود وعبادة العجل... .

٢. انحرافات اليهود الأخلاقية بشأن الذات الإلهية.

أولاً: اليهود وعبادة العجل

- الانحراف في اللغة: هو الميلان والعدول، فإذا مال الإنسان عن شيء يقال: تحرف وانحرف، واحرورف. (١)

أمّا التحريف: فهو الميل بالشيء إلى الحرف، والحرف هو الجانب، وقد كثر في كلام العرب استعارة معاني السير وما يتعلق به إلى معاني العمل والهدى وضده، فمن ذلك قولهم: الصراط المستقيم، وجادة الطريق، وسواء السبيل .. ولما شاع تشبيه الحق والصواب بالجادة وبالصراط المستقيم شاع في تشبيهه ماخالف ذلك بالانحراف. (٢)

بعد هذه التوطئة نقول: إنّ عقيدة التوحيد الخالص جاءت بها جميع الشرائع الإلهية، ودعا إليها جميع الأنبياء (عليهم السلام) فما من بني إيلآ وقال لقومه: ﴿اعبدوا الله مالم من إله غيره﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (٥) فعقيدة التوحيد تمثل الركن الأساسي في الدين وهي عقيدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها

(١) ابن منظور، لسان العرب (١٢٩/٣).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٤٣/٤) ووطنطوي، بنو إسرائيل (ص ٤٦٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

(٤) سورة النحل: الآية ٣٦.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(١). ورسالة موسى ﷺ جاءت بالتوحيد كباقي إخوانه الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه)، قال تعالى مخاطباً موسى ﷺ: ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾^(٢) فكان هذا هو جوهر دعوة موسى ﷺ إلى بني إسرائيل، الذين استجابوا له في بادئ الأمر، لكنهم سرعان ما نكثوا العهد، وارتدوا على أديبارهم مشركين خاسرين! وكانت بداية ذلك عندما أنجاهم الله من فرعون وأغرقه وجنوده في اليم، فأتى بنو إسرائيل على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾^(٣) وهنا تظهر لنا عقيدة اليهود في الذات الإلهية، حيث نسبوا لله النقص وأثبتوا له التجسيم.^(٤) بل إن الإله في العقيدة اليهودية يقوم بأعمال الإنسان، وحركاته، فهو يأكل ويشرب ويصارع التتيين^(٥) كما تصوره التوراة المحرفة! وفي مواضع أخرى تصوره التوراة بالندم والبكاء والضعف! بل إن أحد أسفار التوراة يصوره وهو يتحسر ألماً على شعبه قائلاً والعياذ بالله:^(٦)

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) سورة طه: الآية ١٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٤) أبو عويمر، مجدي بن عبد الله حسن، منهج ابن القيم في دراسة عقائد اليهود، مجلة الحكمة العدد الثامن عشر (ص ٢٤-٢٥). وانظر: السموأل ورؤيا النبي ﷺ ص ١٤١. تحقيق ودراسة الدكتور: محمد عبد الله الشرفاوي، دار الجيل، بيروت، ومكتبة الزهراء، القاهرة، (الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) وانظر: سغان، د. كامل، اليهودية تاريخاً وعقيدة (ص ١٦٠- فما بعدها)، دار الاعتصام، القاهرة.

(٥) ابن قيم الجوزية، شمس الدين، محمد بن أبي بكر ت ٧٥١هـ مقنمة كتاب هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق ودراسة الدكتور محمد أحمد الحاج ص ١٩٨، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، وطعميمة، الدكتور صابر، لتاريخ اليهودي العام (ص ١٠١)، دار الجيل، بيروت (الطبعة الثانية).

(٦) ابن القيم، هداية الحيارى (ص ١٩٨).

أحشائي أحشائي، توجعني جدران قلبي، يئن في قلبي لا أستطيع السكوت لأنه قد خربت كل الأرض... لأن شعبي أحمق، إياي لم يعرفوا هم بنون جاهلون، وهم غير فاهمين!!^(١)

وفي موضع آخر تصوّره التوراة المحرّقة وهو يصارع يعقوب - والعياذ بالله - فيتغلب عليه يعقوب في نهاية المطاف، جاء في سفر التكوين: (فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حَقُّ فخذَه. فانخلع حَقُّ فخذ يعقوب فسي مصارعه معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك).^(٢)

هكذا ترسم التوراة لإلههم صورة بشرية هزيلة ... فلا عجب إذن أن يتخذوا العجل إلهاً لهم من دون الله !! ومعلوم أن الله عز وجل منزّه عن صفات البشر وأفعالهم ومتصف بصفات الكمال والجلال والجمال، قال تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾^(٤) ونبقى مع الآيات الكريمة التي تحدثت عن عبادتهم للعجل ، وقد جاءت مفصلة في سورتي الأعراف وطه، حيث صورت هذه القصة بأسلوب القرآن البليغ الرائع: قال تعالى: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون ﴾ إلى قوله: ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ وقال تعالى: ﴿ واتخذ قوم

(١) الكتاب المقدس (المهدين القديم والجديد) سفر لرميا ٤/١٩-٢٢). دار للكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

(٢) سفر التكوين (٣٢/٢٤-٢٩).

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

موسى من بعده من حليتهم ﴿ ... إلى قوله: ﴿ والذين عملوا السينات ثم تابوا من بعدها وآمنوا
 إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم
 أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك، وأضلهم السامري
 ... إلى قوله تعالى: ﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ﴾^(٢).

كشف القرآن الكريم لهذا الانحراف :

شاء الله تعالى إنقاذ بني إسرائيل من ذلهم وهوانهم وجهالتهم، بقيادة كليمه موسى ﷺ،
 فيقودهم هذا النبي الكريم باسم الله الواحد الذي أبى فرعون لاعتراف به أو الإذعان لأمره، وهنا
 يجري الله تعالى لنبي إسرائيل المعجزات الباهرات على يد موسى ﷺ ، فيشق لهم البحر
 ليجاوزوه، ثم يطبقه على فرعون وجنوده أمام أعينهم، وما إن جاوزه القوم، وما زالت رماله
 عالقة بنعالهم حتى تقع أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم، فيحنّ القوم إلى ما عليه
 غيرهم من ضلال، وتجنّبهم طبيعتهم الوثنية، وينسون في لحظة واحدة تعاليم أكثر من عشرين
 عاماً أمضاها موسى ﷺ معهم معلماً ومربياً...^(٣) قال تعالى: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر
 فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾^(٤) قال
 ابن جرير: (قيل: إن القوم كانوا من لحم، وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى ﷺ بقتالهم،
 وكانوا يعبدون أصناماً لهم على صورة البقر).^(٥) والعكوف: هو الإقبال على الشيء وملازمته
 على سبيل التعظيم له.^(٦) لقد طلب القوم من نبيهم طلباً غريباً عجيباً: أن يجعل لهم صنماً

^(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨-١٤١) ومن (١٤٨-١٥٣).

^(٢) سورة طه: الآيات (٨٣-٩٨).

^(٣) قطب، سيّد، في ظلال القرآن (٣/١٣٦٦)، دار الشروق، القاهرة، (الطبعة السابعة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ووطنلوي،
 بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ٤٩٦).

^(٤) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

^(٥) الطبري، جامع البيان (٩/٦٢).

^(٦) الراغب، المفردات (٣١٦).

يعبدونه كما لغيرهم أصناماً يعبدونها! والأغرب من ذلك: أن يطلبوا إلى رسول ربّ العالمين أن يتخذ لهم بنفسه إلهاً...! ولو أنهم هم الذين اتخذوا آلهة لكان الأمر أقلّ غرابة، ولكنها الطبيعة اليهودية الوثنية المنحرفة. (١) والطبيعة التي تجرعت الذلّ الفرعوني، وألفت الوثنية، وعبادة البقر من قنماء المصريين الذين عاشوا معهم زمناً طويلاً، وهذه هي طبيعة المغلوب أن يقفد الغالب في كل شيء! (٢) وينقل الدكتور أحمد شلبي عن (ويلز) قوله: (إنّ اليهود كانوا في مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ، بدواً رُحلاً تسيطر عليهم الأفكار البدائية، كالخوف من الشياطين، والاعتقاد في الأرواح، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار). (٣) فالأمة اليهودية كانت بدعاً دون غيرها من الأمم حيث إنّ فكرة الإيمان بالله تعالى رباً وسيداً لكل ما في الكون، تقبلتها وتعلقت بها شعوب كثيرة، إلاّ جماعات بني إسرائيل، فكانوا وثنيين قبل موسى ﷺ، وظلّوا وثنيين بعده، ولم ترتق عقائدهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد. (٤) ويقرر الإمام ابن القيم: أن اليهود لا يعرفون حقيقة الإله ولا سماء صفاته ودينه. (٥)

إبطال القرآن الكريم لهذا الانحراف:

جاء على لسان موسى ﷺ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تعجّب موسى ﷺ من طلبهم هذا الدال على سفاهتهم فوصفهم بالجهل المطلق، دون تقييد بفعل، فهو جهل عام وشامل، (٦) جهل بحقيقة الألوهية وعظمتها، ولذلك طلبوا أصناماً آلهة، وهو جهل بحقيقة الإيمان لأنهم طلبوا ما يناقضه! وهم يجهلون أنهم على حق، وأن أولئك على باطل وأنهم خاسرون ...

(١) قطب، للطلال (١٣٦٦/٣).

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل ص ٤٩٦.

(٣) شلبي، أحمد، مقارنة الأديان (١) اليهودية، ص ١٨٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (الطبعة العاشرة ١٩٩٢م).

(٤) طعيمة، د. صابر، التاريخ اليهودي العام (٢/ ١٠٦).

(٥) ابن القيم، هداية الحيارى ص ٥٨٧.

(٦) قطب، للطلال (١٣٦٦/٣).

جهلهم بكل هذه الحقائق أوقعهم في الخفة والطيش والسفاهة، فرغبوا في عبادة الأصنام، وطلبوا من نبيهم طلباً وقحاً! أن يجعل لهم آلهة غير الله ويدعوهم لعبادتها. ^(١) ويتساءل ابن القيم فيقول: (أي: جهل فوق هذا الجهل، والعهد قريب، وإهلاك المشركين أمامهم بمرأى منهم، ثم يطلبون من موسى ﷺ أن يجعل لهم إلهاً! طلبوا من المخلوق أن يجعل لهم إلهاً مخلوقاً، وكيف يكون الإله مجعولاً؟ فإن الإله هو الخالق لكل ما سواه، والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن يكون إلهاً!) ^(٢) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا تَنْبَاهُ﴾ ما هم فيه وباطل ما كانوا يفعلون ^(٣). متبر: اسم مفعول من التبار، والتبار: هو الهلاك والدمار، نقول: إناء متبر أي: مكسر. ^(٤) قال تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾ ^(٥) أي هلكاً ودماراً. فموسى ﷺ يدعو بني إسرائيل إلى عدم الإعجاب أو الاقتداء بالقوم وعبادتهم للأصنام، ^(٦) لأن الله تعالى مهلك ما هم عليه من عبادة هذه الأصنام، فهم إلى خسارة وبورار لاستحقاقهم العذاب المهين. وهذا الذي هم عليه من عبادة للأصنام ضارٌ غير نافع، مضمحل عند مجيء أمر الله ^(٧) ثم نهم موسى ﷺ ووبخهم على طلبهم هذا بقوله: ^(٨) ﴿أَغْيِرَ اللَّهُ أَمْيِكُمْ إِيَّاهُ﴾ أي أطلب لكم إلهاً ^(٩) كلاً وحاشاً، وهل يصلح غير الله إلهاً ومعبوداً، إنه لا إله إلا الله، فكيف تطلبون مني أن أجعل لكم الأصنام لتعبدها! ^(١٠)

(١) الخالدي، د. صلاح، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث (١٢٣/٣) دار القلم، دمشق، والدار للشامية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ).

(٢) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان تحقيق وتعليق، مجدي فتحي السيد ص ٦٥٢، دار الحديث القاهرة.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٣٩.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٧٤/٧).

(٥) سورة نوح: الآية ٢٨.

(٦) الخالدي، القصص القرآني (١٢٣/٣).

(٧) الطبري، جامع البيان (٦٢/٩)، وابن كثير في تفسيره (٢٤٣/٢).

(٨) الخالدي، القصص القرآني (١٢٣/٣).

(٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٤/٧).

(١٠) الخالدي، القصص القرآني (١٢٤/٣).

وكيف تطلبون ذلك وقد امتن الله عليكم بنعمه الكثيرة حيث فضلكم على عالمي زمانكم^(١) وأنجاكم من آل فرعون

عكوفهم على عبادة العجل الذي صاغه لهم السامري...

ما أن يذهب موسى ﷺ لميقات ربه عز وجل على جبل الطور لينتقى التوراة التي فيها هدى ونور وصلاح بني إسرائيل، ويستخلف فيهم هارون ، بعد أن واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر: ﴿ فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾^(٢)، وما أن تركهم هذه المدة القصيرة المحدودة، حتى ارتد القوم على أعقابهم، وحصل ما كان يخشاه موسى ﷺ وما نهمهم على طلبه وعنفهم عليه أشد تعنيف، عندما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا: ﴿ يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾^(٣) . وشاء الله تعالى أن يختبر بني إسرائيل فيفتنوا، قال تعالى: ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾^(٤) فماذا كانت فتنتهم؟ قال تعالى: ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾^(٥) اتخذ القوم هذا العجل إلهاً يعبدونه من دون الله بل وقالوا: "هذا إلهكم وإله موسى فنمسي" . ومن نافلة القول: أن نذكر أن بني إسرائيل انقسموا فرقتين: فرقة عبثت العجل، وفرقة بقيت راسخة ثابتة على عقيدتها مع هارون ﷺ ، لكن من الذي صنع لهم العجل، وكيف، ولماذا؟ تجيبنا الآيات عن ذلك: بأن السامري هو الذي أضلهم ﴿ وأضلهم السامري ﴾^(٦) إذن السامري

(١) الطبري، جامع للبيان (٦٢/٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٤) سورة طه: الآيات (٨٣-٨٥).

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

(٦) عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: إن السامري رجل من أهل باجرما وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حبة عبادة للبقر قد تغلغل في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه موسى بن ظفر، وفي رواية -

هو الشيطان الذي أضلهم، فكيف ذلك؟ والجواب: قبل خروج بني إسرائيل من مصر استعارت نساؤهم الحليّ والذهب من القبط، وبقيت هذه الزينة معهم بعد خروجهم من مصر وكانوا يشعرون بتأثمهم لأخذها، وعزّر السامريّ لديهم هذا الشعور بالتأثم والذنب، وأنهم يعذبون بسبب هذه الزينة، فماذا يفعلون بها؟ دلّم السامريّ على طريقة للتخلّص منها، بأن يقذفوها في النار لحاجة في نفسه ففعلوا: ﴿ قالوا ما أخلقنا موعداً بملكنا ولكننا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامريّ ﴾^(١) قال القوم ذلك في معرض تبريرهم لفعاليتهم عندما أنكر عليهم نبيهم موسى ﷺ ذلك، بعد رجوعه إليهم من الطور ومعه الألواح التي كتبها الله له، فلما رآهم عاكفين على عبادة العجل ألقى الألواح غضباً على قومه كما قال جمهور العلماء^(٢) وأخذ بلحية أخيه وبرأسه يجره إليه لظنه أن هارون قصر في نصحتهم، ثم توجه موسى ﷺ لقومه بالتأنيب والتقريع. قال تعالى: ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بنسما خلفتموني من بعدي أعجلتكم أمر ربكم، وألقى الألواح وأخذ بأس أخيه يجره إليه، قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾^(٣) قال العلامة الراغب الأسف: الحزن والغضب معاً.^(٤) لقد وبّخ موسى ﷺ قومه قائلاً: بنسما صنعتكم في عبادتكم العجل بعد أن تركتكم، فهل استعجلتكم مجيئي إليكم، وهو مقترن من الله تعالى^(٥) والعجلة: التقدّم بالشيء قبل أوانه وهي منمومة.^(٦) وقال تعالى على لسان موسى ﷺ ﴿ قال يا

= ثانية، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان من كرمان، وقال قتادة: كان من قرية سامرا. (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١٦٣/٣).

(١) سورة طه: الآية ٨٧.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٨/٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

(٤) الراغب، المفردات (ص ٢٧).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٨/٢).

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٣/٧).

قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي»^(١) لقد بين لهم موسى ﷺ عظم الجريمة التي ارتكبوها، بجانب وعد الله لهم بكل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، وقد شاهدوا الكثير من ذلك، من الانتصار على عدوهم وغيره... فهل طال عليكم العهد في انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف، بل أردتم بصنيعكم هذا وانحرافكم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ونقضتم عهد الله.^(٢) ورحم الله الإمام ابن كثير حيث قال: (تورّع القوم عن زينة القبط فالتقوا عنهم، وعبدوا العجل! فتورعوا عن الحقيير وفعّلوا الكبير، وجاعوا بالأعدار الباردة)^(٣) لقد اعتذر القوم بأنهم لم يطيقوا حمل أنفسهم على الصواب، فلم يملكوا أمرهم حتى وقعوا في الذي وقعوا فيه من الفتنة.^(٤) أدرك القوم مدى الانحراف والضلال الذي وقعوا فيه، قال تعالى: ﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لتكونن من الخاسرين﴾^(٥) والمعنى لما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل؛ لأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده غمًا، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها، لما أبصر القوم ضلالهم بأم أعينهم، قالوا: ﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لتكونن من الخاسرين﴾ وهذا كلام التائبين.^(٦) علّق العلامة الزجاج على هذه الكلمة التي أجراها القرآن مجرى المثل ﴿سقط في أيديهم﴾ قائلاً: (هو نظم لم يسمع قبل القرآن ولم تعرفه العرب)^(٧) أما السامري فماذا كان جوابه عندما واجهه موسى ﷺ بقوله: ﴿قال فما خطبك

(١) سورة طه: الآية ٨٦.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٦٢).

(٣) المرجع السابق (٣/ ١٦٢) بملكتنا: الملك، بمعنى الإرادة والطلاقة والأمر. (الطبري، جامع البيان (١٦/ ١٩٧-١٩٨)، والخالدي، القصص القرآني (٣/ ١٦٥) والوزر: هو النقل تشبيهاً بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر به عن النقل. (الراغب، المفردات) (٥٣٦) ففي نقل معنوية لاصية ناتجة عن الأثام. (الخالدي، القصص القرآني (٣/ ١٦٧).

(٤) الطبري، جامع البيان (١٦/ ١٩٧) - فما بعدها).

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٩.

(٦) الزمخشري، الكشاف (٢/ ١٥١).

(٧) ابن عسور، التحرير والتنوير (٥/ ١١٢).

يا سامري، قال بصرت بما لم يبصروا به، فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سوكت لى نفسي ﴿^(١) والمعنى: ما هو غرضك مما فعلت، وما هي مصيبتك التي أصبت بها القوم ^(٢)﴾
﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾.

ذهب أكثر المفسرين إلى أن بصرت بمعنى نظرت، بناءً على أن بَصُرَ وَأَبْصَرَ كلاهما من أفعال النظر، والصحيح أن بَصُرَ بالشيء، صار بصيراً به أو بصيراً بسببه، أي شديد الإبصار، فهو أقوى من أبصرت لأنه صنع من فعل بضم العين، الذي تستق منه الصفات المشبهة الدال على كون الوصف سجية، قال تعالى: ﴿ فَبَصَرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ ^(٣) وفي لسان العرب: إنه لبصير بالأشياء أي: عالم بها، ^(٤) فبصرت بالشيء أي: علمته ^(٥) فالمعنى: علمت ما لم تعلموه، وفطنت لما لم تظنوا له. ^(٦) ومعنى: "فقبضت قبضة من أثر الرسول" ذهب جمهور المفسرين: إلى أن الرسول هنا هو جبريل، فقد ورد إطلاق لفظ الرسول على جبريل في غير هذا الموضوع، قال تعالى: ﴿ إنه نقول رسول كريم ﴾ ^(٧) والقبضة التي هي من أثر الرسول: قبضة التراب من أثر حافر فرس جبريل، قال سفيان، وكان ابن مسعود يقرأها: فقبضت قبضة من أثر فرس جبريل. ^(٨) والمعنى: أن السامري علم ما لم يعلمه غيره وفطن إلى ما لم يفطنوا له، فألقى ما في يده على حلية بني إسرائيل المنصهرة، فانسبك عجلًا جسداً له خوار، وهذا هو فهم مجاهد وغيره من التابعين للأية. ^(٩) وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحمًا

^(١) سورة طه: الآيتان ٩٥ - ٩٦.

^(٢) ابن عثور، التحرير والتنوير (٢٩٥/٨).

^(٣) سورة القصص: الآية ١١.

^(٤) ابن منظور، لسان العرب مادة بصر (٤١٩/١).

^(٥) ابن عثور، التحرير والتنوير (٢٩٥/٨).

^(٦) للزمخشري، الكشاف (٨٥/٣).

^(٧) سورة التكاوير، الآية ١٩.

^(٨) الطبري، جامع البيان (٢٨/١).

^(٩) للخالدي، القصص القرآني (١٧٤/٣).

وإذا له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبحر؟^(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت.^(٢) ووصفه بالجسد دليل على أنه لا حياة فيه.^(٣) ثم قال لهم السامري: "هذا إلهكم وإله موسى ﷺ فنسي" أي الذي نسيه عندنا وذهب يطلبه في الطور.^(٤) وهذا أرجح القولين في تفسير الآية، لورود الآثار به عن السلف، وهو ما رجحه ابن جرير في تفسيره^(٥) فأى شرك أعظم من هذا الشرك؟ وأي جهل أشد من هذا الجهل أن يعبدوا صنماً صنعوه بأيديهم؟! والأعجب من ذلك: أن ينسبوا الشرك لموسى ﷺ وعبادة غير الله عز وجل.^(٦) ورفض القوم الاستجابة لنبي الله هارون عندما زجرهم ونهاهم عن عبادة العجل، بل هموا بقتله، وصمموا على البقاء عاكفين على عبادته حتى يرجع إليهم موسى ﷺ فينظر فيه ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتنتم به * وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾^(٧) لقد أشرب القوم حبة العجل وتغلغل في سويداء قلوبهم بسبب كفرهم، فقال لهم على سبيل التهكم بهم بنس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل: ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بنسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾.^(٨)

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤٧).

(٢) المصدر السابق (٢/١٦٢).

(٣) قطب، الظلال (٤/٢٣٤٧).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/١٦٢) وقطب، الظلال (٤/٢٣٤٨).

(٥) الطبري، جامع البيان، (١/٢٨٢).

(٦) ابن القيم، اغائة للبهان (ص ٦٥٢).

(٧) سورة طه: الآية ٩٠.

(٨) سورة البقرة: الآية ٩٣.

وقد ردّ القرآن الكريم على القوم مبيناً سفاهة عقولهم:

قال تعالى: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً - اتخذوه وكتابوا ظالمين﴾^(١)

ينكر الله تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذهولهم عن خالق السماوات والأرض، ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال. ^(٢) قال تعالى: ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً﴾ ^(٣) يقول الإمام ابن القيم راداً على القوم افتراءهم ومتهمكاً بهم: (فانظر إلى هؤلاء كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب محتاجاً إلى سبك النار، وتصفية وتخليص لخبثه منه، مذقوقاً بمطارق الحديد، مقلوباً في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبرد، وأحدث الصانع صورته، وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم، جعلوه إله موسى ﷺ، ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلهاً غيره. ^(٤)!؟

ثانياً: الانحرافات العقدية الأخلاقية عند اليهود فيما يتعلق بالمولى عز وجل:

لقد أسلفنا الحديث عن القوم وعقيدتهم في الله تعالى، وكيف وصفوه في توراتهم المحرفة بالأوصاف الكفرية التي تقشع منها الأبدان!! مع أن الله تعالى قد آتاهم من الآيات والمعجزات ما لم يؤت أحداً من العالمين، فشق لهم البحر ونجّاهم من عدوهم، ونزل عليهم المن والسلوى، ورفع فوقهم الطور... الخ فهل قابل القوم هذه النعم وغيرها بالشكر لله رب العالمين، كلا لقد تنكروا لكل ذلك، ولم يتورعوا عن سب الذات الإلهية، ووصفها بالنقصان... بما لا يصف به عابدٌ إلهه، حتى لو كان حجراً، أو شجراً، أو حيواناً، ... ، وقد كشف القرآن جانباً من

^(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

^(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٤٧).

^(٣) سورة طه: الآية ٨٩.

^(٤) ابن القيم، إغاثة اللهفان (٦٥٣).

هذه الانحرافات العقديّة الأخلاقيّة، راداً على اليهود افتراءاتهم وأباطيلهم.

١. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴿^(١) وقال تعالى ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ﴿^(٢) أخرج ابن جرير بسنده عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله، فأنتنا بالألواح من عند الله حتى نصدّك، فأنزل الله: "يسألك أهل الكتاب" إلى قوله بهتاناً عظيماً، فجاء رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحدٍ شيئاً، فأنزل الله: "وما قدروا الله حق قدره" الآية^(٣) لقد كشف القرآن الكريم في الآيتين السابقتين طرفاً من عقيدة اليهود المنحرفة في الذات الإلهية مما يدلّ على مدى سفاهة القوم وسوء أدبهم مع خالق السماوات والأرض، حيث ظنوا أنّ الإله يمكن تحديده ورؤيته وتجسيده كباقي الأشياء فطلبوا من موسى ﷺ أن يريهم الله جهرة، ويزداد الأمر عجباً: إذا علمنا أنّ هذه المقولة الشنيعة صدرت عن السبعين المختارين من بني إسرائيل "صفوة القوم" (والذين تسميهم التوراة شيوخ بني إسرائيل أو الكهنة)^(٤) !! وقال ابن زيد: القائلون هم جميع بني إسرائيل إلا من عصم الله.^(٥) وقد وردت في هذه الواقعة روايات كثيرة أخرجها الطبري وابن كثير

(١) سورة البقرة: الآيتان ٥٥-٥٦.

(٢) سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٣) السيوطي، جلال الدين، لباب النقول في أسباب النزول ص ١٠٦، دار المعرفة، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(٤) ابن عسور، التحرير والتنوير (١/٥٠٦).

(٥) ابن الجوزي، أبو الفرج، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير (١/٨٣)، المكتب الإسلامي، بيروت، (الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ).

ففي تفسيريهما. ^(١) ثم عتب ابن جرير على هذه الروايات بقوله: ولا خبر عندنا بصحة شيء مما قاله من ذكرنا قوله، في سبب قولهم ذلك لموسى ﷺ، تقوم به حجة فتسلم لهم .. فإذا كان لا خبر بذلك تقوم به حجة، فالصواب من القول فيه أن يقال: إن الله جل ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى ﷺ أنهم قالوا له: "يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرًا كما أخبر عنهم أنهم قالوه." ^(٢) وفي قوله تعالى: "جهرًا قولان: أحدهما: أنها الرواية البيانية (العينية) أي: أرنا الله عياناً غير مستتر عنا بشيء، من قبيل قولنا: فلان يجاهر بالمعاصي أي: لا يستتر عن الناس، قاله الزجاج، والثاني: أنها صفة لقولهم أي: جاهروا بذلك القول، قاله ابن عباس وأبو عبيدة. ^(٣) قال الزمخشري: كأن الذي يرى بالعين جاهر بالرواية، والذي يرى بالقلب مخافت بها. ^(٤) وقال أبو البقاء: هي حال من فاعل قلتم أي قلتم ذلك مجاهرين. ^(٥) يقول سيد قطب في الظلال: (إن الآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعمو والمغفرة ... كل ذلك لم يغير من تلك الطبيعة - طبيعتهم - التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماطل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتكيل). ^(٦) فماذا كانت عقوبتهم على طلبهم هذا وسوء أدبهم مع خالقهم؟ لقد أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون!. قال الراغب: (والصاعقة هي الصوت الشديد من الجو ثم يكون فيه نار فقط أو عذاب أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها). ^(٧) فالصاعقة هي سبب الموت دلّ على ذلك قوله تعالى في حق موسى ﷺ

^(١) انظر: للطبري، جامع البيان (٢٩٢/١)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٤-٩٣/١).

^(٢) للطبري، جامع البيان (٢٩٣/١).

^(٣) ابن الجوزي، زاد المسير (٧٢/١) وانظر: ابن عادل، أبو حفص، عمر بن علي للدمشقي الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض (٨٥/٢) دار للكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

^(٤) الزمخشري، الكشاف، (١٦٩/١).

^(٥) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب (٨٥/٢).

^(٦) قطب، الظلال، (٧٢/١).

^(٧) الراغب، المفردات، (ص ٢٨٥).

«وخسر موسى صعقاً» فأثبت الصاعقة في حقه مع أنه لم يكن ميتاً، لقوله: «قلما أفاق» والإفاقة تكون للمغشي عليه لا للميت، والصاعقة هي التي تصعق، فهي سبب الموت وليست الموت نفسه، ثم إن ورود الصاعقة وهم مشاهدون لها أعظم في العقوبة من ورودها بغتة وهم أموات لا يشعرون. ^(١) وإذا كانت الصاعقة هي سبب الموت كما قال المحققون فماذا كانت؟ قيل: هي نار وقعت من السماء فأحرقتهم، وقيل: صيحة جاءت من السماء، وقيل: أرسل الله جنوداً فسمعوا حستها فخرروا ميتين يوماً وليلة. ^(٢)

٢. قال تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول نوقوا عذاب الحريق﴾ ^(٣) أسباب نزول الآية: أخرج ابن إسحاق، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: «دخل أبو بكر بيت المنبر ^(٤) فوجد يهود، قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص فقال له: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر فضرب وجهه، فذهب فنحاص يشتمكي أبا بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمداً انظر ما صنع صاحبك بي، فقال: يا أبا بكر ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فجدد فنحاص، فأنزل الله: «لقد سمع الله قول الذين قالوا» الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «أنت اليهود النبي ﷺ حين أنزل الله من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» فقالوا: يا محمد أفقير ربك يسأل عباده؟ فأنزل الله: «لقد سمع الله

^(١) للفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني، التفسير الكبير، المسمى، مفاتيح الغيب، (٥٢١/١)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

^(٢) الزمخشري، الكشاف (١/١٧٠).

^(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨١.

^(٤) المنبر: هو بيت الدروس لليهود [العك، خالد عبد الرحمن، تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول (ص ٨٧)، دار المعرفة، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨).

قول الذين قالوا إن الله فقير" الآية. (١) قال الإمام الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ (ولا يخلو إما أن يقوله عن اعتقادٍ لذلك، أو عن استهزاءٍ بالقرآن، وأيهما كان، فالكلمة عظيمة لا تصدر إلا عن متمردين في كفرهم). (٢) أما الإمام القرطبي: فيرى أنهم قالوا ذلك تمويهاً على ضعفائهم، لا اعتقاداً منهم فهم أهل كتاب، لكنهم كفروا بهذا القول، لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم وتكذيب النبي ﷺ أي: إنه فقير على قول محمد ﷺ، لأنه افترض منا. (٣) وقال سيّد قطب: "هذا تنديد باليهود الذين وجدوا في أيديهم المال - الذي آتاهم الله من فضله، فحسبوا أنفسهم أغنياء عن الله، لا حاجة بهم إلى جزائه، ولا إلى الأضعاف المضاعفة التي يعدها لمن يبذل في سبيله - وهو ما يسمّيه تفضلاً منه ومنّة - إقراضاً له سبحانه - وقالوا في وقاحة: ما بال الله يطلب إلينا أن نقرضه من مالنا، ويعطينا عليه الأضعاف المضاعفة، وهو ينهى عن الربا والأضعاف المضاعفة؟! وهو تلاعب بالألفاظ ينم عن القحة وسوء الأدب في حق الله، إن سوء تصوّر اليهود للحقيقة الإلهية شائع في كتبهم، ولكن هذه تبلغ مبلغاً عظيماً من سوء التصور، ومن سوء الأدب معاً، وبالتالي فهم يستحقون التهديد المتلاحق". (٤) ولهذا توعدهم الله تعالى بجملة تهديدات منها قوله جل وعلا: "سنكتب ما قالوا"، "وقتلهم الأنبياء بغير حق"، "ونقول نوقوا عذاب الحريق" لكن لماذا قال سنكتب ولم يقل كتبنا؟ أجاب الزمخشري عن ذلك قائلاً: "إنه تعالى ذكر وجود السماع أولاً مؤكداً بالقسم، ثم قال: سنكتب على جهة الوعيد، بمعنى لن يفوتنا أبداً إثباته وتدوينه، كما لن يفوتنا قتلهم الأنبياء، وجعل قتلهم الأنبياء قرينة

(١) الولحدي، علي بن أحمد، أسباب النزول (ص ١١٣) تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة (الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م). والسيوطي، لباب النقول (ص ٧٣).

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٤٧٥).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/١٨٨).

(٤) قطب، الظلال (١/٥٣٧).

له، إيداناً بأنهما في العظم أخوان، وبأن هذا القول القبيح ليس بأول ما ركبه من العظائم، فهم أصلاء في الكفر ولهم فيه سوابق، وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجترار على مثل هذا القول الشنيع. ^(١) ولذلك فهم مستحقون يوم القيامة للعذاب الأكبر "عذاب الحريق" ووصف العذاب هنا بالحريق مقصود لسببين: الأول: لتبشيع ذلك العذاب وتقطيعه. والثاني: لتجسيم مشهد العذاب بهوله وتأججه وضرامه ... جزاءً وفاقاً بما ما قدمت أيديهم من قتل الأنبياء، وجزاءً على القولة الشنيعة "إن الله فقير ونحن أغنياء، والتعبير كذلك بقوله: "وإن الله ليس بظلام للعبيد" إيراداً لحقيقة القوم فهم عبيد من العبيد بالقياس إلى خالقهم جل وعلا، وهذا مما يزيد من شناعة جرمهم، وفضاعة سوء أفعالهم، الذي يتجلى في قول العبيد عن الخالق: "إن الله فقير ونحن أغنياء"، ويتجلى كذلك في قتلهم الأنبياء ... ^(٢)

٣. قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّخْلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَازْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ^(٣) إنَّ من الواضح أنَّ القوم قالوا ذلك استهانة واستهزاء بالله ورسوله، وقلة مبالاة بهما وأرادوا ذهابهما حقيقة، وذلك لجهلهم وسفاهتهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل، وسألوا بها رؤية الله جهرة، والدليل على ذلك مقابلة ذهابهما بعودهم، ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين بل وقاتلهم عليهم، ^(٤) فقال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ ^(٥) قال الشيخ محمد رشيد رضا عند تفسيره لهذه الآية ^(٦): (وهذه العبارة منهم تنل على منتهى التمرد والمبالغة في العصيان والإصرار عليه، والجفاء

^(١) الزمخشري، الكشاف (٤٧٥/١)، وانظر: قطب، الظلال (٥٣٧/١).

^(٢) قطب، الظلال (٥٣٧/١).

^(٣) سورة المائدة: الآية ٢٤.

^(٤) الزمخشري، الكشاف (٦٥٥/١).

^(٥) سورة المائدة: الآية ٨٢.

^(٦) قطب، الظلال (٨٧٠/٢).

والسبب عن الأذب، فلا وجه لتأويلها بما يناقئ ذلك).^(١) وقال سيّد قطب: (هكذا في وقاحة العاجز، الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلاّ مدّ اللسان! أمّا النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان، فليس الله بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! فلا نريد ملكاً ولا عزاً ولا نريد أرض الميعاد إذا كان دونها لقاء الجبارين وقتالهم!).^(٢) ورحم الله ابن القيم حيث قال: (ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم لما قالوا لنبيهم: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرًا ولا قالوا له: فاذهب أنت وربك فقاتلا).^(٣)

٤. قال تعالى: ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نيراناً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين ﴾^(٤) أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: "وقالت اليهود يد الله مغلولة" وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه قال: نزلت: "وقالت اليهود يد الله مغلولة" في فئاح رأس يهود بني قينقاع.^(٥) قال عكرمة: إنما قال هذا فئاح بن عازوراء لعنه الله، وأصحابه، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد ﷺ قلّ مالهم، فقالوا: إن الله بخيل ويد الله مقبوضة عنا في العطاء، فالآية خاصة في بعضهم، وقيل: لما قال قوم هذا ولم ينكر الباقون، صاروا كأنهم بأجمعهم قالوا هذا، وقيل: إنهم لما رأوا النبي ﷺ في فقر وقلة مال، وسمعوا قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾، ورأوا النبي ﷺ يستعين بهم في

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار (١/٣٣٥) دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ.

(٢) قطب، الظلال (٢ / ٨٧٠).

(٣) ابن القيم، هداية الحيارى ص ٥٨٧ .

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٤.

(٥) السيوطي، لباب النقول (ص١١٨-ص١١٩).

الذبيات، قالوا: إنَّ إله محمد فقير، وربما قالوا بخيل، وهذا هو معنى قولهم "يد الله مغلولة"^(١).
وغلَّ اليد وبسطها: مجاز عن البخل والجود،^(٢) من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً
إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(٣) أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما
قوله: "وقالت اليهود يد الله مغلولة قال: ليس يعنون بذلك أن يد الله موثوقة، ولكنهم يقولون
إنه بخيل أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً."^(٤) والنكته في استعمال هذا
المجاز: تصوير الحقيقة المعنوية في صورة حسية تلزمها غالباً، وهذا معروف في لغة
العرب، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن، فلما كان الجود والبخل معنويين لا
يدركان بالحس، وتلازمهما صورتان تدركان بالحس، عبرَ عنهما بتلازمهما وهو بسط اليد
للجود، وقبضها للبخل، وذلك لفائدة الإيضاح والتبيين بالانتقال من المعنويات إلى
المحسوسات.^(٥) يقول ابن جرير: (هذا خبر من الله تعالى عن جراءة اليهود على ربهم،
ووصفهم إياه بما ليس من صفته، توبيخاً لهم بذلك وتعريفاً منه قديم جهلهم، واغترارهم
وإنكارهم جميل أياديه عندهم، وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم إجرامهم).^(٦) وقد بلغ
من غلظ حس القوم وجلافة قلوبهم ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو
البخل بلفظه المباشر، فاختراروا لفظاً أشدَّ وقاحةً وتهجماً وكفراً فقالوا: "يد الله مغلولة"^(٧)

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٤/٦).

(٢) الزمخشري، الكشاف (٦٨٧/١).

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

(٤) الطبري، جامع البيان (٣٠٠/٦).

(٥) ابن المنير المالكي، ناصر الدين أحمد بن محمد، الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٦٨٧/١) وهو بحاشية الكشاف.

(٦) الطبري، جامع البيان (٢٩٩/٦).

(٧) قطب، للظلال (٩٢٩/٢).

رد القرآن الكريم على هذه الفرية: ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم^(١) "غلت أيديهم" أي أمسكت عن الخيرات، وقبضت عن الانبساط بالعطيات.^(٢) من باب التعبير المجازي، فهو دعاء عليهم بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم، فيزدادون بخلًا إلى بخلهم، ونكدًا إلى نكدهم، أو بما هو مسبب عن البخل والنكد من لصوق العار بهم، وسوء الأحذوث التي تخزيهم وتمزق أعراضهم.^(٣) ويحتمل أن يكون غلّ الأيدي على الحقيقة، بأن يكونوا أسارى مغلولين في الدنيا، وفي الآخرة تشدّ أيديهم إلى أعناقهم بأغلال جهنم.^(٤) "ولعنوا بما قالوا" دعاء عليهم، أي أبعدوا عن رحمة الله وثوابه، جزاءً على قولهم^(٥) السالف الذكر وكذلك كانوا، فهم أبخل خلق الله، فلا ترى يهودياً غير لنيم.^(٦) ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب:^(٧) "بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء" (سبحانه وتعالى). ونحن نؤمن بصفات الله دون تحريف، ولا تعطيل، ولا تكليف. نثبتها على المعنى اللائق بالله تعالى. وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه أثبت لله عز وجل يدين وقال: "وكلتا يديه يمين"^(٨) ولم يُزوَّ عن أحد من الصحابة أو التابعين رضوان الله عليهم أنه أول ذلك بالنعمة أو

(١) قطب، الظلال (٩٢٩/٢).

(٢) الطبري، جامع البيان (٣٠٠/٦).

(٣) الزمخشري، الكشاف، (٦٨٩/١).

(٤) الأوسى، البغدادي، أبو الفضل، شهاب الدين، السيد محمود ت ١٢٧هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٨١/٦)، دار الفكر (بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م). وانظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (٥٨/٣).

(٥) انظر: الأوسى، روح المعاني (١٨١/٦) وأبو السعود إرشاد العقل السليم (٥٨/٣) وقطب، الظلال (٩٢٩/٢).

(٦) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٥/٦) وقطب، الظلال (٩٢٩/٢).

(٧) قطب، الظلال (٩٢٩/٢).

(٨) أخرجه الإمام أحمد برقم (٦٤٩٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ: (المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) ابن حنبل، الشيباني، أحمد، أبو عبد الله، مسند أحمد (٣٢/١١). والمقسطون هم العادلون، والقاسطون هم الجائرون للظالمون.

بالتقدرة، بل أبقوها كما وردت وسكتوا. ^(١) "وينفق كيف يشاء" أي: يرزق كيف يشاء. قال أبو السعود العمادي: "هذه جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده، وللتبنيه على سرّ ما ابتلوا به من الضيق الذي اتخذوه من غاية جهلهم وضلالهم، ذريعة إلى الاجترار على تلك الفرية العظيمة، والمعنى: أنّ ذلك ليس لقصور في فيضه تعالى بل؛ لأن انفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكم التي عليها يدور أمر المعاش والمعاد، فاقترضت الحكم بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يُضيق عليهم جزاءً وفاقاً" ^(٢) ! وقال سيّد قطب: (وعطاياه تعالى التي لا تتعد لكل مخلوق، ظاهرة للعيان ... شاهدة باليد المبسوطة، والفضل الغامر، والعطاء الجزيل، ناطقة بكل لسان، ولكن يهود لا تراها، لأنها مشغولة عنها باللم والضم، وبالكنود والجحود، وباللبذاء حتى في حق الله). ^(٣)

^(١) الأتومي، روح المعاني (١٨١/٦).

^(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٥٨/٣).

^(٣) قطب، الظلال (٩٢٩/٢).

المبحث الثاني: انحراف أهل الكتاب بشأن الملائكة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾^(١) في هاتين الآيتين بيان وكشف لرذيلة عجيبة من رذائل اليهود، وانحرافهم بشأن ملك من ملائكة الله الكرام، الذين لا يعصون الله أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، هذه الرذيلة هي: عدوتهم لجبريل عليه السلام، وهو من الملائكة المقربين، ولعل سر هذه العداوة، حسدهم للنبي ﷺ على نعمة النبوة، لأنه كان من العرب ولم يكن من اليهود، فحملهم هذا الحسد، على معاداة من يأتي بالوحي إليه، وهذا جهل كبير وحماسة عجيبة منهم، لأن جبريل عليه السلام نزل بالخير لهم في دينهم ودنياهم، ولكنه الحقد والحسد الذي جعل نفوسهم مريضة لا تميز بين الخير والشر!^(٢) روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك عن أشياء، فإن أجبتنا عنها اتبعناك: أخبرنا من الذي يأتيك من الملائكة، فإنه ليس نبي إلا يأتيه ملك من عند الله ربه عز وجل بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك قال: "جبريل" قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالمطر والرحمة اتبعناك، فأنزل الله: "قل من كان عدوًّا لجبريل... إلى قوله ، فإن الله عدوٌّ للكافرين"^(٣) وروى كذلك بسنده عنه: أن اليهود بعد أن سألوا النبي ﷺ أسئلة أجابهم عنها، قالوا له: صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: ولتي جبريل، لم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه، قالوا فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك،

(١) سورة البقرة: الآيتان (٩٧-٩٨).

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤١٩).

(٣) الملك، خالد عبد الرحمن، تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول (ص ٢٥).

وصدقناك، قال: ما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله تعالى: "قل من كان عدواً لجبريل...")^(١) يستفاد من ذلك: أن اليهود في عهد النبي ﷺ كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل، وأن هذه المجاهرة بالعداوة قد تكررت منهم في أكثر من موقف، وأن الذي حملهم على هذه العداوة هو صدهم للنبي ﷺ، وغيظهم من جبريل وحي الله إليه.^(٢) قال العلامة الطاهر بن عاشور: (ومن عجيب تهافت اعتقادهم بأنهم يثبتون أنه ملك مرسل من الله ويبغضونه، وهو من أخطأ دركات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة، لأنه ينبئ عن تظاهر آرائهم على الخطأ والأوهام).^(٣) وقد أبطل القرآن الكريم هذا الانحراف، كما أبطل غيره من انحرافات أهل الكتاب، فأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهؤلاء اليهود، بأنه لا وجه ولا مبرر لعداوتهم لجبريل عليه السلام، لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه، وإنما أنزله - على قلبك - بأمر من الله، مؤيداً لما سبقه من الكتب الإلهية، فلو أنصفوه لأحبوه، وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم وما يصحح المنزل عليهم، ولكنهم كارهون للقرآن ولموافقة لكتابهم، ولذلك كانوا يجحتون موافقته لكتابهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه.^(٤) ولما ادعوا بأنهم على صداقة مع ميكائيل وعداوة مع جبريل، جمعت الآية جبريل وميكائيل وملائكة الله ورُسُلَهُ لبيان وحدة الجميع، وأن من عادى أحداً منهم، فقد عاداهم جميعاً، بل عادى الله سبحانه، ومن عادى الله سبحانه أو ملك من ملائكته أو رسولاً من رُسُلِهِ، فقد كفر، وباء بغضب من الله، وجزاؤه الخزي وسوء المصير.^(٥)

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٤٥٣)، (٢٨٤/٤-٢٨٥).

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٢١).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتوير (١/٦٢١).

(٤) للزمخشري، للكشاف (١/١٩٦)، وطنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن (ص ٤١٩).

(٥) قطب، الظلال (١/٩٣) وطنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن (ص ٤١٩).

المبحث الثالث: تحريف أهل الكتاب لكتبهم الإلهية المنزلة.

لقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى في القرآن الكريم الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾^(١) أن أهل الكتاب حرّفوا كتبهم وغيرّوا وبتلّوا فيها، موبخاً لهم على ذلك تارة، وداعياً إياهم إلى التحاكم للتوراة والإنجيل - قبل التحريف - والقرآن تارة أخرى، قال تعالى: ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾^(٢) وقد أجال ابن القيم رحمه الله النظر في آيات القرآن الكريم متأملاً وباحثاً عن طرق التحريف عند أهل الكتاب فوجدها تتحصر في خمس طرق هي:

١. لبس الحق بالباطل.
٢. وكتمان الحق .
٣. وإخفاء الحق.
٤. وتحريف الكلم عن مواضعه.
٥. وليّ اللسان به، ليلتبس على السامع اللفظ المنزل بغيره.^(٣)

وهذه هي التفاصيل وبالله التوفيق:

أولاً: لبس الحق بالباطل:

قال تعالى مخاطباً اليهود: ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾^(٤) وقال تعالى مخاطباً أهل الكتاب: ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل

(١) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٨.

(٣) ابن القيم، هداية الحيارى (ص ٣١١ - ص ٣١٢).

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٢.

وتكتمون الحق وأنتم تعلمون»^(١) واللبس: هو الخلط والمزج، وليس الحق بالباطل: هو خلطه به، بحيث لا يتميز الحق من الباطل.^(٢)

قال الإمام القرطبي: (لَبَسْتُ عَلَيْهِ الْأَمْرَ أَلْبَسَهُ إِذَا مَزَجْتَ بَيْنَهُ بِمَشْكَلِهِ وَحَقَّهُ بِبَاطِلِهِ)^(٣)
 قال تعالى: ﴿وَلَلْبِئْسَانَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾^(٤) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب).^(٥) ونكر الزمخشري: أنهم كانوا يكتبون في التوراة ما ليس منها، فاختلط الحق المنزل من عند الله بالباطل الذي كتبه. ^(٦) ويذكر الإمام ابن كثير: أن بني إسرائيل كانوا يجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، فإذا جاءهم المحسن برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فالكهنة كانوا يخرجون التوراة لمن جاءهم برشوة كشاهد يقرهم على ما يفعلون، فإن جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس له الحق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق.^(٧) وهذا مثال من التوراة المحرفة على لبس الحق بالباطل: طلب إبراهيم ﷺ من الخالق عز وجل علامة على إحياء الموتى ليطمئن بها قلبه، كما جاء صريحاً في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٨)
 أمّا في التوراة: فقد غيّر كاتبها النص لغرض لبس الحق بالباطل فقال: كانا طيرين لا أربعة،

(١) سورة آل عمران: الآية ٧١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة لبس (٢٢٥/١٢) وابن القيم، هداية الحيارى (ص ٣١٢).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣٢/١).

(٤) سورة الأنعام: الآية ٩.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٤/١).

(٦) للزمخشري، للكشاف (١٦١/١).

(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٥/١) وينظر في ذلك، أبو عويمر، مجدي بن عبد الله، حسن، منهج ابن القيم في

دراسة عقائد اليهود، مجلة للحكمة العدد الثامن عشر (ص ٩٣).

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

وذكر أن الهدف من طلب إبراهيم ذلك ليستيقن كيف يرث نسله أرض كنعان! جاء في سفر التكوين: (فقال أيها السيد الرب: بماذا أعلم أنني أرثها، فقال له: خذ لي عجلة ثلثية، وعنزة ثلثية، وكبشاً ثلثياً، ويمامة، وحمامة، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط، وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه، وأمّا الطير فلم يشقه، فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها، ولما صارت الشمس إلى المغرب وقع على أبرام سبات، وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه، فقال لأبرام اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم، فيذلّونهم أربعين سنة، ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدنيها، وبعد ذلك يخرجون بأمالك جزيلة، وأمّا أنت فتمضي إلى آبائك بسلام، وتدفن بشيئة سالحة، وفي الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا، لأنّ ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملاً، ثم غابت الشمس فصارت العتمة، وإذا تتور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع، وفي ذلك اليوم قطع الربّ مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات).^(١) والمناسب لنبح الحيوان والطيور في النص وإحيائها: هو اطمئنان قلب إبراهيم ﷺ على إحياء الموتى لا يرث الأرض، وقد عمد الكاتب إلى هذا اللبس على ما يبدو، ليبين لبني إسرائيل أن النعيم المقيم هو في الدنيا، وأن قمة هذا النعيم هي سيطرتهم على الأرض المقدسة! وتعده للبس،^(٢) واضح لأنه لا يريد أن يصرّح بالبعث بعد الموت.^(٣)

ثانياً: كتمان الحقّ

لقد سجّل القرآن الكريم على أهل الكتاب كتمانهم للحقّ في مواطن كثيرة، منها قوله

(١) سفر التكوين (١٥/٨-١٩).

(٢) والأمثلة على لبس الحق بالباطل في التوراة كثيرة، ننظر مثلاً قصة النبيح في سفر التكوين (١٤-١/٢٢) وردّ الإمام ابن القيم عليهم في هداية الحيارى ص ٤١٧.

(٣) المسقا، نقد التوراة (ص ٢٠٤-٢٠٥).

تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١) ولكن ما هي غاية أهل الكتاب من كتمانهم الحق؟ إن كتمان الحق ينم عن أنانية النفس وأثرتها، وكراهية الحق وحبّ الباطل، وهذه هي طبيعة اليهود على وجه الخصوص، فلأنانيتهم المفرطة لا يحبّون الخير إلا لأنفسهم دون سواهم، ولذلك تراهم يحبّون كل من وافق معتقداتهم الفاسدة، أو جلب لهم المنفعة؛ ولو على حساب إخضاع آيات الله لأهوائهم، وفي الوقت ذاته، يخفون ويكتمون كل ما خالفها، هذه هي طبيعتهم التي جبلوا عليها، كما أن إيثار الدنيا بحلالها وحرامها على الآخرة من دواعي كتمان الحق، قال تعالى مخاطباً اليهود: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) ومن أمثلة كتمانهم الحق: إنكارهم لصفة النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.^(٣) قال مجاهد وقتادة أي: يعرفون نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته،^(٤) ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة، وهي مثل يضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه.^(٥) وقد يمرّ على الإنسان برهة من الزمن لا يعرف فيها نفسه، ولكن لا يمرّ عليه وقت لا يعرف فيه ابنه.^(٦) وقد ذكر الإمام القرطبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه.^(٧) وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: في عبد الله بن سلام نزلت: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

(٢) سورة البقرة: الآية (٤١-٤٢).

(٣) مجلة الحكمة، العدد الثامن عشر (ص ٩٤).

(٤) القرطبي، للجامع لأحكام القرآن (١١٠/٢).

(٥) قطب، الظلال (١٣٥/١).

(٦) القرطبي، للجامع لأحكام القرآن (١١٠/٢).

(٧) المرجع السابق (١١٠/٢).

مثله ﴿^(١)﴾. وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن سلام قال: في نزلت. ^(٢) وقال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: هو عبد الله بن سلام، شهد على اليهود أن رسول الله ﷺ مذكور في التوراة، وأنه نبي من عند الله. ^(٣) وفي هذا الشأن وردت آيات كثيرة تفضح أمر أهل الكتاب، في إخفائهم صفة النبي ﷺ في كتبهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَا بِعَضَمِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٤) قال اليهود للمسلمين: إن صاحبكم محمداً رسول الله، ولكن إليكم خاصة، فإذا خلا اليهود بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، هو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتبنا، اجحدوا ولا تقرّوا به. ^(٥) وجاء القرآن الكريم ليؤكد تبشير الكتب السابقة بالرسول الخاتم ﷺ وإن حاول أهل الكتاب كتمان ذلك، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٦).

ثالثاً: إخفاء الحق

إخفاء الحق قريب من كتمانته، والفرق بينهما: أن الكتمان يكون للأمر العظيم، كنبوة محمد ﷺ، حقداً وكراهية لهذا الأمر أما الإخفاء: فهو للأمر الذي فيه خزي لهم، أو أمر سيء

^(١) سورة الأحقاف: الآية ١٠.

^(٢) السيوطي، لباب النقول (ص ٢٦٦).

^(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ١٢٥).

^(٤) سورة البقرة: الآية ٧٦.

^(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١ / ١١٥).

^(٦) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

وقع بهم، فهم يخفونه لئلا يفتضح أمرهم بين الناس!^(١) وقد سجل القرآن الكريم على بني إسرائيل إخفاءهم الكثير من التوراة قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾^(٢) ومما أخفوه من توراتهم: حكم الرجم للزاني والزانية، أخرج ابن جرير بسنده عن عكرمة في سبب نزول الآية السابقة أن اليهود أتوا النبي ﷺ يسألونه عن الرجم فقال: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فناشده بالله الذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور والمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذه أفكلاً^(٣) فقال: إنه لما كثر فينا القتل جلدنا مائة، وحلقنا الرؤوس، فحكم عليهم بالرجم، فأنزل الله: "يا أهل الكتاب" إلى قوله: "صراط مستقيم".^(٤) ونكر الإمام القرطبي: أنهم كانوا يخفون قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة.^(٥) وأما قوله تعالى: "يعفو عن كثير" أي: يبين ما فيه حجة على نبوته، ودلالة على صدقه، وشهادة برسالته، ويترك ما لم يكن به حاجة إلى تبيينه، وقيل: يتجاوز عن كثير فلا يخبركم به.^(٦) وقال تعالى في إخفانهم لبعض أحكام التوراة: ﴿ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يُذعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾^(٧) والمراد بقوله تعالى: "الذين أتوا نصيباً من الكتاب" كما يقول الزمخشري: هم أحبار اليهود،

(١) للبار الدكتور، محمد علي، المحفل لدراسة التوراة والعهود القديم (١٢١)، دار للقلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

(٢) سورة المائدة: الآية ١٥.

(٣) الأفكَل: الرعدة، يقال: أخذه أفكَل، لرتعد من بردٍ أو خوف، الدكتور أنيس إبراهيم، والدكتور، منتصر عبد الحليم، والصوالحي، عطية وأحمد محمد خلف الله، المعجم للوسيط مادة فُكَل (٦٩٩/٢) القاهرة، (الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

(٤) للسيوطي لباب النقول (ص ١١٣).

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٧٨).

(٦) للمصدر السابق (٦/٧٩).

(٧) سورة آل عمران: الآية ٢٣.

وقد أوتوا نصيباً وافراً من التوراة. ^(١) اختلف في سبب نزول هذه الآية فقال السدي: دعا النبي ﷺ اليهود إلى الإسلام فقال له النعمان بن أوفى: هلم يا محمد نخاصمك إلى الأحبار، فقال رسول الله ﷺ: بل إلى كتاب الله، فقال: بل إلى الأحبار، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وروى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمداً؟ فقال: على ملة إبراهيم، قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً فقال رسول الله ﷺ: فهلتموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبى عليه فأنزل الله هذه الآية. ^(٢) وقال تعالى في حق اليهود: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولّون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ ^(٣) ذكر الإمام الرازي أنّ هذه الآية تشير إلى القصة السابقة في البخاري وقال: (هذا تعجيب من الله تعالى لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إياه، بعد علمهم بما في التوراة من حدّ الزاني، ثم تركهم قبول ذلك الحكم، فعدلوا عما يعتقدونه حكماً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة، فظهر بذلك جهلهم وعنادهم). ^(٤) فاستحقوا بذلك إخراجهم من دائرة الإيمان، وهذا إلزام لهم، لأنّ من خالف كتاب الله وبطله: فدعواه الإيمان به باطلاً. ^(٥) وقال تعالى: ﴿وما قدروا الله حقّ قدره، إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، تجعلونه قرطيس تبدونها وتخفون كثيراً، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، قل الله ثم نرهم في خوضهم

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٧٦/١).

(٢) للولحدي، أسباب النزول (ص ٨٦).

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٣.

(٤) الرازي، للتفسير الكبير (٣٦١/٤-٣٦٢).

(٥) ابن جزّي، للتسهيل (١٧٧/١).

يلعبون ﴿^(١) لقد كان اليهود يكتبون عن التوراة دفاتر وكتباً مقطّعة، بيدون منها ما يحبون، ويخفون أكثرها، ومما كانوا يخفونه، نعت محمد ﷺ.﴾^(٢)

رابعاً: تحريف الكلم عن مواضعه:

يكشف القرآن الكريم تحريفات اليهود لكتاب الله المنزل عليهم "التوراة"، وبطبيعة الحال، فإن اليد اليهودية قد وصلت إلى الإنجيل فغيرت وبدلت فيه: كما قال تعالى: ﴿ومن الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾^(٥)، وهناك ثلاثة أوجه في كيفية تحريف اليهود للكلم:

الأول: أنهم كانوا يبذلون اللفظ بلفظ آخر.

الثاني: إلقاء الشبه الباطلة والتأويلات الفاسدة، وصرف اللفظ عن معناه الحقّ إلى معنى باطل، بوجوه من الحيل اللفظية، كما يفعله أهل البدع في كل زمان، بالآيات المخالفة لمذهبهم.

الثالث: أنهم كانوا يدخلون على النبي ﷺ فيسألونه. عن الأمر، فيجيبهم عنه ليأخذوا به فإذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه. ^(٦)

ويرى الشيخ محمد رشيد رضا: أنّ التحريف يطلق على معنيين: أحدهما: تأويل القول

بحمله على غير معناه الذي وضع له وهذا المتبادر، ومثاله: تأويلهم للبشارات بشأن النبي ﷺ،

(١) سورة الأتعام: الآية ٩١.

(٢) البغوي، أبو محمد، الحسين بن مسعود الفراء، معالم التنزيل (١١٤/٢) تحقيق: خالد العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت (الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

(٣) سورة النساء: الآية ٤٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ١٣.

(٥) سورة المائدة: الآية ٤١.

(٦) الرازي، التفسير الكبير (٩٣/٤).

سعيًا منهم لإثكار نبوته، ولا يزالون يؤولون البشارات به إلى اليوم، كما يؤولون البشارات الواردة بشأن المسيح عيسى ﷺ ويحملونها على شخص آخر ينتظرونه! الثاني: أخذ كلمة أو مجموعة من الكلم من موضع من الكتاب ووضعها في موضع آخر، إذ خلطوا فيما يؤثر عن موسى بما كتب بعده بزمان طويل وقد اعترف بهذا بعض المتأخرين من أهل الكتاب.^(١) وقال الإمام ابن عاشور: في تفسير قوله تعالى: ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾: (وهو هنا مستعمل في الميل عن سَوَاءِ المعنى وصَرِيحِهِ إلى التَأْوِيلِ الباطل، كما يُقال: تتكَبَّ عن الصراط، وعن الطريق، إذا أخطأ الصواب، وصار إلى سوء الفهم أو التضليل، فهو على هذا تحريف مراد الله في التوراة إلى تأويلات باطلة، ويجوز أن يكون التحريف مشتقاً من الحرف وهو الكلمة والكتابة، فيكون مراداً به تغيير كلمات التوراة وتبديلها بكلمات أخرى، لتوافق أهواء أهل الشهوات في تأييد ما هم عليه من فساد الأعمال، ثم أردف قائلاً: والظاهر أن كلا الأمرين قد ارتكبه اليهود في كتبهم).^(٢) نستنتج مما سبق: أن تحريف الكلم عن مواضعه يأتي بمعنى تحريف لفظه بالزيادة أو النقصان، أو تحريف معناه، أمّا الوجه الثالث الذي ذكره الإمام الرازي فيدخل ضمن ليّهم لأستنتهم، والذي اعتبره ابن القيم طريقاً مستقلاً من طرق التحريف عند أهل الكتاب. وأمّا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن التحريف فساد التأويل وأنه لا يعمد قوم على تغيير كتابهم، فأجيب عنه: بأن ذلك بالنظر إلى غالب أحوالهم.^(٣) قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: (يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم وافتراءً).^(٤) أمّا الآيات التي تشير إلى تحريفهم

(١) رضا، تفسير المنار (١٤٠/٥).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٥/٣).

(٣) المصدر السابق (٧٥/٣).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٠٧/١).

للألفاظ: فيرى صاحب الكشاف: أن قوله تعالى: ﴿ يحرِّقون الكلم عن مواضعه ﴾ يشير لذلك فقال: (إنهم يميلونه ويزيلونه عن هذه المواضع، حيث إنهم إذا بتلوه ووضعوا مكانه كلاً غير أمالوه عن مواضعه التي وضعه الله فيها وأزالوه عنها، ومن الأمثلة على ذلك: تحريفهم صفة (أسمر ربة) عن موضعه في التوراة إلى (أدم طوال)، وتحريفهم الرجم بوضعهم الحد بالضرب وتسويد الوجه).^(١) ويجدر بنا أن نشير إلى الفرق بين قوله تعالى: (عن مواضعه) وقوله: 'من بعد مواضعه' فقوله تعالى: 'عن مواضعه' إشارة إلى اليهود بمجموعهم وتحريفهم التوراة، وهو إبعاد للكلام عن مواضعه، أي إزالة للكلام الأصلي، سواء عوض بغيره أو لم يعوض، أما قوله: 'من بعد مواضعه' فهو عن طائفة معينة أبطلوا العمل بكلام ثابت في التوراة، كإلغائهم حكم السرجم دون تعويضه بغيره من الكلام، فهذا أشدّ جرأة من التحريف الآخر، لأن لفظ (بعد) يقتضي أن مواضع الكلم مستقرّة وأنه أبطل العمل بها، مع بقائها قائمة في كتاب التوراة.^(٢) قال ابن المنير المالكي: 'يحرِّقون الكلم عن مواضعه' (أي: ينقلونه عن الموضع الذي وضعه الله فيه، فصار وطنه ومستقرّه إلى غير الموضع، فبقي كالغريب المتأسف عليه).^(٣) وقد أشار القرآن الكريم إلى الذين تولوا تحريف التوراة، وهم علماء اليهود فقال تعالى مبيناً للمسلمين استحالة إسلامهم لله رب العالمين: ﴿ أفنطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرقونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾^(٤) قال مجاهد والسدي: هم علماء اليهود الذين يحرقون التوراة، فيجعلون الحرام حلالاً والحلال حراماً، اتباعاً لأهوائهم، وهذا التحريف جاء من بعد ما عقلوا كلام الله، وجاء النص بلفظ المضارع للدلالة على استمرارهم في هذا

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٤٩/١).

(٢) ابن عسور، التحرير والتنوير (٢٠٠/٤).

(٣) ابن المنير، الإنصاف بحاشية الكشاف (٥٤٩/١).

(٤) سورة البقرة: الآية ٧٥.

التحريف، وقد توعد الله سبحانه وتعالى أولئك العلماء والأخبار الذين قاموا بتحريف التوراة بأيديهم، فقال تعالى: ﴿ فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت بأيديهم، وويل لهم مما يكسبون ﴾^(١) والويل: لفظ دال على الشرِّ والهلاك. ^(٢) وقيل هو وادٍ في جهنم، وقيل غير ذلك. ^(٣) فهو دعاء بالهلاك والعذاب على الذين حرقوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم ومعنى "يكتبون الكتاب بأيديهم": أنهم يكتبون شيئاً لم يأتهم من رسلهم، بل يضعونه ويبتكرونه، دل على ذلك تأكيده بكلمة بأيديهم، كما دلَّ عليه قوله: "ثم يقولون هذا من عند الله" المشعر بأن ذلك قولهم بأفواههم ليس مطابقاً كما في نفس الأمر. ^(٤) وفي هذا السياق يقول أحمد عبد الوهاب: (إنَّ التحريف طبيعة إسرائيلية، حيث إنَّ تحريف الكلمة المقدَّسة كان على مرِّ العصور مزاجاً إسرائيلياً وهواية محببةً لذلك الشعب).^(٥) ويجدر بنا هنا أن نذكر ما قاله السموال - الحبر اليهودي الذي أسلم - : من أن علماء اليهود وأخبارهم يعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم لا يعتقد أحد من علمائهم وأخبارهم أنها المنزلة على موسى البتَّة. ^(٦) يقول العلامة رحمه الله الهندي: (وكتب التاريخ شاهدة بأن حال كتب العهد العتيق قبل حادثة بختصر كان أبتَر، وبعد حادثته ما بقي لها غير الاسم).^(٧) وقد أورد في كتابه مائة شاهد على التحريف اللفظي والمعنوي في كتب العهدين القديم والجديد.^(٨) ولعل من القرائن القاطعة على وقوع التحريف في التوراة والإنجيل على السواء : تعدد نسخ هذين الكتابين

(١) سورة البقرة: الآية ٧٩.

(٢) ابن عثور، التحرير والتتوير (١/٥٧٦).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١١٧)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٨).

(٤) ابن عثور، التحرير والتتوير (١/٥٧٥).

(٥) عبد الوهاب، لواء أحمد، إسرائيل حرفت الأنجيل واخترعت لسطورة السامية (ص٦٧) مكتبة وهبة، القاهرة (الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

(٦) السموال، إجماع لليهود (ص١٣٥).

(٧) رحمة الله الهندي، بن خليل الرحمن العثماني الكيراثوي، إظهار الحق (ص٢٢٨)، مطبعة الرسالة، القاهرة.

(٨) حبكة، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص٥٠٤).

واختلافهما فيما نقلته من الأقوال والأراء، وما تضمنته من العقائد الفاسدة، والتصوّرات الباطلة عن الخالق سبحانه، وعن رسله الكرام عليهم السلام، ففيها تشبيه الخالق بالإنسان، والتدح بالأنبياء بما يمس شرفهم ويتنافى مع عصمتهم.^(١) هذا وقد اختلف علماء المسلمين قديماً في مقدار التحريف الذي طرأ على التوراة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: لطائفة على رأسها شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم قالوا: زيد فيها وغير ألفاظ يسيرة، ولكن أكثرها باقٍ على ما أنزل عليه.^(٢) قال الإمام ابن القيم: (فهذه التوراة التي بأيديهم في الحقيقة كتاب عزراء، وفيها كثير من التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ، ثم تداولتها أمة قد مزقتها الله كل ممزقٍ وشئت شملها فلحقها ثلاثة أمور: أحدها: بعض الزيادة والنقصان، والثاني: اختلاف الترجمة، الثالث: اختلاف التأويل والتفسير)^(٣) وهذا القول هو الذي أرجحه والله تعالى أعلم.

القول الثاني: لأئمة الحديث والفقهاء والكلام، وعلى رأسهم الإمام البخاري، والإمام الرازي قالوا: بوقوع التبديل في التأويل لا في التنزيل.^(٤)

القول الثالث: لطائفة على رأسها ابن حزم، والسموأل، ذهب إلى إنها كلها - أو أكثرها - مبتكرة.^(٥) وإزاء هذا التبديل والتحريف الذي طرأ على التوراة، فإن الإيمان بها يكون بالتصديق أنها من عند الله في أساسها، أنزلها الله على موسى ﷺ لنفس الغرض الذي أنزل من أجله القرآن، ولا تؤمن بشيء من محتوياتها أنه من عند الله إلا ما ذكره القرآن أو الرسول ﷺ^(٦)

(١) ياسين، الدكتور محمد نعيم، الإيمان (ص ٥٦-٥٧).

(٢) ابن القيم، إغاثة اللهفان، (ص ٦٩٤)، والسقا، نقد التوراة (ص ٢٢٥).

(٣) ابن القيم، إغاثة اللهفان (ص ٧٠٠).

(٤) للسقا، نقد التوراة (ص ٢٢٥).

(٥) ابن حزم، الفصل في الملوك والأهواء والنحل (١/٢٢٤ - فما بعدها).

(٦) ياسين، محمد نعيم، الإيمان (ص ٥٧).

أسباب تحريف اليهود للتوراة:

لو بحثنا عن الأسباب الكامنة وراء تحريف اليهود للتوراة؟ فإننا نستطيع القول بإيجاز: إما لتبرير إجرامهم وفسادهم، حيث نسبوا إلى الله الأمر بالمنكر حتى تكون هذه الأوامر غطاءً شرعياً لجرائمهم وعدوانهم، كما أنهم نسبوا الموبقات والفواحش لأنبيائهم وأشرفهم وذلك ليبرروا معاصيهم وانحرافهم! وإما لتمجيد تاريخهم، وجعل أنفسهم شعب الله المختار، حيث إن الناظر في التوراة يجد أن كتبها حاولوا بكل طاقتهم أن يثبتوا للناس أنهم أبناء الله وأحباؤه، ليرفعوا من شأن اليهود وأنهم شعب الله المختار المتميز عن بقية الشعوب! (١) وإما لتحقير الأمم الأخرى حيث حاولوا إلصاق التهم والنقائص بأعدائهم بكل وسيلة، كما فعلوا مع أعدائهم المؤابيين والعمونيين، حيث افتروا على نبي الله لوط ﷺ ارتكاب فاحشة الزنا بابنتيه اللتين انجبتا المؤابيين والعمونيين. (٢) -حسب زعم توراتهم- .

تحريف الإنجيل:

أما الأناجيل المتداولة اليوم والمعتمدة لدى طوائف النصارى المختلفة؛ فقد أثبت العلماء المنصفون أنها لم تنزل على عيسى ﷺ، وأنها كتبت بعد رفعه إلى السماء حياً بعشرات السنين، فهي منقطة السند، ومنكرة المتن. (٣) ويكفي لصحة التلذليل على التحريف في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى الآن: أنها أربعة اختيرت من نحو سبعين انجيلاً، وهذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى ﷺ، ومؤلفوها معروفون، وأسماؤهم مكتوبة عليها، وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هي رأي بولس دون سائر الحواريين، ودون أقرب الأقربين إلى عيسى ﷺ، كما أن إنجيل برنابا الذي حظرتة الكنيسة يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة

(١) انظر: سفر التثنية (١٤/٣-٣)، وسفر التكوين (٢٧/٢٩).

(٢) للسعدي، محمد، دراسة في الأناجيل الأربعة والتوراة (ص ١٤٠-١٤٣).

(٣) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية (ص ٤٢).

كبيرة. ^(١) وقد كتبت الأناجيل في فترة اتسمت بالعنف والقسوة ضدّ النصارى بالإضافة إلى التناقضات، والاضطرابات الكثيرة بين هذه الأناجيل الأربعة. ^(٢) وإزاء هذا التحريف والتغيير الذي طرأ على الإنجيل، فإنّ الإيمان به يكون بالتصديق أنه من عند الله في أساسه أنزله الله على رسوله عيسى ﷺ لذلك لا نؤمن بشيء من محتويات هذه الأناجيل أنه من عند الله إلا ما ذكره القرآن أو الرسول ﷺ، فلا نؤمن بأي من الكتب الإلهية السابقة الموجودة اليوم (التوراة والإنجيل) كلّ ما فيها هو كلام الله الخالص كما أنزل. ^(٣) وخلاصة القول: إنّ التوراة والإنجيل التي بين أيدي اليهود والنصارى اليوم، ليست هي نفس التوراة والإنجيل التي أنزلها الله تعالى على موسى وعيسى عليهما السلام، حيث ضاعت النسخ الأصلية لهذين الكتابين، وما بقي بأيدي الناس إلا تراجمهما، فقد حرّف أهل الكتاب كتبهم، وبتلوا كلمها عن مواضعها، وحذفوا منها وأضافوا إليها كثيراً من الآراء من عند أنفسهم، حتى إنّ اليهود والنصارى أنفسهم يعترفون اليوم: أنه ليست عندهم تلك الكتب الأصلية التي نزلت على موسى وعيسى، وإنما بأيديهم تراجمها وأنها عرضة للتغيير والتبديل والزيادة والنقص، فهذه الكتب قد فقدت سندها التاريخي، فلا يمكن إثبات السند التاريخي لأي منها، وقد اختلط في هذه الكتب كلام الله بكلام الناس. ^(٤)

(١) سابق، مبد، العقائد الإسلامية ص ١٦٨، دار للكتاب العربي، بيروت.

(٢) ينظر: عوض، محمد عبد الرحمن، دراسات في الفكر والأديان الاخت (ص ٤٤ - فما بعدها)، والحاج النصرانية من التوحيد إلى التثليث (١).

(٣) ياسين، محمد نعيم، الإيمان (ص ٥٧).

(٤) المودودي، أبو الأعلى، مبادئ الإسلام (ص ٧٧-٧٨)، ترجمة،

خامساً: لِيَ اللسان: والهدف منه:

ليلتبس على السامع اللفظ المنزل بغيره: قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ، وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(١)

قال الإمام الراغب الأصفهاني: (ومعنى الليّ: فتل الحبل، وكأوا لسانه بكذا: كناية عن الكذب وتخرّص الحديث).^(٢) ومعنى قوله تعالى: ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ (أي يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف).^(٣)

ومن الأمثلة التي قصتها الله علينا عن لِيّ اليهود ألسنتهم بالكتاب: قوله تعالى: ﴿ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيْئاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطِعْناً فِي الدِّينِ، وَنُو أَنْهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَاسْمِعْ وَاتَّظَرْنَا لَكُنْ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْسَمُوا، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾^(٤) ومعنى قولهم: "واسمع غير مسمع" أي: اسمع غير مأمور بالسمع، أو غير سامع مكروهاً، فهي صيغة مدح وتأديب، وهذا الظاهر من اللفظ، ولم يقصدوه.^(٥) وإنما قصدوا الوجه الثاني: وهو الذم أي: اسمع لا سمعت، ولا كنت سامعاً، كقول القائل للرجل يسبه: "لا أسمعك الله!"^(٦) ومعنى قولهم: "راعنا": يحتمل وجهاً حسناً وآخر سيئاً، واليهود قصدوا السيئ منهما.

^(١) سورة آل عمران: الآية ٧٨.

^(٢) الراغب، المفردات (ص ٤٦٠).

^(٣) للزمخشري، الكشاف (٤٠٤/١).

^(٤) سورة النساء: الآية ٤٦.

^(٥) للزمخشري، الكشاف (٥٤٩/١)، وقطب، الظلال (٢٧٦/٢).

^(٦) الطبري، جامع البيان (١١٨/٥). والزمخشري، الكشاف (٥٤٩/١)، وقطب، الظلال (٢٧٦/٢).

قال الراغب: (كان ذلك لفظاً يقولونه للنبي ﷺ على سبيل التهكم، يقصدون به رمية بالرعونة، ويوهمونه أنهم يقولون (راعنا) أي احفظنا من قولهم رَعَنَ الرجل يرعن رعناً فهو رَعِنَ وأرعن، وتسميته بذلك لميل فيه تشبيهاً بالرعن أي أنف الجمل لما فيه من الميل).^(١)

وقال الزمخشري: (يحتمل معنى (راعنا) أي ارقبنا وانتظرنا ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتساقون بها من الرعونة والطيش سخرياً بالدين وهزواً برسول الله ﷺ، يكلمونه بكلام يحتمل، ينوون به الشتيمة والإهانة، ويظهرون به التوقير والإكرام، فتلاً بالسنتهم وتحريفاً للحق إلى الباطل)،^(٢)

قال ابن عطية: (وهذا اللّيّ باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل).^(٣)

وقال أبو حيان الأندلسي: (وما قاله ابن عطية يحكي عن يهود الأندلس، وقد شاهدناهم، وشاهدنا يهود ديار مصر على هذه الطريقة، وكأنهم يرتون أولادهم الصغار على ذلك، ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين، مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير).^(٤) ونحن نشاهد اليوم يهود هذا العصر يلوون ألسنتهم إلى خلاف ما في قلوبهم، فكم من الاتفاقيات التي أبرمت معهم، والقرارات الدولية التي صدرت بحقهم، قاموا بليّ ألسنتهم بها سعياً منهم لتحقيق مآربهم، وأهدافهم الخبيثة؟! ثم يقرر القرآن الكريم المنهج اللائق الذي كان ينبغي أن يسلكوه، والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً من الكتاب أن يقولوه: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانتظرنا

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات (ص ٢٠٤).

(٢) الزمخشري، الكشاف (١/٥٥٠)، ويؤيد كلام الزمخشري وجود كلمة رع (لا) في اللغة العبرية وتعني (سين) فهي للستب والشتيمة.

(٣) ابن عطية الأندلسي، أبو محمد، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٦٢/٢) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

(٤) أبو حيان الأندلس، البحر المحيط (٣/٢٦٤).

لكن خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً^(١) ومن هنا نهى الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يقتلوا اليهود في مقاتلتهم السابقة، وأمر النبي ﷺ بمخالفة اليهود، ليكونوا متميزين حتى في ألفاظهم وكلماتهم، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا وولئكافرين عذاب أليم﴾^(٢) لقد جبل هؤلاء اليهود على المخادعة والمراوغة واتخذوا ذلك سلاحاً لهم في إيذائهم للنبي ﷺ، فكانوا يخاطبونه بالكلام الذي فيه تورية، ويلوون ألسنتهم بالكلام ليؤذي الغرض السيئ الذي يقصدونه وهو إيذاء الرسول ﷺ، والتهكم به، والتهوين من شأنه، وإظهاره أمام أصحابه بمظهر الجاهل بأساليبهم، فكانوا يلوون بهذه الكلمة ألسنتهم لتؤدي معنىً قبيحاً عندهم وقت النطق بها، كبرت كلمة تخرج من أفواههم وعليهم من الله ما يستحقون!^(٣)

(١) سورة النساء: الآية ٤٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٤.

(٣) طنطاوي: بنو إسرائيل في الكتاب والسنة (ص ٢٤٦).

المبحث الرابع: اتحرافات أهل الكتاب بشأن النبوة.

اتحرافات أهل الكتاب بشأن أنبياء الله ورُسُلِهِ عليهم صلوات الله وسلامه.

إن أنبياء الله ورُسُلِهِ بصفة عامة هم الصفوة من خلقه، اصطفاهم من بين سائر البشر، ليكونوا سفراء الأمناء في حمل شرعه وتبليغه إلى الناس، قال تعالى: ﴿الله يصطفى من الملائكة رُسُلًا ومن الناس﴾^(١) وقال تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾^(٢) وقال تعالى في معرض الحديث عن بعض الرُسُلِ ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾^(٣) وإنما كانت النبوة اصطفاً واختياراً، لأنها مسؤولية كبرى وأمانة عظيمة، لا يستطيع القيام بها إلا أصحاب النفوس العظيمة، أولو العزم والقوة من الرجال، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: "إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً"^(٤) من هنا شاء الله تعالى أن يتصف الأنبياء والرُسُلُ بصفات الكمال البشرية، وأن يكونوا المثل الكامل للإنسانية.^(٥) فهم أكمل الناس خلقاً، وأزكاهم عملاً، وأطهرهم نفساً، وأعظمهم سيرة، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأكثرهم فطنة وعقلاً.^(٦) وهذا كله بفضل الله ورعايته لهم وتربيتهم على عينه، قال تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾^(٧) وقال تعالى مخاطباً خاتم أنبيائه ورُسُلِهِ محمداً ﷺ: ﴿واصبر لحكم

(١) سورة الحج: الآية ٧٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٣) سورة ص: الآية ٤٧.

(٤) سورة المزمل: الآية ٥.

(٥) ماضي، د. محمود، عصمة الأنبياء بين اليهودية والمسيحية والإسلام، ص ٩، مكتبة الإيمان، والدكتور صالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية ص ٣١٩.

(٦) الصابوني، محمد علي، النبوة والأنبياء (ص ٤٩) (الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) والدكتور صالح، سعد الدين العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية ص ٣١٩.

(٧) سورة طه: الآية ٣٩.

ربك فبتك بأعيننا ﴿١﴾^(١) ولذلك أمر الله تعالى بالافتداء بهم، والتخلق بأخلاقهم، والسير على منهجهم في جميع شؤون الحياة، قال تعالى: ﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾^(٣) من أجل ذلك نجد القرآن حين تحدث عن الأنبياء والرسل جاء حديثه متناسباً مع هذه المكانة الكبرى لهم، قال تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾^(٤) وما تحدث القرآن الكريم عن نبي من أنبياء الله إلا وقرن الحديث بوصفه بأسمى الصفات والمواهب، فقال عن إبراهيم ؑ: ﴿ إنه كان صديقاً نبياً ﴾^(٥) وأنه كان ﴿ قانتاً لله حنيفاً ﴾^(٦) وقال عن إسماعيل ؑ: ﴿ إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴾^(٧) من هنا ذهب كثير من العلماء إلى عصمة الأنبياء عليهم السلام قبل النبوة وبعدها؛ لأن المتتبع لسير الأنبياء التي أثرت عنهم قبل نبوتهم، يجدها شاهدة بأنهم أبعد الناس عن المعاصي كبائرهم وصغائرهم، لعلو فطرة كل رسول، وصفاء نفسه، وسمو روحه، وصحة عقله، لاقتضاء أن يكون أنموذجاً رفيعاً بين قومه، في أخلاقه ومعاملته وأمانته، وفي بعده عن ارتكاب القبائح التي تنفر منها العقول السليمة والطباع المستقيمة، حتى لا يكون هناك مطعن في رسالته ودعوته. ^(٨) واستدلوا على ذلك: بأن الله تعالى قد اختار أنبياءه من

(١) سورة الطور: الآية ٤٨.

(٢) ماضي، د. محمود، عصمة الأنبياء ص ٩.

(٣) سورة الأتعام: الآية ٩٠.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٦) سورة مريم: الآية ٤١.

(٧) سورة النحل: الآية ١٢٠.

(٨) سورة مريم: الآية ٥٥.

(٩) حينئذ المبدئي، عبد الرحمن، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ٢٣٨)، والسيد صالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية ص

٣٢١، والصابوني، النبوة والأنبياء (ص ٥٣)

صفوة البشر، ورعاهم منذ الصغر على عينه، كما قال تعالى لموسى ﷺ: ﴿ وَتَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي ﴾، وجعلهم من المصطفين الأخيار، فلا بدّ أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها، مع التتويه هنا إلى أنّ عصمة الأنبياء قبل النبوة غير متفق عليها بين العلماء، لأنّ البشر لم يؤمروا باتباعهم قبل النبوة فهم كسائر البشر.^(١) أمّا بعد النبوة فمعصومون باتفاق العلماء، واختلف العلماء في عصمتهم عن الصغائر، والراجح: انهم معصومون عن الكبائر والصغائر جميعاً.^(٢) قال الإمام القرطبي: (واختلف العلماء في هذا الباب: هل وقع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، صغائر من الذنوب يؤخذون بها ويعاتبون عليها أم لا، بعد اتفاهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعاً، فقال جمهور الفقهاء: إنهم معصومون عن الكبائر كلها كعصمتهم من الصغائر أجمعها؛ لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم، أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة؛ لأننا لو جوزنا عليهم فعل الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم).^(٣) ولئن كان هذا هو موقف الإسلام من الأنبياء وعصمتهم وتنزيههم عن كل ما يشينهم فإن اليهود والنصارى افتروا على الله وأنبيائه الأكاذيب.^(٤)

عقيدة أهل الكتاب في عصمة الأنبياء:

يقول اليهود والنصارى: إن الأنبياء معصومون من الخطأ في تبليغ رسالات الله، وليسوا بمعصومين فيما عدا ذلك من شؤون حياتهم الخاصة والعامة، بل هم كسائر البشر يجوز عليهم الصواب والخطأ، ويجوز أن يفعلوا الخير والشر، وأن يذنبوا الذنوب كلها صغيرها وكبيرها عمداً أو سهواً، إلا أنّ النصارى يستثنون من ذلك عيسى ﷺ، لأنه بزعمهم هو الإله المخلص

(١) الصابوني، النبوة والأنبياء (ص ٥٣).

(٢) السيد صالح، العقيدة اليهودية (٣٢١) وحينكة، العقيدة الإسلامية (ص ٣٣٧ - فما بعدها).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١١/١).

(٤) ماضي، د. محمود، عصمة الأنبياء ص ٥١.

لكل البشر، فهو معصوم من الخطأ، لأنَّ المخطئ لا يخلص المخطئين على حد تعبير الإنجيل.^(١) وهكذا نجد أن اليهود والنصارى تجاوزوا كل الحدود في النيل من كرامة الأنبياء (عليهم السلام) فلا يكتفون بنسبة المعصية إليهم، وعدم الاعتقاد بعصمتهم، بل يجعلون منهم أبطالاً للجريمة، وقادة للفجور، وارتكاب أعظم الآثام، والشرك والكفر بالله^(٢) فمن صفات الأنبياء عندهم: الكذب، والسكر، والزنا، وعبادة الأوثان، والبله (الخبيل) وعدم الفطنة، وغير ذلك مما لا يجوز عليهم، وباختصار فإنهم ينسبون إليهم أكبر الكبائر دون حرج أو حياء^(٣).

أولاً: إبراهيم ﷺ

إبراهيم ﷺ هو أبو الأنبياء، والأنبياء المذكورون في القرآن بعده من ذريته، قال تعالى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾^(٥) وآل إبراهيم ﷺ هم الأنبياء من ذريته، الذين انتهوا إلى محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.^(٦) وإبراهيم ﷺ هو الجد الأعلى لسيدنا رسول الله ﷺ من ابنه إسماعيل ﷺ، وقد خص الله تعالى إبراهيم ﷺ بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أباً للأنبياء، وإماماً للتقياء، وقدوة للمرسلين، واختاره من بين الرُّسُل بالخلَّة والاصطفاء، فهو (خليل الرحمن)، وقد ابتلى الخليل ﷺ بأنواع من الابتلاء، وامتنح بضروب من الامتحان، فصبر، وكان في إيمانه كالجبال الرواسي، لم يتزعزع ولم يضطرب، ولم يدخل إليه وهن أو ضعف، وكان أشدَّ هذه المحن عليه حين أمر بنبح فلذة كبده إسماعيل ﷺ فكان مثلاً للعبودية، والطاعة، والإذعان لأوامر الله، ولهذا

(١) للصابوني، النبوة والأنبياء (ص ٥٨- فما بعدها)، والسقا، نقد التوراة (ص ٢٥١).

(٢) المرجع السابق، (ص ٥٧)، وماضي. د. محمود، عصمة الأنبياء (ص ٥١).

(٣) السيد صالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية (ص ٣٢٣).

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٢٧.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٦) للخالدي، القصص القرآني (١/٤٥٤-٤٥٥).

جعل الله أمةً بمفرده، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِلًا لِّلَّهِ حَنِيفًا، وَّمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخْرَجْنَاهُ بِدِينِهِ فَأَوَّاهَ إِلَى بَلَدٍ لَّيْسَ بِمِنَّا فَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نِجْيًا. إِنَّا كَرَّمْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَوْثَقْنَاهُمُ الْكِنَانَةَ. وَإِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلًّا سَدَقْنَاهُمُ الْكِرَامَ وَالشَّرَافَ عَلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) وهو من أولي العزم من الرُّسُل (صلوات الله وسلامه عليهم) فلا عَجَبَ أن نرى الثناء عليه من الله تعالى، فهو أبو الأنبياء، وإمام الأتقياء ابتلي فصبر، وأُعطي فشكر، فكان عبداً وفتياً، ولذلك اختاره الله خليلاً. (٢) وقد جعلته هذه المزايا والفضائل محطَّ أنظار جميع الطوائف الدينية، كلٌّ تدعى نسبتهما إليه، وأنها تسير على خطاه، وأنه كان على دينها، وأشهر هذه الطوائف: اليهودية والنصرانية، وهما بعيدتان كل البعد عن إبراهيم وملته، وقد جادلهم القرآن الكريم في إبراهيم راداً عليهم افتراءاتهم، ومبيناً الوجهة الصحيحة لهذا النبي الكريم، ومن هم المنتسبون إليه حقيقةً، وهو ما سنبينه فيما يأتي: روى ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس قال: "اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلّا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلّا نصرانياً، فأنزل الله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْلِقُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣) (٤) إن اليهود يدعون الانتساب لإبراهيم لأنهم أبناء إسحاق، ويدعي النصارى الانتساب إليه كذلك لأنهم يزعمون أنهم على دينه، بل إن العرب المشركين ادعوا أنهم على دينه، لأنهم أبناء إسماعيل، ويحجون البيت الذي بناه إبراهيم ﷺ. وقد فند القرآن الكريم دعوى اليهود والنصارى والمشركين بثلاث طرق، مبطلاً هذه الدعاوى من أساسها، ومصححاً هذه الاتِّحِرَافَاتِ:

الطريقة الأولى: بيان الملة التي كان عليها إبراهيم الخليل.

الطريقة الثانية: بيان أن المتأخر يُعزى ويُنسب للمتقدم، وليس العكس.

(١) سورة النحل: الآية ١٢٠.

(٢) للصابوني، النبوة والأنبياء (ص ١٤٥).

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٥.

(٤) السيوطي، نَبَابِ النَّقُولِ، ص ٦١.

الطريقة الثالثة: الرابطة الحقيقية والصحيحة بين إبراهيم ﷺ ومن جاء بعده ليست رابطة النسب وإنما رابطة العقيدة والدين.^(١)

الطريقة الأولى: بيان الملة التي كان عليها إبراهيم ووصى بها بنيه من بعده: قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإته في الآخرة لمن الصالحين﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين* ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون* أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون* تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون* وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾^(٢)

يتبين لنا من خلال الآيات الكريمة السالفة الذكر ما يأتي:

١. أن من يترك ويخالف ملة إبراهيم وطريقته ومسلكه - وهو الذي اصطفاه ربه في الدنيا إماماً وشهد له في الآخرة بالصلاح - فقد ترك الصراط المستقيم، وأتبع طريق الضلال والغواية ومصيره إلى بوار، ومن فعل ذلك فقد استخف بنفسه وامتهنها وأهانها، وهذا لا يفعله عاقل، وقد فعل ذلك اليهود والنصارى!^(٣)
٢. أن ملة إبراهيم ودينه الإسلام فحسب.
٣. لما حضرت إبراهيم ﷺ الوفاة وصى بنيه، وكان من ذريته أنبياء - بني إسرائيل ونبي الإسلام محمد ﷺ - وصاهم بهذه الوصية الجامعة المانعة: أمرهم بالمحافظة على الإسلام

(١) الخالدي، التخصص القرآني (١/ ٤٥١).

(٢) سورة البقرة: الآيات (١٣٠-١٣٥).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ١٨٥). ولزمخشري، الكشاف (١/ ٢١٧). وقطب، الظلال (١/ ١١٦).

والثبات عليه، وقال لهم: يا أبنائي إن الله اصطفى لكم الدين، واختار لكم الإسلام، ورضيه لكم ديناً، فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون، وإياكم أن تتخلوا عنه.^(١)

٤. سار حفيده يعقوب عليه السلام على خطاه، فقد جمع أولاده عندما حضرته الوفاة قائلاً لهم: ما تعبدون من بعدي، وأي دين تختارون؟ فقالوا: نعبد الله رب العالمين، ورب آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ونبراً من عبادة غيره، ونختار الإسلام ديناً، ونسلم ونخضع لله رب العالمين.

٥. لقد كان جميع أبناء إبراهيم عليه السلام مسلمين، وليس كما قال اليهود والنصارى فيما بعد بأنهم كانوا يهوداً أو نصارى: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى، قل أنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾.^(٢) لقد كذب اليهود حين قالوا للناس: كونوا يهوداً تهتدوا، وكذب النصارى حين قالوا للناس كونوا نصارى تهتدوا.^(٣) وكذب اليهود والنصارى كذلك حين ادّعت كل فرقة بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على دينها، فردّ الله عليهم مقولتهم، ووبخهم على ادّعاتهم هذا فقال تعالى: ﴿قل أنتم أعلم أم الله﴾. يعني بأن الله أعلم، وقد أخبر بأنهم لم يكونوا يهوداً أو نصارى، وجاء هذا التقرير واضحاً في قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾.^(٤) ففي هذه الآية: تكذيب لليهود والنصارى ومشركي العرب فيما ادّعت كل طائفة من أن إبراهيم عليه السلام كان على دينها وأنها تسير على خطاه، فقد وصفت الآيات السابقة

(١) للخالدي، القصص القرآني (١/٤٥٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٠.

(٣) للخالدي، القصص القرآني (١/٤٥٣).

(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

إبراهيم ﷺ بأنه كان مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق وهو الإسلام، ووصفته ثانياً - بأنه: "وما كان من المشركين" أي: وما كان ممن يشرك مع الله آلهة أخرى؛ بأي لون من ألوان الشرك، وفي هذا الوصف لإبراهيم ﷺ تعريض بما هم عليه من كفر وإشراك بالله تعالى، فكيف يدعون بعد ذلك أنهم على دين إبراهيم أو أن إبراهيم ﷺ كان على ملتهم ودينهم! (١) ثم توعدهم الله تعالى بقوله: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ ١٢ قال الحسن البصري رحمه الله: (كانوا يقرعون في كتاب الله الذي آتاهم: إن الدين الإسلام وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براءء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك، وأقرؤا على أنفسهم الله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك). (٢)

الطريقة الثانية: إن المتأخر يُنسب للمتقدم وليس العكس، قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لمَ تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾ ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ (٣) قلنا سابقاً: إن الآية الأولى نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم ﷺ كان على دينه فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده. (٤) فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً، وكيف يدين بهما قبل نزولهما، إن هذه محاجة ظاهرة البطلان، فلا يسوغ لكم معشر اليهود والنصارى مبادلة الحجة بشأن إبراهيم ﷺ، والحال هذه! "أفلا تعقلون"؟ فهذا أمرٌ بدهي أن لا يكون المتقدم على الشيء تابعاً للمتأخر عنه، فكيف يكون المتقدم معزواً وتابعاً لولد ولده،

(١) طنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ١٦٠).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٨٨).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٦٥-٦٦).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٦٩).

الذي لم يره ولم يعاصره! ^(١) قال الزجاج: هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى، إذ التوراة والإنجيل نزلتا من بعده، وليس فيهما اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام في كل كتاب، ويقال: إن بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألف سنة، فكيف يكون إبراهيم ﷺ تابعا لمن جاء بعده بمئات السنين؟! ^(٢) ثم عرضت الآية الثانية لمظهر آخر من مظاهر مخالفتهم لمقتضيات العقول السليمة وهو جدالهم فيما ليس لهم به علم. ^(٣)

النهى عن الجدل فيما لا يعلمه الإنسان:

يستنتج الإمام القرطبي من هذه الآية دليلاً على منع الجدل لمن لا علم عنده! "ها أنتم هؤلاء جادلتم فيما لكم به علم". من أمر محمد ﷺ لأنهم كانوا يجدون نعتهم في كتبهم فجادلوا فيه بالباطل. ^(٤) أخرج ابن أبي حاتم عن السدي: قال: أما الذي لهم به علم: فما حرم عليهم، وأما الذي ليس لهم به علم وأمروا به: فشان إبراهيم ﷺ. ^(٥) لكن لم تجادلون فيما ليس لكم به علم، وهو دعوكم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، مع أنه لا ذكر لدين إبراهيم في أحد الكتابين، لقد كان من الأجدر بكم والواجب عليكم أن تتبعوا ما أوحاه الله لرسوله محمد ﷺ في شأن إبراهيم ﷺ، فهو سبحانه العالم بحال إبراهيم وشأنه وملته، وأنتم لا تعلمون ذلك، والعاقل من الناس هو الذي ينأى بعقله عن المجادلة في أمر ليس عنده به علم. ^(٦)

الطريقة الثالثة: أن الرابطة الحقيقية بين إبراهيم ﷺ ومن جاء بعده ليست رابطة النسب وإنما رابطة العقيدة والدين. وبعد أن جرّدت الآيات الكريمة الطوائف الثلاث اليهود والنصارى

^(١) النجار، قصص الأنبياء (ص ٧٥).

^(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٩/٤).

^(٣) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ١٥٩).

^(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٠/٤).

^(٥) للشوكاني، فتح القدير (٣٥٠/١)، وطنطاوي، بنو إسرائيل (ص ١٥٩).

^(٦) طنطاوي، بنو إسرائيل في الكتاب والسنة (ص ١٥٩). المرجع السابق (ص ١٥٩).

والمشركين من الانتساب إلى إبراهيم ﷺ، وأنهم ليسوا معه ولا على طريقته ولا متبعين لدينه، وأنهم كافرون ضالّون، بعد ذلك! بينت الآيات الكريمة من هم أتباعه الحقيقيون المنتسبون إليه، السائرون على طريقه، الملتزمون بدينه الحنيف، وحصرتهم في ثلاثة أصناف: قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) فالصنف الأول: "الذين اتبعوه"، فأجابوا دعوته في حياته، واستمروا على دينه بعد مماته، فأولئك هم المؤمنون الصالحون الذين عاصروه.^(٢)

والصنف الثاني: "وهذا النبي" محمد ﷺ وقد أفردته بالذكر تشريفاً وتعظيماً لقره، واعتبره القرآن أولى الناس بإبراهيم، رغم وجود هذه الفترة الزمنية الممتدة بينهما؛ لأنه من نريته، وجاء بدينه وهو الإسلام؛ ولأن رسالته استكمالاً لرسالة إبراهيم ﷺ.^(٣)

الصنف الثالث: "والذين آمنوا" أي آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه، وهم المؤمنون بجميع الرُّسُل (عليهم الصلاة والسلام) إنهم هذه الأمة الإسلامية، أمة الشهادة والرسالة، والخلافة والدعوة، إلى قيام الساعة.^(٤) وفي هذا تنويه بشأنهم وتقرير بأنهم أولى بإبراهيم ﷺ من اليهود والنصارى، لأنهم مسلمون حنفاء كإبراهيم، وهم متبعون لخاتم النبيين محمد ﷺ الذي بشر به إبراهيم ﷺ....^(٥) بعد هذا البيان القرآني الحاسم يتبين لنا أنه لا يجوز لليهود أو النصارى الادعاء بأنهم على دين إبراهيم، أو أنهم متبعون له، فإبراهيم ﷺ موحد داعية مسلم، وهم كافرون ضالّون. مكذبون لخاتم النبيين محمد ﷺ، الذي بشر به إبراهيم ﷺ، وهم معادون محاربون للمسلمين الذين أحبهم إبراهيم وسماههم المسلمين من قبل، فإبراهيم ﷺ براء من هؤلاء المشركين

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٨.

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل... (١٦٠) وللخالدي، لتقصص القرآن (ص ٤٧٥).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٠/٤). وللشوكاني، فتح القدير (٣٥٠/١).

(٤) الخالدي، لتقصص القرآن (٤٥٧/١).

(٥) الشوكاني فتح القدير (٣٥٠/١) وطنطاوي، بنو إسرائيل (ص ١٦٠).

براعته من أبيه أزر، وهكذا يتبين لنا: أن المنتسبين لإبراهيم حقاً وصدقاً هم محمد ﷺ وأمته، وخدمهم لا يشاركهم في ذلك أحد من الأصناف أو الأمم الأخرى! وبهذا الإعلان يبطل القرآن الكريم انتساب الطوائف السالفة الذكر لإبراهيم ﷺ، ويفند مزاعمهم بذلك، ويحصر الانتساب لإبراهيم ﷺ بهذه الأمة المسلمة وحدها، وهو الانتساب الديني الإيماني، وليس الانتساب النسبي الجنسي. ^(١) هذا ومن انحرافات اليهود بشأن إبراهيم ﷺ ما جاء في التوراة المحرقة: من أنه وقف موقف المتاجر بعرضه، المحتمي بامرأته الجميلة سارة، كي يصير له من وراء ذلك (غنم، وبقر، وحمير، وعبيد...) ^(٢) وليس هذا بغريب على اليهود، الذين جعلوا من الأنبياء أبطالاً للجريمة، وقادة للفجور والدعارة! وهذه فقرة مختصرة وردت في التوراة المحرقة مما نسبه اليهود إلى أنبياء الله، نوح، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، وداود، وسليمان عليهم السلام.. ولو تتبعنا حال الأنبياء الذين ورد ذكرهم في التوراة لما وجدنا فيهم نبياً إلا وأصابته أيدي كتّاب "العهد القديم" في خير ما يملكون من صفات. ^(٣)

أحوال بعض أنبياء الله ورُسُله (عليهم أفضل الصلاة والسلام) كما وردت في التوراة المحرقة:
 نوح ﷺ: تصفه التوراة المحرقة، بأنه سكر، وتعرّى فانكشفت عورته لابنه حام، وعندما أفاق صبّب لعنته على حفيده كنعان قائلاً: "ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته" ^(٤) !
 ولوط ﷺ: نسبت إليه التوراة شرب الخمر والزنا بيناته " ... فحملت ابنتا لوط من أبيهما، وولدت الكبرى ابناً ودعت اسمه (مؤاب) وهو أبو المؤابيين إلى يومنا هذا، وولدت الصغرى أيضاً، ودعت اسمه (عمون) فهو أبو العمونيين إلى اليوم" ^(٥) ليصبح هؤلاء فيما بعد من أعداء بني

^(١) الخالدي، القصص القرآني (١/٤٥٧-٤٥٨).

^(٢) سفر التكوين (١٤/٢٠).

^(٣) صالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية (ص ٣٢٤). والسقاء، نقد التوراة، (ص ١٦٣).

^(٤) سفر التكوين (٩/٢١-٢٦).

^(٥) سفر التكوين (١٩/٣٣-٣٧).

إسرائيل! ولا نملك إلا أن نقول: إنّ الفاسقين من البشر وشرار الخلق قد يسمحون لأنفسهم بارتكاب الذنوب، والآثام والكبائر، لكن يبعد أن يسمح واحد منهم لنفسه بالزنا ببناته، وهكذا يضع اليهود سيّدنا لوطاً في أخطّ درجات البشرية. (١) حاشاه من ذلك ، وهو النبي المطهر من كل ذلك...

يقول الإمام ابن القيم مستكراً فحش اليهود وتناولهم على لوط ﷺ: (هل يحسن أن يكون نبي رسول ، كريم على الله يوقعه سبحانه في مثل هذه الفاحشة العظيمة في آخر عمره، ثم يذيعها عنه، ويحكىها للأمم) (٢) ١٩؟ هذا، ويبرّر اليهود إيرادهم لهذه القضية في توراتهم: بأن نكاح الأقارب لم يكن حراماً ... لكنّ ابن القيم يردّ عليهم زعمهم هذا، ويبتلّه من نفس توراتهم، وذلك في النص التالي: (وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك، قولي إنك أختي، ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك). (٣) فيدلل ابن القيم على تحريم نكاح البنت بقوله: (وهذا أظهر دليل على أن تحريم نكاح الأخت كان ثابتاً في ذلك الزمان، فما ظنك بنكاح البنت الذي لم يشرع ولا في زمن آدم ﷺ) (٤) ١٩؟

ويقول الإمام ابن حزم تعليقاً على نص التوراة السابق: (هذه فضائح وسوءات تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى، العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام... وهي من توليد الزنادقة المبالغين في الاستخفاف بالله تعالى وبرسّله عليهم السلام... أولئك الذين وضعوا لهم هذه الخرافات الباردة التي لا فائدة فيها ولا موعظة، ولا عبرة حتى ضلّوا بها، ونعوذ بالله من

(١) السقاء، نقد التوراة (ص ١٦٣). وصالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية ص ٣٢٤ فما بعدها.

(٢) ابن القيم، هداية الحيارى (ص ٤١٧).

(٣) سفر التكوين (١٢ / ١١ - ١٣).

(٤) ابن القيم، إغاثة اللهفان (ص ٦٨٧).

الخدلان^(١) وقد ردّ ابن حزم رحمه الله على افتراءات اليهود السابقة رداً علمياً وتاريخياً رصيناً، نجد تفاصيله في كتابه الفصل، أشهر وأهم كتاب في مقارنة الأديان.

أما يعقوب عليه السلام: فقد نسبت إليه التوراة صفات خسيّة لا حصر لها: منها الظلم، وانتهاز الفرص، وأخذ ما ليس له دون وجه حق، والمكر والاحتيال والكنب.. فأحد نصوص التوراة مثلاً يصف يعقوب بالتآمر مع أمه على أخيه (عيسو) لينال حق البكورية، حيث كان الابن البكر له المنزلة الأولى في ميراث الأب، دون أن يدري إسحاق النبي بشيء من هذه الخديعة، من هنا حاول يعقوب بكل الطرق أن يحلّ محلّ أخيه في البكورية!^(٢) لأنّ البكورية تعني استحقاق منصب النبوة والبركة، وبذلك يكون يعقوب قد سرق منصب النبوة من أخيه عيسو كما تزعم التوراة المحرفة.^(٣)

اتحرفهم بشأن موسى عليه السلام

لم يسلم أحد من الأنبياء عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام، من إيذاء اليهود وافتراءاتهم، أو من طعنات الكتاب المقدس، حتى الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، وعلى رأسهم موسى عليه السلام الذي تصفه التوراة بأنه أعظم أنبياء بني إسرائيل.^(٤) فقد جاء في سفر التثنية: "ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرف الربّ وجهاً لوجه"^(٥) ومع كل هذا، فقد آذى القوم

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/١٦٠-١٦١)، دار الكتب العلمية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

(٢) انظر سفر التكوين (٧/٢٧-٣٥)، صالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية (ص٣٢٦- فما بعدها)، والسقا، نقد التوراة (ص١٦٣).

(٣) رحمة الله الهندي، إظهار الحق (٢/٤٥٩).

(٤) المرصفي، الدكتور سعد، الرسول عليه السلام واليهود وجهاً لوجه، الفكر اليهودي (ص٥٩)، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، (الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).

(٥) سفر التثنية (١٠/٣٤).

نبيهم موسى ﷺ، وهذا الإيذاء لنبيهم ورسولهم وقائدهم ومعلمهم إيذاء متطاوّل متعدّد الألوان، ويذكر القرآن الكريم في قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيذاء، ومن هذا العناء. (١)

يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار: (نظرت إلى لفظ الإيذاء في القرآن الكريم فوجدته إنما يكون في أمور هامة غليظة غالباً. (٢) فمن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) فمن هذا الأذى: تدبيرهم ضدّ موسى ﷺ مؤامرة لرميه بالزنا في حفل من الناس! قال أبو العالية: إنّ قارون استأجر مومساً لتقذف موسى ﷺ على رأس الملاء، فعصمه الله وبرزاً موسى من ذلك، وأهلك قارون. (٤) ومن الأذى قولهم: 'يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة'. (٥) ومن الأذى قولهم: ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٦) ومن الأذى قولهم لموسى: إنك قتلت هارون، أخرج ابن جرير بسنده أنّ موسى وهارون عليهما السلام صعدا الجبل، فمات هارون، فقال بنو إسرائيل لموسى ﷺ: أنت قتلتنا، كان ألين لنا منك، وأشدّ حياءً فأذوه في ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا به على مجالس بني إسرائيل حتى رأوه لا أثر فيه للقتل. (٧) ومن الأذى كذلك: رميهم موسى ﷺ بالأنزلة. (٨) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَعْبُدُونَ لِمَنْ لَمْ يُولَدُوا وَأَنْتُمْ كَذِبُونَ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ السِّرَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (٩) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَعْبُدُونَ لِمَنْ لَمْ يُولَدُوا وَأَنْتُمْ كَذِبُونَ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ السِّرَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (٩) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَعْبُدُونَ لِمَنْ لَمْ يُولَدُوا وَأَنْتُمْ كَذِبُونَ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ السِّرَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (٩)

(١) قطب، الظلال (٦/٣٥٥٥).

(٢) النجار، قصص الأنبياء ص ٢٨٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.

(٤) النجار، قصص الأنبياء ص ٢٨٥.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٦) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٧) الطبري، جامع البيان (٥٢/٢٢)، والنجار، قصص الأنبياء ص ٢٨٥.

(٨) الأنزلة: هي ورم الخصية، ويسميه الأطباء "القيلة للدولية"، وهي تنشأ من ميكروب يسمى (ميكروب الفيلاريا)، وهذا الميكروب يصيب الإنسان من ناموس يوجد فيه ذلك الميكروب، فإذا لقم الإنسان به فإنه يحدث التهاباً في بعض أعضاء الجسم، وإذا وجد الميكروب في الخصية أحدث التهاباً في طبقاتها، فحصل من ذلك الورم. (النجار، قصص الأنبياء ص ٢٨٨).

لا يهدي القوم الفاسقين»^(١) ومع كل هذا فقد ظل موسى صلوات الله وسلامه عليه صابراً على قومه، محتسباً أجره على الله، ولا غرو فهو من أولى العزم من الرُّسل، الذين امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرُّسل﴾^(٢) وامتدحه سيِّدنا محمد ﷺ حين اعترض أحد الأنصار على قسمة قسماها، فقال النبي ﷺ وقد غضب: "يرحم الله موسى قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر"^(٣) بل إنَّ التوراة المحرَّفة تصف كليم الله موسى وأخاه هارون عليهما أفضل الصلاة والسلام، بالمعصية وعدم الإيمان، ولذلك حُرِّم دخول الأرض المقدسة.^(٤) جاء في سفر العدد: (فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل لذلك لا تدخل هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياها).^(٥) وتتهمهما بأكثر من ذلك، تتهمهما بالخيانة، وليس هناك جريمة في العقيدة الدينية أكبر ولا أفظع من خيانة الرسول لله الذي أرسله، وعدم تقديسه لله.^(٦) جاء في سفر التثنية ما نصه: (لأنكما خنتما في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادمين في برية حين إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل، فإنك تنظر الأرض من قبالتها، ولكنك لا تدخل إلى هناك إلى الأرض التي أنا أعطيها لبني إسرائيل).^(٧) بل وتتهمه التوراة بأنه طلب من ربه ألا يكلفه بالرسالة! ففي سفر الخروج قال: (استمع أيها السيد أرسل بيد من ترسل، فحمني غضب الرب على موسى...).^(٨) قال تعالى مبيِّناً ردائل بني إسرائيل وإيذاءهم لموسى ﷺ، ومبرِّناً له من كل هذه الاتهامات: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا

(١) سورة الصف: الآية ٥.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٣) أخرجه البخاري من حديث عبد الله في كتاب لأحاديث الأنبياء برقم (٣٤٠٥) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (١/٥٣٩).

(٤) رحمة الله الهندي، إظهار الحق (٢/٤٧٥-٤٧٦).

(٥) سفر العدد (١٢/٢٠).

(٦) المرصفي، الفكر لليهودي (ص ٦٠).

(٧) سفر التثنية (٥٢/٣٢).

(٨) سفر الخروج (٤/١٣-١٥).

كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وحيها ﴿^(١)﴾. ففي هذه الآية الكريمة: ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التشبه باليهود في إيذائهم لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام ، قال الإمام القرطبي: اختلف الناس فيما أؤذي به موسى ﷺ، وذكر في ذلك ثلاث روايات: إحداهما: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: آذوا موسى بأن قالوا: قتل هارون! والثانية: قيل: إنهم رموه بالسحر والجنون! أما الرواية الثالثة فقد وردت في الصحيحين^(٢)، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا عن عيب بجلده، إما برص، وإما أذرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يُبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه لياخذها وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبراه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وحيها﴾. ^(٣) وقد رجح الإمام القرطبي رواية الصحيحين ثم قال: (ويحتمل أنهم فعلوا كل ذلك فبرأه الله من جميع ذلك) ^(٤) وقد سبقه إلى هذا القول: الإمام أبو جعفر الطبري^(٥)، لكن الإمام الطبري لم يرجح قولاً على الآخر بل قال:

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٦٠-١٦١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب لأحاديث الأنبياء برقم (٣٤٠٤) تنظر: ابن حجر، فتح الباري (٦/٥٣٨-٥٣٩) وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، تنظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٥/١٢٦-١٢٧).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٦١).

(٥) الطبري، جامع البيان (٢٢/٥٢).

(وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال إن بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به، فبرأه الله مما آذوه به ...، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله، إنهم آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا).^(١) وهكذا برأ الله تعالى موسى ﷺ من كل ما أؤذي به من بني إسرائيل، ووبّخهم على إيذائهم له: "وكان عند الله وجيهاً" أي له وجهة، ونو قنرٍ عظيم، ومنزلة رفيعة، عند ربه عز وجل، حيث لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، ولكنه منع الرؤيا رؤيا الله لحكمة بالغة عند الله^(٢) وبالإضافة إلى ما سبق من اتهامات وطعنات وجهتها التوراة المحرقة لهارون، هناك اتهام آخر أفضح من سابقاته، كتبته اليد اليهودية الأثيمة بحق نبي من أنبياء الله الكرام، ألا وهو اتهام هارون ﷺ بأنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل بيديه ودعاهم إلى عبادته، وهذا لعمرى من أكبر الأدلة وأوضحها على تحريف التوراة التي يقرؤها أحبار يهود قديماً وحديثاً لنستمع إلى النص التالي من سفر الخروج: (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أصدعنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل، وصنعه عاجلاً مسبوكاً، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصدعتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بنى منبجاً أمامه، ونادى هارون وقال غداً عيدٌ للرب، فبكرّوا في الغد، وأصدعوا مُحْرقات وقنّموا نباح سلامة، وجلس الشعب للأكل والشرب، ثم قاموا للعب).^(٣)

(١) المرجع السابق (٥٢/٢٢-٥٣).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٢/١٤) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٢١/٣).

(٣) سفر الخروج (١/٣٢-٦).

وقد ردّ القرآن الكريم على اليهود هذه الفرية وحضها من أساسها بأدلة:

أولها: أن هارون ﷺ نبي مرسل مع موسى ﷺ إلى فرعون وملئه، قال تعالى مخاطباً موسى ﷺ: ﴿إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تتيا في ذكري، اذها إلى فرعون إنه طغى،﴾ إلى قوله تعالى: فاتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، قد جنناك بآية من ربك، والسلام على من اتبع الهدى﴾. (١) والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه معصومون بعد بعثتهم عن صغائر الذنوب بإجماع علماء المسلمين، فكيف بكبائرهم وأعظمها الشرك وخيانة الرسالة؟! (٢)

ثانيها: أن الذي صنع العجل وأضلّ بني إسرائيل هو السامري، أحد المنحرفين عن رسالة سيّدنا موسى، قال تعالى: ﴿وأضلهم السامري﴾. وقد جاء هذا الاعتراف على لسان السامري نفسه حين وبّخه موسى ﷺ على فعلته، وسأله عن السبب الذي حمله على ما صنع، فأجاب السامري قاتلاً: ﴿بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سوّكت لي نفسي﴾. (٣) ثم قال لهم السامري: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾. (٤) ويرى الإمام ابن القيم: أن هارون هو اسم السامري الذي صاغ العجل لبني إسرائيل، وليس المقصود به هارون أخو موسى عليهما السلام. (٥)

ثالثها: تصريح القرآن الكريم بموقف هارون ﷺ الواضح، حيث أنكر على قومه عبادتهم العجل، قال تعالى: ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم

(١) سورة طه: الآيات (٤٢-٤٧).

(٢) السيّد صالح سعد الدين، العقيدة اليهودية (ص ٣٣٢).

(٣) سورة طه: الآية ٩٦.

(٤) سورة طه: الآية ٨٨.

(٥) ابن القيم، هدية الحباري (ص ٤١٧).

الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري^(١). ومن خلال هذه الآية الكريمة نجد أن هارون ﷺ قد سلك في وعظ قومه وزجرهم أحسن الوجوه، حيث زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: "إنما فتنتم به"، ثم دعاهم إلى معرفة الله ثانياً بقوله: "وإن ربكم الرحمن"، ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: "فاتبعوني"، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: "وأطيعوا أمري" وهذا هو الترتيب الجيد، لأنه لا بد أولاً من إمطة الأذى عن الطريق بإزالة الشبهات، ولا بُدَ ثانياً من معرفة الله تعالى وهي الأصل، ثم النبوة فالشريعة، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، ولكن القوم لجهلهم وعنادهم قابلوا كل ذلك بالتقليد والجمود^(٢)، فأجابوه قائلين: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾^(٣) وإن نص القرآن على رفض هارون ﷺ عبادة العجل، ونهيه لهم عن ذلك: تصحيح لرواية التوراة المكنوبة التي أوردناها.^(٤)

أما داود ﷺ:

فقد نسبت إليه توراتهم المحرفة، ما لا ينسب إلى أراذل من البشر، حيث تدعى التوراة أن داود ﷺ رأى امرأة جميلة "زوجة أوريا الحثي" الجندي المخلص في جيش داود، فأغرم بها، وأمر بإحضارها، فضاجعها وحملت منه بسيدنا سليمان، ثم دبّر مكيدة لزوجها وتخلص منه بالقتل لكي يضمها إلى حريمه^(٥) هذا ما يشير إليه كتابهم الذي يدعونه مقتساً، وما هو بمقتس!! كما يخبرنا سفر الملوك الأول: أن داود حين شاخ كان يتدفأ بعنراء، لأن الملابس لم تكن تدفئه^(٦) إن القلم ليخجل من تسطير مثل هذه الأكاذيب، ولولا أن النصوص هي الدليل الأول على

(١) سورة طه: الآية ٩٠.

(٢) الرازي، التفسير الكبير (٩٢/٨).

(٣) سورة طه: الآية ٩١.

(٤) للخالدي، القصص القرآني (١٨١/٣).

(٥) صالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية (ص ٣٣٤).

(٦) السعدي، دراسة في الأنجيل (ص ١٣٦).

انحرفهم لما لجأنا إلى كتابة ما لا يتصوره عقل، بحق صفوة الخلق (عليهم الصلاة والسلام) فهل يعقل أن يرتكب أحد أنبياء الله عدّة جرائم متوالية: زنا، قتل، وتأمّر، وخداع؟؟^(١)

يقول العلامة محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمّدي ما نصّه: (إذا كان إرسال الأنبياء إلى البشر لأجل هدايتهم إلى تركية أنفسهم بما تصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعتون به حياة أعلى من هذه الحياة الدنيا في نشأة أخرى، فلا يتمّ هذا الغرض ولا تتحقّق هذه الحكمة، إلّا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلاً لأن يقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم والتزام الشرائع والآداب التي يبلّغونها عن ربهم، ومن ثمّ قال علماؤنا بوجود عصمة الأنبياء من المعاصي والردائل)^(٢) تفنيد الافتراءات والمزاعم التي ألصقت بـداود ﷺ:

يقول الله تعالى مادحاً داود ﷺ: ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾^(٣) ويقول " ﴿ وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾^(٤) ويقول: ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾^(٥) ويقول: ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير ﴾^(٦) هذا هو داود الذي كان إذا قرأ الزبور تكفّ الطير عن الطيران، وتقف على الأغصان والأشجار فترجع بترجيعة، وتسبح بتسبيحه! وقال عنه نبينا محمد ﷺ: "أحبّ الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحبّ الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سُنُسَه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً"^(٧) وقد روي عن أمير المؤمنين علي أنه قال: (لا أوتى برجل يزعم أنّ داود تزوج امرأة أوريا إلّا

(١) السيّد صالح، سعد الدين العقيدة اليهودية (ص ٢٣٥).

(٢) رضا، محمد رشيد، الوحي المحمّدي، ثبوت النبوة بالقرآن، ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام، بين الأخوة الإنسانية والسلام ص ٨٧، مؤسسة عز الدين، بيروت (الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ).

(٣) سورة ص: الآية ٤٤.

(٤) سورة ص: الآية ٢٥.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

(٦) سورة سبأ: الآية ١٠.

(٧) أخرجه البخاري، في صحيحه، في كتاب التهجد، باب: من نام عند السُّحُر، برقم ١١٣١، انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (٢/٣).

جلدته حدّين، حدّاً للنبوة، وحدّاً للإسلام)، فهل يليق بهذا النبي الكريم ما نسبته إليه التوراة! ليس ذلك عنهم ببعيد فقد نسبوا إلى الله تعالى ما هو أعظم من ذلك!!!^(١)

سليمان ﷺ:

وأخيراً وليس آخراً ماذا تقول التوراة عن سليمان ﷺ؟ إنه العجب العجاب! وأول هذه العجائب ما ترويّه التوراة من أن سليمان ﷺ ابن زنا، فهو ثمرة اللقاء المحرم بين داود وزوجة أوربا... . فإذا سرنا قليلاً مع توراتهم المحرّفة نجدها تصفه بما تشيب منه الولدان! فهو يبدأ حياته في الملك بقتل أخيه وقائد جنده، بل تروي التوراة بأنه قتل كل منافسيه ليستريح من متاعبهم.^(٢) ثم تخبرنا التوراة المحرّفة أن سليمان ﷺ تزوج كثيراً من النساء الأجنبية اللواتي حرّم الله الزواج بهن، وأنه عبد الأصنام، وبنى لها المعابد إرضاءً لزوجاته.^(٣) أي أن سليمان ﷺ ارتدّ في أواخر حياته عن الإسلام إلى الكفر وعبادة الأصنام جاء في سفر الملوك "وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الربّ لئني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساؤه أمّلت قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين وملكوم رجب العمونيين. وعمل سليمان الشرّ في عيني الربّ ولم يتبع الربّ تماماً كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجب الموابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجب بني عمون. وهكذا فعل لجميع نساؤه الغريبات اللواتي كنّ يوقدن

(١) السيّد صالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية (ص ٢٢٦). وماضي، د. محمود، عصمة الأنبياء (ص ٥٢).

(٢) السيّد صالح، سعد الدين، العقيدة اليهودية (ص ٢٢٨- فما بعدها).

(٣) انظر: سفر الملوك الأول (١/١١-٨).

ويذبحن لألهتهن. فغضب الربّ على سليمان لأنّ قلبه مال عن الربّ إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الربّ^(١). إنّ كل ما ذكره عن سليمان ﷺ هو محض افتراء بطبيعة الحال ويتعارض مع العقل والنقل، فقد تحدّث عنه القرآن بكل إجلال وتقدير، فهو وريث الملك عن أبيه داود ﷺ، قال تعالى: ﴿وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾^(٣).

اتحراف أهل الكتاب بشأن العزيز

أشار القرآن الكريم في موضع واحد فقط إلى ضلال اليهود حينما قالوا: إنّ عزيزاً ابن الله! كما ضلت النصارى عندما قالوا بأن المسيح ابن الله! قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾^(٤) وقد أبطل القرآن الكريم هذا الاتحراف، وردّ على اليهود والنصارى افتراءاتهم، ولعل ممّا يستوقف الباحث هنا: أنّ طوائف النصارى على اختلافها لا تزال تتناقل فيما بينها عقيدتها في عيسى ﷺ وأنه ابن الله! ودونوا ذلك في العهد الجديد، أمّا اليهود فلا نجد في التوراة ولا في التلمود ما يشير إلى عقيدتهم في العزيز، وليس ذلك شائعاً لدى طوائفهم^(٥). لكن ما دام القرآن الكريم قد حكى ذلك عنهم، فهو دليل قاطع على أن بعضهم على الأقل اعتقد ذلك، وبصفة خاصة يهود المدينة، لأن القرآن لا يمكن أن يواجههم بما ليس فيهم^(٦).

(١) سفر الملوك الأول (١١/١-١١).

(٢) سورة النمل: الآية ١٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان (٧٨-٧٩).

(٤) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٥) لين القيم، هداية الحيارى (ص ٢٠٨ - ص ٢٠٩).

(٦) قطب، الظلال (١/١٦٣٥).

ويؤكد صاحب المنار أنّ بعض يهود المدينة هم الذين كانوا يقولون ذلك، ومما يؤيد ذلك: ما رواه ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك، وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله. ^(١) وقد عدّ الشيخ الزرقاني رحمه الله هذه الإشارة القرآنية معجزة تاريخية من معجزات القرآن التي يكشف عنها التاريخ الحديث، حيث قال (هذا سرّ من أسرار القرآن لم يكتشف إلا بعد ظهور حقيقة ما كان عليه قدماء المصريين في العصر الحديث، وما شيء من ذلك معروف في الدنيا عند نزول القرآن! حتى إن أعداء الإسلام كانوا يصوغون من جهلهم بهذه الحقيقة التاريخية شبهة يلطّخون بها الإسلام، ويطعنون بها في القرآن، فقال اليهود منهم: إنّ القرآن يقولنا ما لم نقل في كتبنا ولا في عقائدنا ^(٢)

متى تسربت هذه العقيدة إلى اليهودية...؟

إن اعتقاد اليهود بأن عزيراً ابن الله، هو اعتقاد وثني مأخوذ من الوثنية المصرية القديمة، واسم عزير هو (أوزيرس) كما ينطق به الإفرنج، أو (عوزر) كما ينطق به قدماء المصريين، وقد كان قدماء المصريين يعتقدون أنّ (أوزيرس) هو الله، وبعد عبادتهم للشمس صاروا يعتقدون أنه ابن الله، وبحكم اختلاط اليهود بالمصريين وأخذهم لعقائد المصريين الوثنية، فقد أخذوا في هذا الطور هذه العقيدة الوثنية عنهم، فاستحسنوا كون (أوزيرس) ابن الله، فصار اسم أوزيرس أو عوزر (عزير) من الأسماء المقنّسة التي طرأت عليهم، حتى أنهم صاروا يسمّون أولادهم بهذا الاسم الذي قنّسوه كفرةً وضلالاً، فعاب الله عليهم في القرآن الكريم منكرًا لهم أنّ هذه الوقائع هي من تاريخهم الذي نسيه البشر جميعاً. ^(٣) وقد اختلف في تحديد من هو

(١) رضا، تفسير المنار (١٠/٣٢٧).

(٢) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/٣٨٢ - ٣٨٤)، دار الفكر.

(٣) المصدر السابق (٢/٣٨٣).

العزير، لأن اسم (عزير) بهذا اللفظ لم يرد في العهد القديم، وإنما ورد اسم عزرا، وأُفرد له العهد القديم سفرًا خاصًا، وقد احتل عزرا هذا مكانة دينية مرموقة عند اليهود، ولقبوه بالكاهن وبالكاتب، لأنه كتب لهم التوراة - المحرفة - في بابل، وكان بجانب ذلك دارسًا مجتهدًا ومفسرًا عميقًا لوصايا الله وعهده لبني إسرائيل. من هنا يرى ابن القيم أن اليهود بالغوا في تعظيم عزرا غاية المبالغة، وقالوا فيه ما حكاه الله عنهم في كتابه: ﴿ وَقَالَت الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ ﴾^(١) وممن قال بذلك صاحب المنار^(٢) لكن صاحب كتاب إفحام اليهود: الحبر اليهودي "شمونيل" الذي اعتنق الإسلام وصار يُعرف بالسموال، يرفض القول بأن عزرا هو العزير لأن العزير هو تعريب العازار، أما عزرا فإنه إذا عُرِب لم يتغير عن حاله لأنه اسم خفيف الحركات، ولأن عزرا ليس بنبي عند اليهود.^(٣) وهذا الكلام من السموال مقبول إلى حد ما، حيث فرّق بين عزرا والعزير والعازار، لا سيما أن الرجل متضلع في اللغتين العبرية والعربية، ومتبحر في علوم القرآن الكريم والتوراة، فهو لا يخلط بين الرجال، وهذا منهج صحيح سلكه المثبتون من علمائنا، خاصة أن الخط في مثل هذه الحالة خطير جدًا؛ لأن العازار المترجم إلى العربية بالعزير رجل صالح، وأما عزرا الوراق فهو رجل فاسق جاهل، وهو رئيس الكتبة المنشقين الذين حرفوا التوراة وبدلوها!^(٤) وممن خلط بين الرجلين الدكتور أحمد حجازي السقا في كتابه نقد التوراة فقال إن عزير تصغير عزرا، وأن الله تعالى صغر اسمه تحقيرًا لشأنه.^(٥) وقد حاول الدكتور محمد الحاج محقق كتاب هداية الحيارى التوفيق بين ما ذهب إليه ابن القيم والشيخ محمد رشيد

(١) ابن القيم، هداية الحيارى (ص ٢١١).

(٢) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار (١٠/٣٢٦).

(٣) السموال، إفحام اليهود (١٥٢).

(٤) لشرقلوي، الدكتور: محمد عبد الله، بهامش إفحام اليهود، للسموال (ص ١٥٣).

(٥) السقا، أحمد حجازي، نقد التوراة، لمفكر موسى الخمسة السامرية (١٦٣) دار الجيل، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م).

رضا من جهة وما قاله الزرقاني من جهة أخرى، فهو يرى أن اليهود قد أخذوا عقيدة تقديس أوزيرس أو عوزر وعبادته، واتخاذة ابناً لله من قدام الوثنيين المصريين، ورأوا أن ينسبوا هذه العقيدة إلى عزرا كاتب الأسفار ومخلصهم من الأسر البابلي، فاعتقدوا في عزرا ما اعتقده المصريون القدماء في أوزيرس، سيما أن اليهود قد تأثروا كثيراً بعقائد الوثنيين كتأثرهم بعقيدة عبادة العجل، فيما أشرنا إليه سابقاً. ^(١)

- إبطال القرآن الكريم لدعوى اليهود في العزير:

تقدرد الله تعالى على اليهود إفكهم وافتراءهم عليه فقال ﴿ ذلك قولهم بأفواههم يضاهنون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ^(٢) قال ابن جزّي: في معنى قوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم: (يتضمن معنيين: أحدهما إزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك، والثاني: أنه لا حجة لهم في ذلك، وإنما هو مجرد دعوى، كقولك لمن تكذبه هذا قول بلسانك). ^(٣) وقال الزمخشري: (إن قيل: كل قول بالنعم، فما معنى قوله: ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ ؟ قيل: إنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته). ^(٤) وقيل: إن الله سبحانه لم ينكر قولاً مقروناً بنكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً! ^(٥) ثم بين سبحانه وتعالى أنهم في قولهم هذا يشابهون قول الذين كفروا، وقيل: المضاهاة بمعنى المتابعة، فقولنا فلان يضاهي فلان أي: يتابعه. ^(٦) وللعلماء في قوله تعالى: ﴿ قول الذين كفروا ﴾ ثلاثة أقوال:

الأول: قول عبدة الأوثان: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

^(١) للحاج، د. محمد أحمد بهامش هداية الحيلاري (ص ٢١٣-٢١٤).

^(٢) سورة التوبة: الآية ٣٠.

^(٣) ابن جزّي الكلبّي، محمد بن أحمد، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل (٧٤/٢)، دار الفكر.

^(٤) للزمخشري، الكشاف (٢٥١/١).

^(٥) القرطبي، للجامع لأحكام القرآن (٧٥/٨).

^(٦) الرازي، التفسير الكبير، (٣٠/٦).

الثاني: قول الكفرة: الملائكة بنات الله.

الثالث: قول أسلافهم فقلّدهم في باطلهم. (١)

ثم جاء الدعاء عليهم من الله بالهلاك، أي أهلكهم الله كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، بعد أن اتضح الدليل أمامهم حتى يجعلوا لله ولداً؟ وقيل: فأنتم الله بمعنى لعنهم أي اليهود والنصارى، لأن الملعون كالمقتول، وفي ذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كل شيء في القرآن قتل: فهو لعن! وهذه الصفة صيغة تعجب كما يقول الإمام الرازي، فأنه تعالى عجب نبيّه من تركهم الحق والإصرار على الباطل. (٢) وقد ورد في الحديث الشريف كذلك إبطال لعقيدة اليهود في العزيز، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله ﷺ: نعم قال: هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحب وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً، ليس فيها سحب، قالوا لا يا رسول الله، قال: ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغير أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولداً... الخ الحديث. (٣)

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٦/٨).

(٢) المصدر السابق (٧٦/٨)، والرازي، التفسير الكبير (٣٠/٦).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى، انظر: النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٣/٢٥- فما بعدها).

- انحرافات أهل الكتاب في عيسى ﷺ:

- تمهيد:

لم يختلف الناس في شأن أحد من الأنبياء، كما اختلفوا في شأن المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام، ولم يقع جدل حول نبوة أحد من الرُّسل، كما وقع حول نبوة عيسى ﷺ. والعجيب في الأمر، أن أهل الكتاب قد تنازعوا في شأن المسيح واضطربوا، وذهبوا بين إفراط وتفریط، فاليهود، ادَّعوا أنه (ابن زنى)، لا بد أن يكون له أب، والمسيح ليس له أب فلا بد أن يكون ابن زنى، حسب زعمهم لعنة الله عليهم، والنصارى ادَّعوا أنه (ابن الله) لأنه خُلِقَ من روح الله، وروح الله جزء من الإله، فلا بد أن يكون ابن الله، حسب زعمهم قاتلهم الله أنى يوفكون، وكلا الفريقين غالى في المسيح ﷺ، والكل على خطأ وضلال مبين والحقيقة هي ما قرَّره القرآن الكريم، من أنه رسول عظيم من الرُّسل الكرام، بعثه الله إلى بني إسرائيل بالهدى والبيّنات، وأمّه هي العفيفة الصديقة، الطاهرة البتول، التي أحصنت فرجها وكانت من القانتين، قال تعالى: ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسل، وأمّه صديقةٌ كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يوفكون ﴾^(١) ففي هذه الآية الكريمة ردّ على الفريقين معاً: ردّ على النصارى في دعواهم أنه ابن الله، وردّ على اليهود في دعواهم أنه ابن زنى، فهو رسولٌ وأمّه صديقة، ثم بيّنت الآية الكريمة أن عيسى ﷺ وأمّه الصديقة (كانا يأكلان الطعام) للإشارة إلى أن الذي يأكل ويشرب هو محتاج، والإله ليس بمحتاج، والذي يتناول الطعام يحتاج إلى إخراج الفضلات، ويحتاج إلى التغطّ، وإلى دخول بيت الخلاء، فكيف يليق هذا بالإله أو بابن الإله؟!^(٢) ويعدّ هذا الانحراف في شأن عيسى ﷺ من أخطر الانحرافات بشأن نبيّ من

(١) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٢) الصابوني، للنبوة والأنبياء (ص ٢٠٨ ص ٢٠٩).

الأنبيا، فقد بني عليه انحراف في عقيدة أمه بأكملها، تعدّ اليوم أكبر أمة في العالم من حيث تعداد السكان تلك هي الأمة النصرانية. وسنذكر في هذا المبحث الآيات التي كشفت انحرافات اليهود والنصارى بشأن عيسى على حدّ سواء ثم نبطل أقاويلهم جميعاً بالحجة والبرهان من القرآن، من خلال تفسير الآيات الكريمة والتعليق عليها، وبهذا الصدد نقول: إنّ ما كتبه علماء المسلمين قديماً وحديثاً في الردّ على النصارى، وإبطال دعوى ألوهية عيسى ﷺ، يكاد يفوق الحصر وما يمكن أن يكتب أيضاً في هذا الموضوع، يحتاج إلى بحث مستقل، لذا سنقتصر في هذا المبحث على الآيات الكريمة الواردة بهذا الشأن، ويشتمل هذا المبحث على: انحراف اليهود في عيسى ﷺ والردّ عليهم. وانحراف النصارى في عيسى ﷺ والردّ عليهم.

- انحراف اليهود بشأن نبي الله عيسى ﷺ والردّ عليهم:

ينكر اليهود عليهم من الله ما يستحقون نبوة عيسى ﷺ ويكفرون به، ويجمعون على أنه لم تظهر له معجزة، ولا بدت منه لهم آية، غير أنه طار يوماً، وقد همّوا بأخذه، وطار على أثره آخر منهم، فعلاه في طيرانه فسقط إلى الأرض، كما يزعمون^(١)! ومن انحرافاتهم في عيسى ﷺ: أنهم نسبوا إليه الألوهية استهزاءً به، وليكون أبلغ في تسلطهم عليه، فيذكر الإمام ابن القيم السبب الذي حملهم على ذلك: وهو أنّ أحبارهم وعلماءهم لما مضى عيسى ﷺ، وبقي ذكره في قومه خافوا أن يصير عامتهم إليه، إذ كان على سنن تقبله قلوب الذين لا غرض لهم، فشنّوا عليه أموراً كثيرة، ونسبوا إليه دعوى الإلهية تزهداً للناس في أمره. ^(٢) ومن طعنهم في عيسى ﷺ كذلك: قولهم إنه جاء عن طريق الزنى، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً وينسبونه إلى العسكري "البنديرا" حاشاه ﷺ، وحاشا أمه الصديقة الطاهرة البتول من ذلك، فهذا

(١) ابن القيم، هداية الحيارى (ص ٥٢٩).

(٢) المرجع السابق (ص ٥٣٠-٥٣١).

كله كذب وافتراء، لذا جاء القرآن الكريم ليكشف عن هذه الانحرافات وغيرها من جحد اليهود لنبوة عيسى ﷺ، وكفرهم به، ثم تبجحهم ودعواهم قتله. فأبطل القرآن الكريم ذلك كله، مبيناً الصورة المشرقة اللاتقة بهذا النبي الكريم. أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع، وأزار بن أبي أزار، وأشيع فسألوه عن يؤمن به من الرُّسُل؟ قال: أومن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون، فلما ذكر عيسى ﷺ جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن لمن آمن به، فأنزل الله فيهم: ^(١) ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بما أنزل إلينا، وما أنزل من قبل، وأن أكثركم فاسقون ﴾ ^(٢) ومعنى هذه الآية: قل يا محمد على سبيل التوبيخ والتبكيث، والرد الملمزم لهؤلاء اليهود المنكرين لنبوة عيسى ﷺ، هل تعيبون علينا، وتكفرون منا إلا إيماننا بالله، وما جاء به رسول الله، وإيماننا بالرُّسُل السابقين، ومن بينهم عيسى ﷺ، وبما أنزل عليهم ^(٣) قال ابن كثير: (أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا، وهذا ليس بعيب ولا مئمة، فيكون الاستثناء منقطعاً). ^(٤) وما تنقمون منا إلا لأن أكثركم فاسقون متمردون، خارجون عن الطريق المستقيم. ^(٥) وقال تعالى مبيناً كفر اليهود بالنصرانية والطعن فيها: ﴿ وقالت اليهود ليست النصراني على شيء ﴾ ^(٦) كذلك فقد سجلت الآية الكريمة سائلة الذكر سجلت على اليهود أعظم أنواع المكابرة والجحود الذين جعلوا الإيمان برُّسُل الله موجباً للنقمة،

(١) الطبري، جامع البيان (١/٥٦٧).

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٩.

(٣) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ١٦٢).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٧٣).

(٥) للمرجع السابق (٢/٧٣).

(٦) سورة البقرة: الآية ١١٣.

مع أنه موجب للقبول والرحمة من الله تعالى. ^(١) قال تعالى مبيناً تبجح اليهود وادعاءهم قتل المسيح ابن مريم ﷺ: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً* بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ ^(٢) ففي هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى تبجح اليهود، وادعاءهم قتل عيسى ﷺ، وهذا يدل على أنهم كانوا راغبين في قتله، مجتهدين في ذلك، ولا شك أن هذا القدر كفر عظيم، لأنهم قالوا: فعلنا ذلك! فإن قيل إن اليهود كانوا كافرين بعيسى ﷺ وأعداء له، وقد تعمّدوا قتله، واتهموا أمه مريم الطاهر البتول بأنها حملت به من الزنا، ورموه بالسحر، وهم كاذبون مفترّون في كل ذلك، فكيف قالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله؟ ^(٣) قلنا: لقد أجاب الإمام الرازي عن ذلك من وجهين:

(الأول: أنهم قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، كقول فرعون: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ ^(٤) وكقول كفار قريش لمحمد ﷺ: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ ^(٥))

والثاني: أنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم، رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به). ^(٦) وبعد أن كشفت الآية الكريمة هذا الانحراف بشأن السيد المسيح كررت عليه بالأبطال بعد ذلك، فقال تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾! وفي هذا تكذيب من الله تعالى لليهود في زعمهم أنهم قتلوا أو صلبوا عيسى ﷺ.

(١) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ١٦٢).

(٢) سورة النساء: الأيتان ١٥٧-١٥٨.

(٣) الرازي، التفسير الكبير (٤/٢٦٠).

(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٧.

(٥) سورة الحجر: الآية ٦.

(٦) الرازي، التفسير الكبير (٤/٢٦٠).

وقد اختلف المفسرون في صفة التشبيه الذي شبه لليهود في أمر عيسى ﷺ : فبعض المفسرين يرى: أن اليهود قتلوا وصلبوا من ألقى عليه شبه عيسى ﷺ (يهودا الاسخريوطي) وهو أحد أتباع عيسى ﷺ، وكان منافقاً دلهم على المسيح ﷺ مقابل ثلاثين درهماً - كما قيل - فالتقى الله عليه شبهه فأخذه وصلبوه، وهم يظنون أنه عيسى ﷺ، وتصريح الأناجيل المعتمدة عند النصارى بأن الذي أسلم عيسى ﷺ إلى الجند ليقتلوه هو يهوذا الإسخريوطي، وأما إنجيل برنابا^(١) فيصرح بأن الجند أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظناً أنه المسيح، لأنه ألقى عليه شبهه.^(٢) وبذلك يتضح المصدر الذي أخذ منه المفسرون قولهم السابق وهو إنجيل برنابا، وقال مفسرون آخرون: إن عيسى ﷺ قال لأصحابه الذين كانوا معه في المنزل الذي أحاط به اليهود ليأخذه ويقتلوه أو يقتله الحاكم الروماني، وكان معه ثلاثة عشر من أصحابه، قال لهم: أيكم يلقي عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة فانتدب لذلك شاب منهم، فالتقى الله عليه شبه عيسى ﷺ فأخذه اليهود وقتلوه.^(٣) ورفع عيسى إلى السماء حياً! فعن وهب بن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت وأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى ﷺ فقالوا لهم: سحرتونا، لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلكم جميعاً، فقال عيسى لأصحابه، من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة، فقال رجل منهم: أنا فخرج إليهم فقال: أنا عيسى، وقد صوره الله على صورة عيسى، فأخذه وقتلوه وصلبوه، فمن ثم شبه لهم، وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك.^(٤) وعن وهب بن منبه أيضاً: أن

(١) إنجيل برنابا: يعرف كاتبة بابن الواعظ، وهو لاي قيرصي، طاهر نقي، وهو خال مرقس كاتب أحد الأناجيل الأربعة المتداولة بين النصارى، واكتشفت أول نسخة من إنجيل برنابا في مكتبة البابا سكتس الخامس بروما، ويختلف إنجيل برنابا عن الأناجيل الأربعة في أمور جوهرية منها أنه يصرح بأن الله هو رب العالمين خالق السموات، ويمتد عيسى ﷺ نبياً لا أكثر، ولا يقول بصلب المسيح بل يؤكد بأن الله قد ألقى الشبه على يهوذا الاسخريوطي، ويشر إنجيل برنابا بنبوة سيدنا محمد ﷺ (الندوة العالمية للشباب المسلم الموسوعة الميسرة (ص ٥٠١ - ٥٠٢).

(٢) رضا، المنار (١٩/٦).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٤/١).

(٤) الطبري، جامع البيان (١٢/٦ - ١٣).

عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشقّ عليه^(١)... فطلب من الحواريين أن يدعوا له ويجتهدوا في الدعاء أن يؤخر الله أجله، فغلبهم النوم حتى لم يستطيعوا الدعاء، ... فجعل عيسى ينعى نفسه ويخبرهم أن أحد تلاميذه سيبيعه بدراهم يسيرة ويأخذ ثمنه ...^(٢) ويعقب الإمام الطبري على هذه الروايات: بأنه لو ألقى الشبه على واحد منهم مع قول عيسى ﷺ أيكم يتلقى عليه شبهى فله الجنة، ثم رأوا عيسى رفع من بينهم، لما اشتبه عليهم - أي النصراني - ولما اختلفوا فيه، وإن جاز أن يشتبه على أعدائهم من اليهود الذين ما عرفوه، لكن ألقى الشبه على جميعهم، وكانوا يرون كل واحد منهم بصورة عيسى، فلما قُتل أحدهم اشتبه الحال عليهم.^(٣) ولعل الصواب من القول في قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ شَبَّهَهُمْ ﴾ أن نتوقف عند هذه الجملة الكريمة، لأنه لم يرد في ذلك حديث صحيح يبين كيفية التشبيه، وإنما وردت روايات جُلّها عن أهل الكتاب، فنؤمن أن عيسى ﷺ لم يقتل ولم يصلب، ولكن شَبَّهَهُمْ، أما كيفية التشبيه فننقلها إلى المولى سبحانه وتعالى، مع التصديق بأنه رفع حياً إلى السماء. وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه" أي: وإنّ الذين اختلفوا في شأن عيسى ﷺ لفي شك من قتله، روي أنه لما رفع عيسى وألقى شبيهه على غيره فقتلوه قالوا: إن كان هذا المقتول عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ فاختلّفوا فقال بعضهم: هو عيسى، وقال بعضهم: ليس هو عيسى بل هو غيره، فأجمعوا أن شخصاً قد قُتل، واختلفوا من كان^(٤) فلم يكن لهم بمن قتلوه علم حقيقي، لكنهم اتبعوا ظنهم، فقتلوه ظناً منهم أنه عيسى، ولم يكن هو نفسه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن".^(٥) "وما قتلوه يقيناً" قال ابن عباس والسدي: إن المعنى: وما قتلوا ظنهم يقيناً، كقولك قتلته

(١) مع تحفظنا على هذا الكلام الذي لا يليق بحق نبي كريم من أنبياء الله ومن أولي العزم من الرسل.

(٢) للطبري، جامع البيان (١٣/٦).

(٣) للمصدر السابق (١٦/٦).

(٤) ابن جزّي، التسهيل (١٦٣/١).

(٥) الطبري، جامع البيان (١٧/٦).

علماء، إذا علمته علماً تاماً، فالهاء عائدة إلى الظن، قال أبو عبيد: ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقيناً لقال: وما قتلوه فقط.^(١) وقيل المعنى: وما قتلوا الذي شبه لهم أنه عيسى يقيناً، وقيل المعنى: وما قتلوا عيسى^(٢) أي وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين، ونجاه الله من شرهم أجمعين فرفعه الله إلى السماء.^(٣) وذلك قوله تعالى: ﴿بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ وبهذا تكون هذه الآيات الكريمة قد كشفت هذا الانحراف وأبطلته، وردت على اليهود دعواهم، وبيّنت أن الله تعالى نجى عيسى ﷺ من مكر اليهود، ورفع حياً إلى السماء، كما بينت ذلك آيات أخرى في سورة آل عمران. قال تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين﴾ إذ قال الله يا عيسى أتني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون^(٤) وأصل المكر في اللغة: السعي بالفساد في خفية ومداحاة، قال الزخّاج: يقال مكر الليل وأمكر: إذا أظلم، وقيل: أصله من اجتماع الأمر وإحكامه، ومنه: امرأة ممكورة أي: مجتمعة الخلق فلما كان المكر رأياً محكماً قوياً مصوناً من جهات النقص والفتور: سمّي مكرأ.^(٥) فيكون معنى الآية: إن اليهود مكروا بعيسى حين أرادوا قتله، فمكر الله بهم حين نجى عيسى من شرهم، ورفع إلى السماء سالماً دون أذى، وسمّي تدبير الله لعيسى مكرأ: من باب المشاكلة،^(٦) ولهذا قال تعالى: ﴿والله خير الماكرين﴾ أي أقواهم مكرأ، بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم.^(٧)

(١) الطبري، جامع البيان (١٧/٦). والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/٦).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨/٦-٩).

(٣) الزمخشري، الكشاف (١/٦٢١).

(٤) سورة آل عمران: الأيتان (٥٤-٥٥).

(٥) الرزوي، للتفسير الكبير (٣/٢٣٦).

(٦) المشاكلة: هي نكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرأ. (الخطيب للقرويني، الايضاح في علوم

البلاغة (١/٤٩٣)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

(٧) الصابوني، الصفة (١/١٨٧).

وقد اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة التي ذكرها الله عز وجل في الآية على أربعة أقوال هي:

القول الأول: أن المراد بالوفاة هنا هو النوم، ومعنى الآية على هذا التفسير: إني منيمك ورافعك في نومك، واستدل أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾^(٢) فقد أطلق الله تعالى على النوم في هذه الآيات لفظ الوفاة، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور".^(٣) قال الإمام ابن كثير: (ونقل هذا القول عن أكثر العلماء)^(٤).

القول الثاني: إن الوفاة هنا بمعنى القبض، فالتوفي كما يطلق على الإمامة كذلك يطلق على استيفاء الشيء.^(٥) يقال: توفيت الحساب واستوفيته.^(٦) وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿ إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أي إني قابضك من الأرض حيناً إلى جوارى، مستوفي مدة إقامتك بين قومك، وأخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين، وأهل الكفر بك، فهو مأخوذ من قولهم: توفيت من فلان ما لي عليه، معنى: قبضته، واستوفيته.^(٧) ومما يدل على أن الوفاة هنا بمعنى القبض والاستيفاء: أن مقتضى الاضراب في قوله تعالى: ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ أن يكون سبحانه وتعالى قد رفع عيسى ﷺ بدنأً وروحاً،

(١) سورة الأنعام: الآية ٦٠.

(٢) سورة الزمر: الآية ٤٢.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح برقم ٦٣٢٤، انظر: ابن حجر، فتح الباري (١٥٦/١).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦٦/١).

(٥) القاسمي، محمد جمال الدين، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل (١٠٧/٤)، دار الفكر، بيروت، (الطبعة الثانية، ١٣٩٨م - ١٩٧٨م).

(٦) ابن تيمية الحراني، أحمد بن عبد الحلیم أبو العباس، مجموع الفتاوى، (٣٢٢٣/٤).

(٧) الطبري، جامع البيان (٢٨٩/٣ - ٢٩٠).

حتى يتحقق به الرد على زعم اليهود أنهم صلبوه وقتلوه، لأنَّ القتل والصلب إنمَّا يكون للبدن أصالة، ولأنَّ رفع الروح وحدها، لا ينافي دعواهم القتل، والصلب، فلا يكون رفع الروح وحدها رداً عليهم، ولأنَّ اسم عيسى ﷺ حقيقة في الروح والبدن جميعاً، فلا ينصرف إلى أحدهما عند الإطلاق إلا بقرينة هنا، ولا قرينة هنا، ولأنَّ رفع روحه وبدنه جميعاً مقتضى كمال عزة الله، وحكمته، وتكريمه، ونصره تعالى من شاء من رسله، وأوليائه حسبما قضى به قوله تعالى في نهاية الآية الكريمة: ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾^(١) وإلا لو كانت الوفاة هنا بمعنى الموت لكان عيسى ﷺ في ذلك كسائر المؤمنين، فإنَّ الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ ولو كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبدين سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء.^(٢)

القول الثالث: إنَّ الوفاة هنا بمعنى الموت، ورد ذلك في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما.^(٣) واستدل أصحاب هذا القول لقولهم: بأن كلمة (توفى) وردت في القرآن الكريم كثيراً بمعنى الموت، حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها والمتبادر منها، ولم تستعمل في غير هذا المعنى إلا وبجانبتها ما يصرفها عن هذا المعنى المتبادر كما في قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكلَّ بكم﴾^(٤) ولا توجد هنا قرينة تصرف الوفاة عن معنى الموت المتبادر منها، كما أنه لا سبيل إلى القول بأن الوفاة هنا مراد بها وفاة عيسى بعد نزوله من السماء، لأن الآية ظاهرة في تحديد علاقته بقومه لا بالقوم الذين يكونون آخر الزمان، وهم قوم محمد ﷺ لا قوم عيسى ﷺ، أمَّا رفع عيسى ﷺ الوارد في قوله تعالى: ﴿بل رفعه الله إليه﴾

(١) مجموعة من العلماء، ابن باز، عبد العزيز، ابن عثيمين، محمد، وابن جبرين، عبد الله، فتاوى إسلامية (١/٩٩-١٠٠)، دار الأرقم، بيروت.

(٢) ابن تيمية، الفتاوى (٤/٣٢٢-٣٢٣).

(٣) الطبري، جامع البيان، (٣/٢٩٠).

(٤) سورة السجدة: الآية ١١.

ففسره أصحاب هذا القول: بأنه رفع المكانة لا رفع الجسد خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله تعالى: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ مما يدل على أن الأمر، أمر تشریف وتكريم، وقد جاء الرفع في القرآن الكريم كثيراً بهذا المعنى كما في قوله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾.^(١)

القول الرابع: إن في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: إذ قال الله يا عيسى إني رافعك، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالني إليك إلى الدنيا.^(٢)

والقول الرابع: هو ما ذهب إليه جمهور العلماء: من أن عيسى ﷺ لم يمّت، ولم يُقتل، ولم يُصلب، وأنه رفع حيّاً وأنه الآن في السماء.^(٣)

وقد رجّح الإمام الطبري أن تكون الوفاة في هذه الآية بمعنى القبض.^(٤) وذهب إلى ذلك الإمام القرطبي: لأن الأخبار تظاهرت برفعه، وأنه حي في السماء، وأنه ينزل، ويقتل الدجال.^(٥) وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: " وإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِّلسَّاعَةِ " قال: " هو خروج عيسى بن مريم ﷺ قبل يوم القيامة".^(٦) واستدل أصحاب هذا القول أيضاً: بأن الوفاة الواردة في الآية لو كان معناها الموت على الحقيقة لحصل لعيسى ﷺ ميتتان، وهذا يعارض قوله تعالى في سورة الروم: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾^(٧) هذا وقد صرحت الأحاديث النبوية الشريفة الكثيرة بأنه سينزل قبل قيام الساعة، ويقتل الدجال، ويكسر الصليب، ولا يبقى أحد من كفار أهل الكتاب إلا ويؤمن به الإيمان الصحيح بأنه عبد الله ورسوله، وقد بلغت الأحاديث التي أخبرت

(١) شلتوت محمود، الفتاوى (ص ٦٠-٦١ بعدها)، دار الشروق القاهرة، (الطبعة الثامنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

(٢) الطبري، جامع البيان (٣/٢٩١).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٤٢).

(٤) للطبري، جامع البيان (٣/٢٩١).

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٤٢).

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/١٣٢).

(٧) سورة الروم: الآية ٤٠.

عن نزوله حد التواتر لكثرتها، وهذه الأحاديث المتواترة كلها في الحقيقة تفسير لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾^(١) كما صرح به المفسرون قاطبة بتصريحهم وإخراجهم هذه الأحاديث تحت هذه الآية، ولتتصيص ألفاظ الروايات على ذلك، ولا سيما حديث أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً، حيث قال فيه بعد ذكر نزول عيسى ابن مريم ﷺ مؤكداً بالقسم: وقرأوا إن شئتم "وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ" استشهداً على النزول، وحينئذ نقول: إن نزول عيسى ﷺ ثبت بنص القرآن، وتفسيره من الأحاديث المتواترة.^(٢) من ذلك ما رواه الشيخان واللفظ للبخاري: "والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنازير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها".^(٣) وغيره العشرات من الأحاديث التي حشدها المحدث الهندي أنور شاه الكشميري في كتابه القيم.

- انحراف النصارى في عيسى:

إن الحديث عن عيسى ﷺ عند النصارى إنما هو حديث عن أساس عقيدتهم التي دارت كلها حول شخصيته ﷺ، ولقد دار حول هذه القضية جدل قديم، وانعقدت بسببها عدة مجامع، ودارت حولها بحوث وخرافات كثيرة، مع أن عيسى ﷺ عاش بين تلامذته، وحوارييه نبياً كغيره من إخوانه الأنبياء عليهم السلام يأكل ويشرب، ويكابد مع أتباعه الشدائد في سبيل دعوته، وما

(١) سورة النساء: الآية ١٥٩.

(٢) للكشميري الهندي، محمد أنور شاه، التصريح بما تواتر في نزول المسيح (ص ٨٦- فما بعدها)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار القلم، بيروت، (الطبعة الخامسة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

(٣) أخرجه الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام برقم: ٣٤٤٨، نظر: ابن حجر، فتح الباري (٦/٦٠٧)، وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان باب: بيان نزول عيسى ابن مريم حكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، نظر: النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (١٨٩/٢).

عرف هؤلاء التلاميذ غير ذلك، فالأمر في البداية لم يكن على النحو الذي نراه في عقيدة النصارى الشركية المنحرفة!^(١)

ونستطيع القول: إن بولس ذلك الرجل اليهودي الذي كان يضطهد النصارى في بداية أمره، ثم تظاهر بالتحول إلى النصرانية، والعمل من أجل نشرها، هو أول من أدخل القول بالوهية المسيح، والقول بالتثليث، والصلب، وقد أثبت كثير من العلماء المنصفين أن عقائد النصارى قد اقتبست من الوثنيات القديمة كما فرضها عليهم قسطنطين، وقد استطاع بولس اليهودي أن ينشئ للنصارى عقيدة جديدة لا تمت لعقيدة السيد المسيح بصلة.^(٢) وقد ذكر القرآن الكريم عقائد النصارى في عيسى ﷺ مفصلة، وبين أنهم فرق عديدة: فمنهم من يعتقد بالوهية المسيح، وأن الله تعالى تجسّم، وتجسّد في صورة يسوع ونزل إلى الأرض ليخلص الناس من آثامهم والعياذ بالله ومنهم من يؤمن بعقيدة التثليث (الأقانيم الثلاثة) الأب، والابن، وروح القدس، وأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة! ومنهم من يعتقد بأن المسيح هو ابن الله لأنه خلق من روحه^(٣) ﴿تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً﴾^(٤)، ومع أن النصارى يؤمنون بالأقانيم الثلاثة، إلا أنهم يعظمون الأَقنوم الثاني (أَقنوم الابن) أكثر من غيره، وتدور حوله معظم معتقداتهم، وإن فكرة تأليه الابن هي التي بنيت عليها فكرة الأقانيم الثلاثة، ولعل السبب الرئيس لفكرة الوهية الابن عند النصارى هي فكرة الخطيئة الموروثة، ومحبة الله تعالى للإنسان، أن (آدم ﷺ) ارتكب الخطيئة بأكله من الشجرة فبقي الذنب على ذريته من بعده - بزعمهم الباطل - وأن محبة الله لهذا الإنسان شاعت أن تخلصه من أرجاس هذه الخطيئة، فأرسل ابنه الوحيد المسيح

(١) الحاج، الدكتور: محمد أحمد، النصرانية من التوحيد إلى التثليث (ص ٩٩)، دار للقلم، دمشق، والدور الشامية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).

(٢) شاهين، الدكتور: مصطفى، النصرانية تاريخاً وعقيدة، وكتباً ومذاهب، دراسة وتحليل ومناقشة (ص ٢٠٧) (دار الاعتصام، القاهرة)، والحاج، محمد أحمد، النصرانية (ص ١٤٢ - فما بعدها).

(٣) الصابوني، النبوة والأنبياء (ص ٢٠٩).

(٤) سورة الإسراء: الآية ٤٣.

لهذا الإنسان شاعت أن تخلصه من أرجاس هذه الخطيئة، فأرسل ابنه الوحيد المسيح ليحتمل عناء الألم والصلب، وبذلك يكون قد فداهم بنفسه! يقول رمسيس ونيس، في كتابه: هل الله موجود؟ (أنّ المسيحية لا تؤلّه إنساناً، ولا تتادي بإنسان اسمه " يسوع" صار إلهاً، لكنها تتادي بأنّ الله في حبه للإنسان تنازل فأخذ صورة إنسان، لكي يفدي الإنسان من قبضة ودينونة إبليس!).^(١) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وجاء في كتاب قصص الأنبياء ما نصّه: (أما جماعة النصارى فقد خلقوا لهم عقيدة هي أنّ الله مركب من ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس، وهذه كلها واحد، فأنحدر الله الذي هو الأب أو الابن - على اختلاف أقوالهم - وحلّ في مريم، وتجسّد إنساناً وولد منها وهو (يسوع)، إلى آخر ما يقولون، وهذا الكلام لم يقله المسيح ولم يعلم به، ولكنّ النصارى أذاعوا النصرانية بين الوثنيين، الذين كانوا يدينون بالأقانيم وتجسّد الآلهة، والصلب، والفداء، ودخلوا في الديانة الجديدة حاملين تلك العقيدة، وأحبوا أن يوقفوا بين ما ألفوه من عقيدة، وبين هذا الدين الجديد، ثم أخذوا يؤلّهون المسيح ويقولون: إنّ الله انحدر منه (أقنوم الابن) المتّحد مع (الأب) و(الروح القدس) ثم تجسّد في (رحم مريم)، ثم خرج إنساناً إلهاً)^(٢) والعياذ بالله!

الآيات الكريمة التي ذكرت انحراف النصارى:

قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً، والله ملك السموات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء، والله على كل شيء قدير﴾^(٣)

(١) الحاج، د. محمد، النصرانية (ص ٢٢٧).

(٢) للنجار، قصص الأنبياء (ص ٤٥٤).

(٣) سورة المائدة: الآية ١٧.

متى اختلق النصارى فكرة تأليه المسيح ﷺ

قبل الشروع في تفسير هذه الآية الكريمة لا بدّ من تحديد الفترة التي تمّ فيها تأليه السيد المسيح من خلال لمحة تاريخية موجزة، فنقول وبالله التوفيق: لقد اشتهر الاختلاف بين طوائف النصارى الأولى لدرجة لا يمكن معها الوفاق، وكان الاختلاف يدور حول شخصية المسيح ﷺ هل هو رسول من عند الله فقط، أم له بالله صلة خاصة، فهو من الله بمنزلة الابن لأنه خلق من غير أب.^(١) وكان على رأس القائلين بأن عيسى ﷺ مخلوق هو آريوس، وذلك في القرن الرابع الميلادي، وكانت كنيسة أسبوط تتبنى هذا الرأي، وكان لآريوس أنصاره وأشباعه في الإسكندرية وفلسطين ومقدونية والقسطنطينية، أما القول بألوهية المسيح فقد تبنته كنيسة الإسكندرية، وهو قول بولس وهو أول من قال ذلك وكانت كنيسة الإسكندرية تحارب آريوس وحركته فتدخل قسطنطين امبراطور الرومان آنذاك محاولاً التوفيق بين آريوس، وبطريق الإسكندرية بعد جمعها إلاً أنه فشل في ذلك، فعهد قسطنطين إلى جمع البطارقة والأساقفة من مختلف البلاد، في مدينة نيقية سنة ٣٢٥م فيما سمي بعد (بمجمع نيقية) فاجتمع ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وكانوا مختلفين في الآراء فمنهم من كان يقول: إنّ المسيح إله وأن مريم إله كذلك من دون الله، ويسمّون المريميين، ومنهم من كان يقول: إنّ المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، ومنهم من كان يقول: لم تحبل مريم تسعة شهور وإنما مرّ نور في بطنها كما يمرّ الماء في الميزاب، لأنّ الكلمة دخلت أنّها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، ومنهم من كان يقول: إنّ المسيح إنسان خلق من اللاهوت، وإن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهي مقالة بولس ومقالة ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، وهذا القول

(١) ليو زهرة، محاضرات في النصرانية (ص ١٢٥).

هو الذي استحسنه قسطنطين، وجمع له الأساقفة الثلاثمائة وثمانية عشر في مجلس خاص بهم في نفس السنة وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي، لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين، وصلاح المؤمنين، عندها وضع الأساقفة المجتمعين لقسطنطين أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع. ^(١) وهكذا انقضى مجمع نيقية، بعد تبيّنه لأخطر معتقد عند النصارى، وهو القول بألوهية المسيح، ومحاربة كل من خالف هذه العقيدة!

لقد نّم الله تعالى النصارى وأقسم على كفرهم وضلالهم حين ألّها عيسى ابن مريم بينما لم يكن جميع النصارى متفقين على هذه العقيدة فإن فرق النصارى في هذا العصر كما يقول الشيخ محمد عبده تقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن المسيح ابن مريم هو الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ^(٢) وقال الإمام ابن القيم مستخفاً بعقول القائلين بألوهية المسيح متهماً بهم: (قالوا والذي ولدته مريم وعابنه الناس وكان بينهم هو الله، وهو كلمة الله، فالتقديم الأزلي خالق السماوات والأرض هو الذي حبلى به مريم، وأقام هناك تسعة أشهر، وهو الذي ولد ورضع وطم وأكل وشرب، وتغوط، وأخذ، وصلب وشدّ بالحبال، وسمرت يداه). ^(٣) وقد جاء الردّ عليهم في الآية نفسها: قال تعالى: ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ ؟ وهذا الاستفهام للتوبيخ والتفريع، والملك هو الضبط والحفظ والقدرة، من قولهم: ملكت على فلان أمره، أي قدرت عليه. ^(٤) والمعنى: قل يا محمد للنصارى الذين افتروا على الله الكذب، وزعموا أن الله هو المسيح ابن مريم: من يملك أو يقدر أن يردّ من أمر الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم بإعدامه من الأرض أو

^(١) ابن القيم، هداية الحيارى، (ص ٥٥٤-٥٥٦)، وأبو زهرة، محضرات في النصرانية (ص ١٢٦-١٢٩).

^(٢) رضا، تفسير المنار، (٣٠٨/٦).

^(٣) ابن القيم، هداية الحيارى (ص ٥٢٢).

^(٤) الشوكاني، فتح القدير، (٢٤/٢).

إعدام أمّه أو إعدام جميع من في الأرض من الخلق. ^(١) ١؟ والإهلاك: هو الإمامة والإعدام مطلقاً، لا عن سخطٍ وغضب. ^(٢) فلو كان المسيح هو الله كما يزعمون - وليس كذلك - لقدر على ردّ أمر إذا جاء بإهلاكه، أو إهلاك أمّه، وقد أهلك الله أمّه فلم يقدر على دفع أمر الله فيها، وهذا يدلّ على أنه بشر كسائر البشر يجري عليه أمر الله كغيره من بني آدم! قال تعالى: ﴿والله ملك السموات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء، وهو على كل شيء قدير﴾. وهذه الجملة من الآية الكريمة مؤكدة لقوله تعالى: ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه﴾ فالمسيح وأمّه من جملة ما في الأرض، مهما مقهوران لله تعالى ومملوكان له، ومن كان له الملك: فإنه يفعل في ملكه ما يشاء. ^(٣) وقوله تعالى: "يخلق ما يشاء" جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه وتعالى خالق الخلق بحسب مشيئته، وأنه يقدر على كل شيء ولا يستصعب عليه شيء. ^(٤) فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، وتارة لا من الأب ولا الأم كما في خلق آدم ﷺ، وتارة من الأم لا من الأب كما في خلق عيسى ﷺ. ^(٥) وتارة من الذكر لا من الأنثى كما في خلق حواء (عليها السلام). وقال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إني من شركاء بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار، وما للظالمين من أنصار﴾ ^(٦) قال العلامة أبو السعود: (هذا شروع في تفصيل قبائح النصارى، وإبطال أقوالهم الفاسدة، بعد تفصيل قبائح اليهود، وهؤلاء الذين قالوا: إن مريم ولدت إليها هم "اليقوبية" زعموا أن الله تعالى حلّ في ذات عيسى واتّحد به، (تعالى الله عن ذلك

(١) للطبري، جامع البيان (١٦٣/٦).

(٢) الأوسى، روح المعاني (١٤٦/٤).

(٣) أبو حيان، البحر المحيط (٢١١/٤).

(٤) للشوكاني، فتح القدير (٢٤/٢).

(٥) للرزقي، التفسير الكبير (٣٢٨/٤).

(٦) سورة المائدة: الآية ٧٢.

علواً كبيراً).^(١) ففي هذه الآية الكريمة أبطل الله تعالى قول النصارى: إن الله هو المسيح ابن مريم، فقد أبطله على لسان المسيح نفسه، حين قال لبني إسرائيل في حال كهولته ونبوته: أن يعبدوا الله ربّه وربّهم وربّ جميع الخلق، قال الإمام ابن كثير: (كان أول كلمة نطق بها وهو صغير أن قال: "إني عبد الله"^(٢) ولم يقل إني أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: "إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً"^(٣) فإذا كان عيسى إلهاً، فكيف يدعو نفسه أو يسألها؟ هذا هو عين المحال! ففي قول عيسى ﷺ هذا تكذيب لبني إسرائيل، لأن المسيح الذي يزعمون أنهم آمنوا به، ونسبوه إلى الألوهية قد قال إنه عبد الله ورسوله.^(٤) ونلاحظ أن الآية الكريمة ختمت بتوعد أولئك المشركين القائلين بالألوهية المسيح بنار جهنم، وأن دخول الجنة محرّم عليهم، حيث إن الجنة دار الموحدين المؤمنين لا المشركين الكافرين وتأمل في المشهد المهيّب من مشاهد يوم القيامة حيث تجري فيه المواجهة الكبرى بين عيسى ﷺ مع الذين غلوا فيه فعبدوه من دون الله تعالى، ورفعوه بزعمهم الباطل عن مقام عبوديته لله سبحانه إلى مقام الألوهية، واستحقاق العبادة، وتبدأ المواجهة باستجواب الخالق تبارك وتعالى عيسى ﷺ.^(٥) بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَبِعَذَابِكَ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَبِعَذَابِكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٣٠٤/٢).

(٢) سورة مريم: آية ٣٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨١/٢).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦١/٦)، وابن عاشور التحرير والتنوير (٢٨٠/٤).

(٥) قطب، الظلال (٩٩٧/٢ - فما بعدها).

صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم، ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم* لله ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير^(١) ونلاحظ أن هناك اتصالاً وثيقاً بين هذه الآيات والتي قبلها قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾^(٢) ومعلوم أن الخطاب في الآيات للنبي ﷺ، والمعنى: أنكر أيها النبي الرسول الكريم للناس، يوم يجمع الله الرسل فيسألهم جميعاً عما أجابتهم به أمهم، وإذ يقول الله لعيسى: ﴿أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾^(٣)؟ وقد اختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال، وليس هو باستفهام إذ لا يليق بعلام الغيوب، وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين: أحدهما: أن الله تعالى سأل عيسى ﷺ عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه، ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشد في تفرغ وتوبيخ من أهوه، فهو استفهام على سبيل الإنكار، كما جرى في العرف بين الناس أن من ادعى على غيره قولاً فيقال له: أنت قلت هذا القول؟ ليقول لا فيكون ذلك استعظماً لذلك القول وتكذيباً لقائله.^(٤) والثاني: أنه قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيروا بعده وادعوا عليه ما لم يقله.^(٥)

وقت صدور هذه المقالة:

وقد اختلف في وقت صدور هذه المقالة، فقيل: كان ذلك: حين رفعه إلى السماء، وقالت النصراني فيه ما قالت، واختار هذا القول الإمام الطبري، واحتج لذلك بما يلي:

١. تستخدم "إذ" في كلام العرب بمعنى لما مضى، وقد تدخل أحياناً في موضع الخير عما يحدث في المستقبل إذا عرف السامعون معناها، لكن هذا الاستعمال غير منتشر ولا فصيح في لغة

(١) سورة المائدة: الآيات (١١٦-١٢٠).

(٢) سورة المائدة: الآية ١٠٩.

(٣) رضا، تفسير المنار (٧/ ٢٦١).

(٤) الرزقي، التفسير الكبير (٤/ ٤٦٥)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٤١).

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٤١).

العرب، وبالتالي فإن توجيه معاني كلام الله تعالى إلى الأشهر الأغلب - ما وُجد إليه سبيلاً - أولى من توجيهها إلى الأجهل الأنكر.

٢. إنَّ عيسى ﷺ لم يشكَّ - هو ولا أحد من الأنبياء - أنَّ الله تعالى لا يغفر لمشرك مات على شركه، فلا يجوز أن يتوهم أحد أنَّ عيسى ﷺ يقول يوم القيامة مجيباً لربه: إنَّ تعذب من أشرك بك فإنهم عبادك، وإنَّ تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.^(١)

وقال أكثر المفسرين: إنَّما يقول الله تعالى ذلك لعيسى ﷺ يوم القيامة.^(٢) واستدلوا لذلك: بوقوع التجوُّز في استعمال (إذ) بمعنى إذا، والماضي بعده بمعنى المستقبل.^(٣) وعلى هذا تكون "إذ" هنا (كإذ) في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ فرعوا﴾^(٤) أي إذا فرعوا، فهذا واقع في القرآن وفي لغة العرب، واستدلوا كذلك: بسياق الآيات، فما قبلها يدلُّ على ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرُّسُل﴾ أي: يوم القيامة، وما بعده يدلُّ عليه كذلك قال تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ ، وهذا اليوم هو يوم القيامة بإجماع المفسرين.^(٥) وقد أشكل على العلماء في الآية أمرٌ آخر وهو: أنه لا يعلم أحد من النصارى اتخذ مريم عليها السلام إلهاً من دون الله وأجيب عن ذلك بأجوبة منها:

الأول: أنَّ النصارى لما جعلوا عيسى ﷺ إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً كذلك، لأنَّ الولد من جنس من يلد، فنكر "إلهين" على طريق الإلزام لهم.

(١) الطبري، جامع البيان (١٣٨/٧).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤١/٦).

(٣) أبو حيان، البحر المحيط (٤١٦/٤).

(٤) سورة سبأ: الآية ٥١.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤١ / ٦).

الثاني: أنهم لما عظموها تعظيم الإله، أطلق عليها اسم الإله، كما أطلق اسم الربّ على الأبحار والرهبان في قولسه تعالى: ﴿ اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾^(١) وذلك لما أطاعوهم وعظموهم تعظيم الربّ وأحلّوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم!

الثالث: يُحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك، ويعضد هذا القول: ما حكى عن بعض النصارى أنه كان فيما مضى قوم يقال لهم: (المريمية) يعتقدون في مريم أنها إله، وهذا كما كان في اليهود قوم يعتقدون أنّ عزيزاً ابن الله، ورجح الإمام الألويسي هذا الوجه.^(٢)

وبعد هذا السؤال الإنكاري الموجّه لعيسى ﷺ من قبل المولى عز وجل يبادر السيّد المسيح بالجواب، لكنّه يبدأ بالتسبيح قبل الإجابة، وذلك لتزويه الله عمّا أضيف إليه من الشرك وخضوعاً لعزته، وخوفاً من سطوته.^(٣) ومعنى "سبحاتك" أي: تتزيهاً لك، قال ابن عطية: (من أن يقال لك هذا أو ينطق به).^(٤)

وقال الزمخشري: (من أن يكون لك شريك)^(٥) والظاهر: الأول لقوله بعده: "ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق"^(٦) ولم يأت الجواب من عيسى ﷺ: بقلت أو لم أقل، وإنما قال: "ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق"، فهذا القول ليس بحق، أي ليس من شأنى ولا ممّا يصح وقوعه منى، أن أقول قولاً ليس لي أدنى حق أن أقوله، لأنك أيدتني بالعصمة من مثل هذا الباطل! ولا يخفى أنّ هذا الكلام أبلغ في البراءة من نفي ذلك القول وإنكاره إنكاراً مجرداً، لأنّ نفي الشأن يستلزم نفي الفعل نفياً مؤيداً بالدليل، فهو بتزويه الله تعالى، أولاً: أثبت أن ذلك القول

(١) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٢) الألويسي، روح المعاني (٩٤/٥).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٢/٦).

(٤) أبو حيان، البحر المحيط (٤١٦/٤).

(٥) الزمخشري، الكشاف (٧٢٦/١).

(٦) أبو حيان، البحر المحيط (٤١٦/٤).

الذي سئل عنه، - تمهيداً لإقامة الحجة على المشركين - قول باطل ثم قف على ذلك: بأنه ليس من شأنه ولا مما يقع من مثله أن يقول ما ليس له بحق، فنتيجة هاتين المقدمتين أنه لم يقل ذلك القول، ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرى فاطعة على سبيل الترقى من البرهان الأدنى الراجع إلى نفسه، وهو عصمته ﷺ إلى البرهان الأعلى الراجع إلى ربه العلام. (١) فقال: "إن كنت قلتة فقد علمته" وهذا القول غاية في الأدب، وفي إظهار النذل والمسكنة في حضرة الجلال وتفويض الأمور بالكلية إلى الحق سبحانه. (٢) قال تعالى: "تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب" يقول تعالى ذكره مخبراً عن نبيه عيسى ﷺ: إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته في نفسي مما لم أنطق به، ولم أظهره بجوارحي، فكيف بما قد نطقت به وأظهرته بجوارحي، فلو كنت قد قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، كنت قد علمته، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تتطرق به، فكيف بما قد نطقت به، ولا أعلم أنا ما أخفيته عني، فلم تطلعني عليه، لأنني إنما أعلم من الأشياء ما أعلمتني، إنك أنت علام الغيوب، أي: (العالم بخفايا الأمور، التي لا يطلع عليها سواك ولا يعلمها غيرك. (٣) ثم شرع عيسى ﷺ في بيان حقيقة دعوته التي أرسله الله بها، وحقيقة ما قاله للناس كما قال تعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت شهيداً عليهم ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ (٤) يقول عيسى ﷺ: ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به من القول أن أقوله لهم، وهو أن يعبدوا الله ربي وربهم، ورب جميع الخلق، وكنت شاهداً على أقوالهم وأفعالهم وأنا بين أظهرهم، فلما قبضتني إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دوني، لأنني إنما شهدت من أعمالهم ما

(١) رضا، تفسير المنار (٧/٢٦٤- فما بعدها).

(٢) الرزقي، للتفسير الكبير (٤/٤٦٦).

(٣) الطبري، جامع البيان (٧/١٣٨-١٣٩).

(٤) سورة المائدة: الآية ١١٧.

عملوه، وأنا بين أظهرهم، وفي هذا بيان أن الله تعالى إنما عرفه أفعال القوم ومقاتلتهم بعد ما قبضه إليه، وأنت تشهد على كل شيء لأنه لا تخفى عليك خافية. (١) وبعد هذه البراءة من أولئك المشركين، يفوض عيسى ﷺ أمر الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، إلى الله الواحد الأحد العزيز الحكيم فيقول: "إن تعذبهم فإنهم عبادك" فعذابهم عدل من الله سبحانه، لأنهم عبدوا غيره ووصفوه بصفات لا تليق بكماله ووحدانيته، "وإن تغفر لهم فبأنك أنت العزيز الحكيم" أي: القوي الذي لا يُغلب، والحكيم الذي لا يريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمة، فعذابه سبحانه عدل، ومغفرته فضل، إلا أنه عز وجل لا يغفر للكافرين والمشركين، لمقتضى الوعيد الذي تعلق به مشيئته. (٢) ولما كان المراد من السؤال الذي أجيب عنه بهذا الجواب، هو إقامة الحجة التي يظهر بها عدل الله تعالى يوم القيامة، فيما يجزي به من اتخذ عيسى ﷺ وأمه إلهين من دون الله، فوض أمر الجزاء إليه تعالى بحسب ما تقتضيه مشيئته تعالى وصفاته. (٣)

قال الإمام ابن كثير: (هذا الكلام يتضمن ردّ المشيئة إلى الله عز وجل فإنه سبحانه الفعّال لما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التبرّي من النصارى الذين كذبوا على الله ورسوله، وجعلوا لله نداً، وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبا عجيب، فقد ورد في الحديث: أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددّها" (٤)

فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي نرّ رضي الله عنه قال: صلّى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بأية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها "إن تعذبهم فبأنهم عبادك وإن تغفر لهم فبأنك أنت

(١) المرجع السابق، (١٣٩/٧).

(٢) طهماز، الحلال والحرام في سورة المائدة (ص ١٣٠).

(٣) رضا، تفسير المنار (٢٦٨/٧).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢١/٢).

العزیز الحکیم" ، فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيتها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً^(١) ومعنى قوله تعالى: "قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم": يقول الله تعالى ذلك مجيباً عبده ورسوله عيسى ﷺ: إن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم الله به يوم القيامة، وتوحيد الله وتنزيهه عن الشرك والصاحبة والولد أعظم الحقائق صدقاً، من هنا ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى: "ينفع الصادقين صدقهم" أي ينفع الموحدين توحيدهم، وهي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه.^(٢) ثم بين الله تعالى ذلك النفع بقوله:

"هم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم" فلا أعظم من هذا الفوز.^(٣) ثم تُختم هذه الآيات بل السورة كلها بما يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدر، وينيب إليه الرُّسل، ويفوضون إليه الأمر كله، ويفوض فيه عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير.^(٤)

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم: ٢١٣٦٦ (١٤٩/٥).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٢/٢).

(٣) طهماز، الحلال والحرام في سورة المائدة (ص ١٣١).

(٤) قطب، الظلال (١٠٠٢/٢).

الردّ على من قال بالتثليث:

هناك فريق من النصارى يعتقدون بأن الله ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلاّ إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾^(١) يعزّز النصارى عن عقيدة التثليث: بالأقانيم الثلاثة، قال الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدّس: (طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم^(٢) متساوية: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس، فالإب ينتمي الخلق بوساطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير.^(٣) ورغم اختلاف النصارى في دينهم أشد الاختلاف، إلاّ أنهم جميعاً يتفقون على القول بالتثليث، ويعتبرونه أساساً للديانة النصرانية.^(٤) والحقيقة الساطعة أنّ النصارى أنفسهم لا يعلمون حقيقة عقيدة التثليث ولا يعرفون كنهها ومعناها، فهم علاوة على اختلاف فرقهم في هذا الموضوع، فإنهم لا يدركون هذه العقيدة، واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد.^(٥) لأنها تصطدم مع العقل البشري، ولا يستطيع أحد هضمها أو إدراكها، بالإضافة إلى أنها لا تجد لها سنداً من الوحي أو من النصوص الأصلية المنزلة، ومع ذلك فإنهم يؤمنون بها تقليداً لما ورثوه عن آبائهم، ولا يسمحون لعقولهم بالتعمق في كنهها! ينقل الدكتور محمد الحاج عن صاحب كتاب تاريخ الاقباط قوله: (وهذه حقيقة تفوق الإدراك البشري الذي لا يفهم إلاّ أنّ الطبيعة الواحدة إنّما تتضمن أقنوماً واحداً، أي ذاتاً واحدة،

(١) سورة المائدة: الآية ٧٣.

(٢) الأقانيم: كلمة سريانية الأصل مفردتها أقنوم، وهو الشخص الكائن المستقل بذاته. (الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث (ص ٢٠٩).

(٣) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية (١٠٢).

(٤) أبو عويمر، مجدي بن عبد الله حسن، منهج ابن القيم في دراسة عقائد اليهود، مجلة الحكمة، العدد العشرون (ص ٣١٧).

(٥) الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (ص ٥٠٤). الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

وأن تعدد الأقانيم أو الذات إنما يستوجب تعدد الطبايع)، والنصارى أنفسهم يعترفون بعدم قبول العقل عقيدة التثليث! يقول القس توفيق جيد في كتابه سرّ الأزل: (إنّ الثالوث سرّ يصعب فهمه وإدراكه، وإنّ من يحاول إدراك سرّ الثالوث تمام الإدراك فإنه كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفة).^(١) بعد ذلك نقول: إذا كان علماؤهم لم - ولن - يستطيعوا إدراك حقيقة الثالوث، فكيف بعامةهم؟! وإذا كان لا بدّ لأي إنسان أن يفهم عقيدته حتى يعبد الله على بصيرة، فإذا كان دينه معقداً لا يمكن فهمه، فكيف له أن يعبد الله؟ بل كيف له أن يلبي نداء الفطرة عن طريق التدبّر الصحيح؟^(٢) وإذا أردنا أن نحدّد تاريخ نشأة عقيدة التثليث عند النصارى نقول: إنها تبلورت عندهم في القرن الرابع الميلادي، فقد وضع أساسها مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، وأكمل مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م بناءها.^(٣) يقول الإمام ابن القيم: (أفليس هو الدين الذي أسسه أصحاب المجامع المتلاعنين على أن الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد؟ فيا عجباً كيف يرضى العاقل أن يكون هذا مبلغ عقله، ومنتهى علمه؟!)^(٤) وما يسمّى بالكتاب المقدّس (بعهديه القديم والجديد) لا يشتمل على لفظ الثالوث أو الأقانيم الثلاثة، بل على العكس من ذلك إنّ بعض نصوصه تصرّح بوحداية الله سبحانه وتعالى، رغم ما طرأ على العهدين القديم والجديد من تحريف.^(٥) ومن هذه النصوص: الوصية الجامعة ليعقوب عليه السلام، والتي يقرّر الله فيها وحدانيته، ويأمر إسرائيل أن يعلمها لأبنائه وأن يجعلها شعاره الدائم فيقول: (اسمع يا إسرائيل، الربّ إلهنا ربّ واحد، فتحبّ الربّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك ومن كل قوتك، ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك، وقصّها على أولادك، وتكلّم بها حين تجلس في بيتك، وحين تمشي في الطريق،

(١) انظر كتاب: الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث (ص ٢٠٩).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٠٨).

(٣) المرجع السابق (٢١٩).

(٤) ابن القيم، إغاثة اللهفان (ص ٦٤٢).

(٥) الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث (ص ٢١٩).

وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامات على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك، وعلى أبوابك).^(١) وفي العهد الجديد: ورد في إنجيل مرقس أنه جاء أحد الكتبة يسأل عيسى عن أول وصية في الناموس؟ فأجابه يسوع: (إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد).^(٢) وقد أثبت المحققون من العلماء أن عقيدة التثليث وغيرها من تعاليم النصرانية مأخوذة من الوثنيات القديمة وخاصة الهندوسية، حيث عرفوا التثليث في (براهما، فشنوا، سيفا) وهي ثلاثة في واحد! وهي كذلك عند المصريين القدماء، وعند اليونانيين.^(٣) وقد عقد الأستاذ (أحمد شلبي) مقارنة بين العقائد الوثنية، وعقائد النصرانية الحاضرة، وأوضح عناصر التشابه بين قصة محاكمة (بعل) معبود البابليين، وقصة محاكمة عيسى ﷺ، قارن بين حياة (بوذا) وحياة المسيح ﷺ. ^(٤) فكان موقفاً في ذلك.

الآيات الكريمة التي أبطلت عقيدة التثليث عند النصارى:

وبعد هذا الاستطراد الذي لا بد منه، فإننا نعود إلى الآيات الكريمة التي نكرت هذه العقيدة المنحرفة ثم كررت عليها بالإبطال والتديد. من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كناها يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنا يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً، والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا

(١) سفر التثنية (٦/٤-٩).

(٢) إنجيل مرقس (١٢/٢٩).

(٣) شاهين، النصرانية تاريخاً وعقيدة ... (ص ٢٢٤)، وانظر: الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث (ص ٩٦- فما بعدها).

(٤) انظر: شلبي، مقارنة الأديان المسيحية (ص ١٥٣-١٥٩).

من قبل، وأضلّوا كثيراً، وضلّوا عن سواء السبيل^(١) ففي هذه الآيات الكريمة يبطال لعقيدة التثليث التي اعتنقها النصارى، وبيان لضلالتهم وكفرهم. وقد ذكر الإمام الرازي أن معنى: "ثالث ثلاثة" أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، واستدلّ هؤلاء العلماء بقوله تعالى: "أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي، إلهين من دون الله؟" فقوله تعالى: "ثالث ثلاثة" أي أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، قال تعالى في الردّ عليهم: "وما من إله إلا إله واحد" وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار إلا أنه حذف ذكر الآلهة لأن ذلك معلوم من مذاهبيهم.^(٢)

وقد نقل الإمام الرازي عن المتكلمين قولهم: إن النصارى يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم أب، وابن، وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، والابن الكلمة، وبالروح الحياة! وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمرة والماء باللبن، وزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد.^(٣) ثم قال الرازي تعقيباً على ذلك: (وأعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشدّ فساداً أو أظهر بطلاناً من مقالة النصارى!)^(٤) نعم لقد أكنّبهم الله تعالى فيما قالوه، مبيّناً للناس أنه ما من معبود إلا معبود واحد، وهو الذي ليس بوالد لشيء ولا مولود، بل هو خالق كل والد ومولود.^(٥) "وما من إله إلا إله واحد" و(من) هنا إما أنها تفيد الاستغراق، والمعنى: وما إله قطّ في الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثاني له، وهو الله وحده لا شريك له، وإما أنها صلّة

(١) سورة المائدة: الآيات (٧٢-٧٧).

(٢) الرازي، التفسير الكبير (٤/٤٠٨).

(٣) الرازي التفسير الكبير (٤/٤٠٨- فما بعدها).

(٤) للمصدر السابق (٤/٤٠٩).

(٥) الطبري، جامع البيان (٦/٣١٣).

زائدة: والتقدير: وما إله إلا واحد. (١) وقوله: "إلا إله واحد" يفيد حصر وصف الإلهية في واحد، فانتفى التثليث المحكي عنهم، وأما تعيين هذا الواحد من هو، فليس مقصوداً تعيينه هنا، لأن القصد إبطال عقيدة التثليث فإذا بطل التثليث، وثبتت الوجدانية لله، تعين أن هذا الواحد هو الله تعالى، لأنه متفق على إلهيته، فلما بطلت إلهية غيره معه تحضت الإلهية له. (٢) ثم توعدهم الله سبحانه إن لم يتوبوا وينتهوا عن مقالاتهم ليمسّن الذين يقولون منهم بالتثليث عذاب أليم، وأكد الله تعالى الوعيد بلام القسم في قوله: "ليمسّن": رداً على اعتقادهم أنهم لا تمسّم النار لاعتقادهم أن صلب عيسى كان كفارة عن خطايا بني آدم! (٣) ويشمل الوعيد كذلك: الفريق الآخر من النصارى الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة لهذه الآيات، وهم الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم فالوعيد بالعذاب راجع إلى العموم لأن كلاً من الفريقين كفره فجرة، ولو قال الله تعالى: ليمسّنهم عذاب أليم لاقتصر الوعيد على القائلين إن الله ثالث ثلاثة. (٤) ومع عظيم جرم الفريقين وشناعة قولهم، إلا أن الله تعالى لم يغلق أمامهم باب التوبة من الشرك والرجوع إلى التوحيد، فأبواب رحمته سبحانه مفتوحة لخلقه دائماً، قال تعالى: "أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم" قال الإمام ابن كثير: (وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه ومع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك فإنه يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه) (٥) ثم شرعت الآيات الكريمة في صراحة تامة في بيان حقيقة المسيح ﷺ وحقيقة أمه، بقوله تعالى: "ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسُلُ"، فهو عبد الله ورسوله شأنه في هذا كشأن جميع الرُّسُل الذين سبقوه، وأمه صديقة: فهي امرأة كسائر النساء، إلا أنها

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٦٩٧)، والرازي، التفسير الكبير (٤/٤٠٩).

(٢) ابن عسور، التحرير والتتوير (٤/٢٨٣).

(٣) ابن عسور، التحرير والتتوير (٤/٢٨٣-٢٨٤).

(٤) الطبري، جامع البيان (٦/٣١٤).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٨١).

بالغث بالصدق والتصديق بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رُسُلِهِ، ولهذا قال سبحانه في شأنها: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾^(١) وتأكيداً لعبودية عيسى وأمه لله تعالى وصفهما الحق سبحانه بقوله: «كانا يأكلان الطعام» فهما كباقي البشر يحتاجان إلى الطعام.^(٢) ويأكلانه، كما يحتاجان إلى طرح فضلاته، وهذا يتنافى تماماً مع كمال الألوهية وعزتها وغناها.

الكشف عن فساد قول النصارى:

وأعظم استدلال على فساد قول النصارى من وجوه:

الأول: إن كلَّ من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً لا إلهاً، والثاني: أنهما كانا محتاجين، وخاصة إلى الطعام، أشدَّ الحاجة، والإله الحق: هو الذي يكون غنياً عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهاً^(٣) وبهذا تظهر حقيقة عيسى ابن مريم وحقيقة أمه واضحة جليّة لا لبس فيها ولا غموض ومع كل هذا البيان والوضوح ترى هؤلاء ينصرفون عن الحق؟! انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يوفكون^(٤) يقال: أفكه يافكه إفكاً إذا صرفه، وقَلَبَهُ. ^(٥) والإفك الكذب لأنه صرفٌ عن الحق، وكل مصروف عن الشيء مأفوك عنه، والمعنى: أنى يصرفون، وأين يذهبون، وبأي قول يتمسكون وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون. ^(٥) ثم جاءت الآية التالية بدليل آخر على فساد قول النصارى وبطلانه هو قوله تعالى: ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يمكلكم ضراً ولا نفعاً، والله هو السميع العليم﴾^(٦) إنه لمن

^(١) سورة التحريم: الآية ١٢.

^(٢) طهماز، الحلال والحرام في سورة المائدة (ص ٩١).

^(٣) الرزقي، التفسير الكبير (٤/٤٠٩).

^(٤) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة لفك (ص ٨٣٨)، دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

^(٥) الطبري، جامع البيان (٦/٣١٥)، والرزقي، التفسير الكبير (٤/٤١٠). وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٨٢).

^(٦) سورة المائدة: الآية ٧٦.

العجب أن يعبد الإنسان ما لا يستطيع منع ضرر عنه، أو إيصال نفع إليه، وينصرف عن عبادة الله الواحد، وفي الآية الكريمة أنواع من الحجج على بطلان قول النصارى، منها:

١. أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكان أنصاره وأتباعه يحبونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، فكيف يعقل أن يكون إلهاً من لم يقدر على جلب نفع أو دفع ضرر؟!
 ٢. ومنها: أن النصارى يعتقدون أن اليهود صلبوه وكسروا أضلاعه، ومن كان في الضعف هكذا لا يُعقل أن يكون إلهاً!
 ٣. ومنها: أن إله العالمين يجب أن يكون غنياً عن كل ما سواه، وأن يكون كل ما سواه محتاجاً إليه، فلو كان عيسى إلهاً لما كان مشغولاً بعبادة الله مواظباً على الطاعات، وإنما كان يؤدي العبادات لأنه محتاج إلى تحصيل المنافع ودفع المضار، ومن كان كذلك فكيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضار عنهم، وإذا كان كذلك فهو عبد كسائر العبيد، وختمت الآية بقوله تعالى: "وهو السميع العليم" أي سميع بكفرهم عليم بضمائرهم وفي ذلك تهديد لهم. (١)

هذا وقد كشفت الآيات الكريمة سبب تمسكهم بهذه العقائد الباطلة، رغم ظهور بطلانها، وبرز فسادها، إنه الغلو في الدين، هو الذي جعلهم يرفعون عيسى ﷺ من مقام العبودية لله تعالى إلى مقام الألوهية، "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق"، والغلو: تقيض التقصير، ومعناه: مجاوزة حد الاعتدال، بحيث يؤدي إلى الخروج عن الدين؛ لأن الحق وسط

(١) الرازي، التفسير الكبير (٤/٤١٠)، وطهملز، الحلال والحرام في سورة المائدة (ص ٩٢).

بين الإقراط والتفريط، ودين الله وسط بين الغلو والتقصير،^(١) وقد قرّر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإقراط، ومن هنا قيل إنّ الحسنه بين سبئتين، وبهذا يُعلم أنّ من جانب التفريط والإقراط فقد اهتدى.^(٢) وغلو النصارى وإقراطهم في محبة عيسى وتقديسه أوصلهم إلى ما هم عليه من العقائد الفاسدة، وقد حذّر النبي ﷺ المسلمين من الوقوع فيما وقع فيه النصارى فقال: "لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبدُ الله ورسوله"^(٣) وكان ﷺ يحب أن يُدعى بصفة العبودية لله، ولهذا لما سمع رجلاً يقول له: أنت سيّدنا وابن سيّدنا، وخيرنا وابن خيرنا قال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهويكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله ورسول الله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله"^(٤) لقد نهى الله تعالى أهل الكتاب أن يغلو في دينهم غير الحق: أي غلوّاً باطلاً، لأنّ الغلو في الدين نوعان: غلوّ حقّ؛ وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلوّ باطل، وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وقد غالى اليهود في عيسى ﷺ فنسبوه إلى الزنا - لعنهم الله، والنصارى ادّعوا فيه الألوهية.^(٥) ولقد حذّر الله سبحانه أهل الكتاب من اتّباع الضالين ممن سبقهم فقال تعالى: "ولا تتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ، وَأَضَلُّوا كَثِيْرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ" قال الإمام ابن جرير: (ولا تتَّبِعُوا فِي الْمَسِيحِ أَهْوَاءَ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَدْ ضَلُّوا قَبْلَكُمْ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى فِي الْقَوْلِ فِيهِ، فَتَقُولُونَ فِيهِ كَمَا قَالُوا لِغَيْرِ رُسُودِهِ وَتَبْهَتُوا أُمَّه كَمَا يَبْهَتُونَهَا بِالْفَرِيَةِ، وَهِيَ صَدِيقَةٌ، وَقَدْ أَضَلَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ كَثِيْرًا مِنْ

(١) الرزقي، التفسير الكبير (٤/٤١٠ - فما بعدها)، والمحلي، جلال الدين محمد بن أحمد ت: ٩٩٠هـ - والسيوطي جلال الدين، أبو بكر، عبد الرحمن بن أبي بكر، تفسير الجلالين (ص ١٥٨)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م. وطه ماز الحلال والحرام في سورة المائدة (ص ٩٢).

(٢) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني ت: ١٣٩٣هـ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/٤٩٤)، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب، أحاديث الأنبياء، باب "ولنكر في الكتاب مريم إذا انتبخت من أهلها" (سورة مريم: الآية ١٦)، برقم ٣٤٤٥، لنظر: ابن حجر، فتح الباري (٦/٥٩١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٣٥٢٩)، (١٦٦/٢١).

(٥) الرزقي، التفسير الكبير (٤/٤١١).

الناس، فحادوا بهم عن طريق الحق، وحملوهم على الكفر والتكذيب بالمسيح، فضل هؤلاء اليهود عن قصد الطريق وركبوا غير محجة الحق، لكفرهم بالله وتكذيبهم رسله وذهابهم عن الإيمان وبعدهم منه).^(١) ونشير هنا إلى بعض علماء المسلمين الذين أنفوا كتباً في إبطال عقيدة التثليث، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه المشهور: "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، والإمام ابن القيم في كتابه: "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى" والإمام القرطبي في كتابه: "الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام"، والإمام ابن حزم في كتابه: "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، والإمام الشهرستاني في كتابه: "الملل والنحل" ومن المعاصرين: العلامة رحمه الله الهندي في كتابه القيم "إظهار الحق" وغيرهم كثيرون.^(٢) وهناك فريق من النصارى، قالوا - وبنسما قالوا - إن المسيح هو ابن الله!، كما قال تعالى:

﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم، يضاهنون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أتى يؤفكون﴾^(٣) وهذه الآية الكريمة لها ارتباط بالآية السابقة التي تحدثت عن أولئك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب، فشرع الله في هذه الآية ببيان جرمهم، وهو قول اليهود عزيز ابن الله، وقد تحدثنا عن ذلك فيما مضى، وقول النصارى المسيح ابن الله، ومن زعم أن الله ولداً فقد أشرك، ولا فرق بين من يعبد المسيح وبين من يعبد صنماً، فكلاهما مشرك بالله ولا يدين دين الحق الذي ارتضاه الله لعباده، بأن يعبدوه سبحانه وحده ولا يشركوا به أحداً.^(٤) وقد زعم هذا الفريق من النصارى أن المسيح ابن الله، لِمَا رَأَوْا من إحيائه الموتى، مع كونه من غير أب،

(١) الطبري، جامع البيان (٣١٦١٦).

(٢) الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث (ص ٢٤٢).

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٤) الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، تفسير الخازن المسمى، لباب التأويل في معاني التنزيل

(٢/٣٥١- فما بعدها) دار للكتب العلمية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤٥١هـ-١٩٩٥م).

والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لأن وصف المسيح في الإنجيل تارة بابن الله،^(١) وتارة بابن الإنسان، في مواضع متعددة، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض فاسد، وقيل: إن هذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لا لكلهم.^(٢) قال الشيخ محمد رشيد رضا: (هذا القول كان يقوله القدماء منهم، ويعتقدون به معنى مجازياً كالمحبوب والمكرم، ثم سرت إليهم فلسفة الهنود في (كرشنا) وغيرهم من قدماء الوثنيين، ثم انفقت عليه فرقهم المعروفة في هذه الأزمنة، وعلى أنه حقيقة لا مجاز وعلى أن (ابن الله) بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس)، لأن هؤلاء الثلاثة عندهم واحد حقيقة لا مجاز، وهذا تعليم الكنائس الذي قررتَه المجامع الرسمية، بتأثير الفلسفة الرومية، ولكن بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون).^(٣) ثم بين سبحانه وتعالى فساد قول الفريقين وبطلان عقائدهم، وأن مقولة اليهود عزير ابن الله، ومقولة النصارى المسيح ابن الله إنما هي من افتراءاتهم وتقولهم على الله،

لِمَ خَصَّ الْقَوْلُ بِأَفْوَاهِهِمْ مَعَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْفَهْمِ؟

أجاب العلماء عن ذلك من وجوه: الأول: يراد به أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يتقوهون به، وحاصل ذلك: أنهم قالوا باللسان قولاً، ولكن لم يحصل عند العقل من ذلك القول أثر، لأن إثبات الولد للإله مع أنه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول

(١) ومن للنصوص التي يعتبرها النصارى دليلاً على عقيدتهم في عيسى ما جاء في إنجيل يوحنا الذي ما كتب إلا لنشر فكرة ألوهية المسيح ﷺ كما أثبت العلماء والباحثون بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة عدم صحة هذا الإنجيل، وقد شككت دائرة المعارف البريطانية بهذا الإنجيل وبمؤلفه. (الحاج، د. محمد، النصرانية (ص ٢٤٧)، وزكي أحمد، فزعوا قناع بوليس عن وجه المسيح (٨٩٠) دار للحدثاء. يقول كاتب إنجيل يوحنا في بدايته: (في البدء كان للكلمة، الكلمة كان عند الله، وكان للكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله) إنجيل يوحنا (١/١-٢) من هنا يؤمن النصارى بأولية الكلمة التي هي المسيح، كما يؤمنون باتحاد هذه الكلمة مع الله، ومن هنا كان قولهم بلاهوت الكلمة. الحاج، د. محمد، النصرانية (ص ٢٤٧).

(٢) للشوكاني، فتح القدير (٢/٣٥٢-٣٥٣).

(٣) رضا، تفسير المنار (١٠/٣٢٨-٣٢٩).

باطل ليس عند العقل منه أثر،^(١) ونظيره قوله تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾.^(٢)

الثاني: أن يراد بالقول هنا المذهب، كقولنا: قول أبي حنيفة أي مذهبه وما يقول به، فمعنى قولهم هنا أي: مذهبهم ودينهم، بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له، لم تبق شبهة في انتفاء الولد.^(٣)

الثالث: أن المراد بالقول هنا: أنهم دعوا الخلق إلى هذه المقالة، حتى وقعت هذه المقالة في الأقواء والألسنة، والمراد منه: مبالغتهم في دعوة الخلق إلى هذا المذهب.^(٤) هذا وقد بين الله سبحانه أن أهل الكتاب إنما يظاهنون قول الذين كفروا من قبل، والمضاهاة: هي المشابهة، قال النحاس: يقال امرأة ضهياً، أي أشبهت الرجال،^(٥) وقال الفراء: يقال: ضاهته ضهياً ومضاهاة، وهذا قول أكثر أهل اللغة في المضاهاة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: المضاهاة: المتابعة، نقول: فلان يضاهي فلاناً أي يتابعه.^(٦) وقد قرأ عاصم " يظاهنون" بكسر الهاء وبعدها همزة مضمومة، وقرأ الباقون بضم الهاء وحذف الهمزة " يظاهون"^(٧)

ولكن ما المراد بقوله تعالى: (الذين كفروا)؟

قيل إن المراد أن هذا القول من اليهود والنصارى يضاهي قول المشركين الملائكة

بنات الله!^(٨) وقيل إن الضمير يعود للنصارى، أي: قولهم المسيح ابن الله يضاهي قول اليهود

(١) الرازي، التفسير الكبير (٦/٢٩-٣٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٧.

(٣) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٥١).

(٤) الرازي، التفسير الكبير (٦/٣٠).

(٥) النحاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد، معاني القرآن (٣/٢٠٠-٢٠١) تحقيق محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة (الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ).

(٦) الطبري، جامع البيان (١٠/١١٢-١١٣) والرازي، للتفسير الكبير (٦/٣٠).

(٧) اللحام، فيض الرحيم في قراءات القرآن الكريم (ص ١٩١).

(٨) الرازي، التفسير الكبير (٦/٣٠).

"عزير ابن الله" (١) وقيل إن هذا القول من النصارى يضاهي قول قدمائهم، يعني أنه كفر قديم غير مستحدث. (٢) قال الإمام الزمخشري: (والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم). (٣) وختمت الآية الكريمة بالدعاء على أهل الكتاب الذين اعتقدوا هذه العقائد الباطلة: "قاتلهم الله أنى يؤفكون"، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (قاتلهم الله: لعنهم الله، وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن). (٤) وفي لغة العرب تستعمل جملة: "قاتلهم الله" للتعجب، فهو المراد بها هنا، لا ظاهر معناها، فالمعنى: هم أحقّاء بأن يقال لهم هذا، تعجباً من شناعة قولهم، كما يقال لقوم ارتكبوا فعلاً شنيعاً: قاتلهم الله ما أعجب فعلهم، ويقال: قاتله الله ما أفصحه، ومن هنا قيل: إن أصل (قاتله الله) الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر، وهم لا يريدون به الدعاء، (٥) ويمكن الجمع بين المعنيين في الآية: بأنه دعاء عليهم بالهلاك، وتعجب من شناعة قولهم. (٦) ومضى قوله تعالى: "أنى يؤفكون": الإفك: الصرف، يقال أفك الرجل عن الخير، أي قلب وصرف، ورجل مأفوك أي: مصروف عن الخير، والمعنى: كيف يُصنّون ويُصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل، حتى يجعلوا لله ولداً؟! وهذا التعجب راجع إلى الخلق، والله تعالى لا يتعجب من شيء، لكن هذا الخطاب وقع على عادة العرب في كلامهم، والله تعالى عجب نبيه ﷺ من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل. (٧) وبهذا تكون الآية الكريمة قد كشفت انحراف اليهود في العزيز، وانحراف النصارى في المسيح ثم أبطلت أقوالهم جميعاً، وقد كشفت آيات القرآن الكريم بطلان

(١) الطبري، جامع للبيان (١١٢/١٠).

(٢) للزمخشري، الكشاف (٢٥١/٢) والرازي، التفسير الكبير (٣٠/٦).

(٣) للزمخشري، الكشاف (٢٥١/٢).

(٤) الطبري، جامع للبيان (١١٣/١٠).

(٥) للزمخشري، الكشاف (٢٥٢/٢) ورضا، تفسیر المنار (٣٤٠/١٠).

(٦) جوهرى. طنطاوى، الجواهر فى تفسير القرآن العظيم (٥/٥).

(٧) الرازي، التفسير الكبير (٣٠/٦).

قول النصارى بأزلية الكلمة، وفساد الاعتقاد بأن الكلمة هي عيسى ﷺ، قال تعالى: ﴿إِذَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُنزِلَتْ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٢) اختلف العلماء في تفسير قوله تعالى: (بكلمة منه) فقيل: إنَّ المراد بالكلمة هنا أي: كلمة التكوين، وهي قوله تعالى: "كن"، وذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين، وكيفية صدوره عن الباري عز وجل مما يعلو عقول البشر، عبر عنه سبحانه بقوله: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون"^(٣)، فسماه الله عز وجل كلمته: لأنه كان عن كلمته، كما يقال لما قتر الله من شيء: "هذا قدر الله وقضاؤه". يعني به: هذا عن قدر الله وقضائه حدث، وكما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٤) أي ما أمر الله به، وهو الأمور الذي كان عن أمره عز وجل.^(٥)

الحكمة من إطلاق الكلمة على المسيح ﷺ:

ولقائل أن يسأل هنا: لِمَ خُصَّ المسيح ﷺ بإطلاق الكلمة عليه، وإن كان كل شيء قد خلق بكلمة التكوين؟ أجيب عن ذلك بأجوبة، أهمها: أن الأشياء تنسب في العادة والعرف العام عند البشر إلى أسبابها، ولما فُقد في تكوين المسيح ﷺ، وحمل أمته به ما جعله الله سبباً للحمل،

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٣) سورة يس: الآية ٨٢.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٥) الطبري، جامع البيان (٣/٢٦٩)، ورضا، تفسير المنار (٣/٣٠٤).

وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البييضات التي يتكون منها الجنين، أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله، ولا جرم أن إضافة حدوثه إلى الكلمة أكمل وأتمّ، فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة، كما أنّ من غلب عليه الجود والكرم والإقبال، يُقال فيه على سبيل المبالغة: إنه نفس الجود، ومحض الكرم، وصريح الإقبال، فكذا هنا. ^(١) قال سيّد قطب: (وأقرب تفسير لهذه العبارة: أنه سبحانه وتعالى خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن: إنه كن.. فيكون"، فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم، فخلق عيسى في بطنها، من غير نطفة أب، كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم، والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم، لا عجب في أن تخلق عيسى في بطن مريم من النفخة التي يُعبّر عنها بقوله: "روح منه"^(٢) وقيل: أطلق على المسيح (كلمة الله) للإشارة إلى بشارة الأنبياء به، فهو قد عُرف بكلمة الله أي بوحيه لأنبيائه، قال الشيخ محمد عبده: (والكلمة تطلق على الكلام) كقوله: ^(٣) "ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين"^(٤) وقيل: أطلق عليه لفظ الكلمة، لأنه جاء بمزيد من الإيضاح لكلام الله، الذي حرّقه قومه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين مادياً محضاً، قاله الإمام الرازي وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بظل الله، لأنه سبب لظهور العدل والإحسان. ^(٥) قال الإمام الرازي: (إنّ السلطان العادل قد يوصف بأنه ظلّ الله في أرضه، وأنه نور الله، لما أنه سبب لظهور ظلّ العدل ونور الإحسان، فكذلك كان عيسى ﷺ سبباً لظهور كلام الله عز وجل، بسبب كثرة بياناته وإزالة الشبهات والتحريفات عنه، فلا يبعد أن يسمّى بكلمة الله على هذا

^(١) الرازي، للتفسير الكبير (٢٢١/٣)، ورضا، تفسير المنار (٣٠٤/٣).

^(٢) قطب، الظلال (٨١٧/٢).

^(٣) رضا، تفسير المنار (٣٠٤/٣).

^(٤) سورة الصافات: الآية ١٧١.

^(٥) رضا، تفسير المنار (٣٠٤/٣).

(التأويل) (١) وقيل: إن المراد بالكلمة: كلمة البشارة لأمة، فقوله: بكلمة منه معناه: بخبر من عنده أو بشارة، وهو كقول القائل: (ألقي إليّ فلان كلمة سرّي بها) بمعنى: أخبرني خبراً فرحت به، قاله الإمام ابن جرير، واستشهد له بقوله تعالى: "وكلمته ألقاها إلى مريم" يعني بشرى الله تعالى لمريم بعيسى ألقاها إليها، وقال الإمام ابن جرير: (فتأويل الكلام: وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هي ولدك اسم المسيح عيسى ابن مريم، والكلمة مؤنثة، لأنّ الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذي هو بمعنى فلان، وإنما هي بمعنى البشارة، فذكرت كنايةها كما تذكر كناية الذرية والدابة والألقاب ... الخ . واعتبر الإمام ابن جرير أنّ هذا الوجه هو أقرب الوجوه إلى الصواب. (٢) كما ذكر أيضاً وجهاً آخر في معنى الكلمة، وهو أنها اسم لعيسى ، سماه الله بها، كما سمى سائر خلقه بما شاء من الأسماء، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: عيسى هو الكلمة. (٣) ومما تشبث به النصارى ليستدلوا به على مذهبهم الفاسد القائل ببنوة المسيح أن المسيح ﷺ جاء نتيجة النفخ من روح الله، قالوا: فهو إذن ابن الله! وأجيب عن ذلك: بأن "من" في قوله تعالى: ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ (٤) وقوله تعالى: "وروح منه" ليست للتبعيض، لأنّ روح الله لا تتبعض، ولا تتجزأ، ولا تنقسم إلى أبعاضٍ وجزئيات وأقسام، وإنما "من" هنا لابتداء الغاية، فهي من عند الله سبحانه وتعالى. (٥) قال الإمام السمين الحلبى: ("وروح" عطف على "كلمة" ومنه "صفة" لـ "روح" و"من" لابتداء الغاية مجازاً، وليست تبعيضية، ومن غريب ما يحكى: أنّ أحد النصارى ناظر علي بن الحسين بن واقد المروزي، وقال له: في كتاب الله "القرآن" ما يشهد أنّ عيسى جزء من الله وتلا هذه الآية:

(١) الرازي، التفسير الكبير (٣/٢٢١).

(٢) للطبري، جامع البيان (٣/٢٦٩).

(٣) للطبري، جامع البيان (٣/٢٦٩).

(٤) سورة التحريم: الآية ١٢.

(٥) الخالدي، القصص القرآني (٤/٢٣٤).

'وروح منه' ، فعارضه ابن واقد بقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾^(١) وقال له: لو صحَّ كلامك هذا للزم أن تكون جميع هذه الأشياء في السموات والأرض جزءاً من الله، وهذا مستحيل، فسكت النصراني وانقطع، ثم أسلم).^(٢) ويردّ عليهم كذلك: بأن الله تعالى خلق آدم ونفخ فيه من روحه، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾^(٣) ولم يقل أحد أن آدم إله، وقد شبه الله تعالى عيسى ﷺ بآدم ﷺ^(٤) في قوله: ﴿ إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٥) ومما تشبث به النصارى كذلك للتدليل على عقيدتهم الباطلة: أن عيسى ﷺ لم يولد من البشر، ولو كان مخلوقاً لكان مولوداً من البشر! ردّ عليهم الإمام ابن القيم قائلا: (فإن كان هذا الاستدلال صحيحاً فأدم إله المسيح، وهو أحقّ بأن يكون إلهاً منه، لأنه لا أم ولا أب له، والمسيح له أم).^(٦)

الحكمة في ميلاد عيسى ﷺ من غير أب:

قد نتلمس الحكمة في كون المسيح ﷺ ولد من غير أب في أمرين جليلين:

أحدهما: أن ولادة عيسى ﷺ من غير أب تعلن قدرة الله تعالى وأنه الفاعل المختار المريد، وأنه سبحانه لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات، التي نرى العالم يسير عليها وفق النظام البديع الذي خلقه الله تعالى، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله، لأنّ الله تعالى هو خالق هذه الأسباب، ومبدعها ومريدها، وخلق عيسى ﷺ من غير أب هو بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الأزلية، بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية، وفي عصر سادته نوع من الفلسفة، تقوم على

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣.

(٢) السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، النثر المصون في علوم الكتاب المكنون (١٦٦/٤). تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق (الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٨٧م).

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٩.

(٤) شاهين، النصرانية تاريخاً وعقيدة ... (ص ١١٣).

(٥) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٦) ابن القيم: هداية الحيارى (٤٩٨).

أساس أن خلق الكون كان من مصدره الأول، كالعلة من معلولها، فكان عيسى ﷺ آية على أن الله سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية، وأن العالم كله بإرادته.

وثانيهما: إن ولادة عيسى ﷺ من غير أب جاءت إعلاناً لعالم الروح بين قوم أنكروها، حتى وصل بهم الحال إلى أن يزعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه. لقد قيل عن اليهود إنهم كانوا لا يعرفون الإنسان كروح وكجسد ومشاعر إلا جسماً عضوياً، ولا يقرون بالروح ولا يعترفون بخلق، ولعل ذلك هو سبب الحقد الذي تغلغل في النفس اليهودية تجاه البشرية، فلما جاء عيسى ﷺ من غير أب، وكان إيجاده بكلمة من الله وروح منه، كما قال تعالى: "والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين"، كان ذلك الإيجاد الذي لم يكن العامل فيه سوى نفخ الروح في جيب مريم عليها السلام فكان عيسى من غير بذرة الإنسان، وجاء ذلك بمثابة قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح، وآية واضحة لمن لم يعرف الإنسان إلا أنه جسم لا روح فيه. ^(١) ومما استدل به النصارى على عقيدتهم الباطلة ومذهبهم الفاسد: أن المسيح وصف في الأناجيل أنه: "ابن الله" ! في نصوص كثيرة، كما وصف الله تعالى في هذه الأناجيل بأنه الأب، ومن هذه النصوص: ما ورد في إنجيل متى: (فكل من يعترف بي قدام الناس، اعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السماوات) ^(٢) ومنها: (أحمدك أيها الأب رب السماء والأرض). ^(٣) ومنها: (وكل شيء قد دفع إلي من أبي وليس أحد يعرف الابن إلا الأب). ^(٤) إن النصارى يعتمدون على هذه النصوص في إطلاق لقب الابن على المسيح ﷺ، لكن المتتبع لنصوص الأناجيل المتداولة بينهم يجد أن وصف الله بالأب لم يقتصر على علاقة خاصة مفردة بين الله

^(١) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية (ص ١٧ - فما بعدها).

^(٢) إنجيل متى: (٣٢/١٠).

^(٣) إنجيل متى: (٢٥/١١).

^(٤) إنجيل متى: (٢٧/١١).

والمسيح، وكذلك وصف الابن لم يقتصر في الأناجيل على المسيح ﷺ، كما أننا نجد المسيح في هذه الأناجيل يطلق على نفسه ألقاباً مثل: لقب (ابن الإنسان)، وفي مواضع أخرى بأنه: (إنسان)، ذلك ما جاء في إنجيل متى: (وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه) ^(١) وفي إنجيل يوحنا: (الحقّ الحقّ أقول لكم، من الآن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان) ^(٢) ويقول في موضع آخر: (ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني، وأنا إنسان قد كلمكم بالحقّ الذي سمعه من الله) ^(٣) فلفظ الأب جاء وصفاً عاماً لعلاقة الله بالمؤمنين جميعاً، ويكاد أن يقصد به ما يقصد بالربّ بوجه عام، فهو أب للمؤمنين جميعاً، وقد تردّد وصف أكثر من فرد بابن الله، ووصفت جماعات بأبناء الله في أسفار العهد القديم في مواضع عديدة، والكتاب المقدّس بوجه عام، يطلق لقب (ابن الله) على أناس كثيرين، فهو يطلقه على كل بارّ، ويطلقه على الصالحين، وليس على عيسى وحده، كما جاء في الأناجيل، فقد جاء في إنجيل يوحنا: (وكل من يحبّ فقد ولد من الله) ^(٤) (وكل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله). ^(٥) والقرآن الكريم ذكر لنا قول اليهود والنصارى أنهم أبناء الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ ^(٦) وأمثال هذه النصوص في الكتاب المقدّس كثيرة، ^(٧) يقول الشيخ عبد الوهاب النجار: (معلوم أنّ لفظ الابن بمعناه الحقيقي باتفاق لغات أهل العالم أنه المتولّد من نطفة الأب الملقحة لبيضة الأم، وذلك محال على الله أن تكون له صاحبة أو يوجد له ولد، يتولد من نطفته - تعالى الله عما يقولون -، فلا بدّ من الحمل على معنى مجازي يناسب

(١) إنجيل متى: (٢٠/٨).

(٢) إنجيل يوحنا (٥١/١).

(٣) إنجيل يوحنا: (٤٠/٨).

(٤) رسالة يوحنا الأولى (٧/٤).

(٥) رسالة يوحنا الأولى (١/٥).

(٦) سورة المائدة: الآية ١٨ - .

(٧) الحاج، النصرانية من التوحيد إلى التثليث (ص ٢٥١ - فما بعدها).

شأن المسيح بحيث لا يحط من قدر الله، ولا يرفع المسيح فوق قدر نفسه).^(١) ويمضي (الشيخ السنجار) بعد ذكره لمن أطلق الكتاب المقدس عليهم (لفظ ابن الله) قائلاً: (ولو كان كل ما يسميه الله ابناً يُحمل على البنوة الحقيقية، ويكون إليها مستوجباً للعبادة: لكان كل بني إسرائيل آلهة، لأن الله أطلق على شعب إسرائيل بني!)^(٢) أمّا المعنى الذي يراه شيخ الإسلام (ابن تيمية) مناسباً لعلاقة البنوة بين الله تعالى وعيسى ﷺ، فيبينه بعد أن يورد نصوص الأناجيل فيقول: (فإن كان هذا صحيحاً: فالمراد أنه الربّ المربي الرحيم، فإنّ الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والابن هو المربى المرحوم، فإنّ تربية الله لعبده أكمل من تربية الوالدة لولدها، فيكون المراد بالأب الربّ، والمراد بالابن عنده المسيح الذي ربّاه).^(٣) ومن الآيات التي أبطلت عقيدة أهل الكتاب في عيسى قوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾^(٤) ومعنى هذه الآية الكريمة: وما من أحد من اليهود والنصارى إلا سيؤمن بأنّ عيسى عبد الله ورسوله، وذلك قبل موته - حين النزاع - عندما لا ينفع الإيمان ويغلق باب التوبة، وقد اختلف المفسرون في عودة الضميرين: في "به" و "موته" ، على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنهما يعودان إلى عيسى ﷺ، والمعنى على هذا: ليس يبقى أحد من اليهود والنصارى في أواخر الزمان إلا ويؤمن بالمسيح ﷺ قبل موته ﷺ إذا أنزله الله إلى الأرض لقتل الدجال، فتصير الملل كلها أمته واحدة، هي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم ومحمد عليهما

(١) السنجار، قصص الأنبياء (ص ٤٥٨).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٥٩).

(٣) ابن تيمية، الحراتي، أبو العباس الجواب الصحيح لمن بطل دين المسيح، (٣/١٩٤). تحقيق: الدكتور: علي حسن ناصر، والدكتور عبد العزيز إبراهيم، والدكتور حمدان محمد، دار العاصمة الرياض (الطبعة الأولى ١٤١٤م).

(٤) سورة النساء: الآية ١٥٩.

الصلاة والسلام، وذلك حين لا ينفعهم الإيمان، وروي ذلك عن ابن عباس. ^(١) واختاره الإمام

الطبري وقال: إن الآية خاصة بمن يكون من أهل الكتاب في ذلك الزمان. ^(٢)

وثانيها: أن الضمير في (به) يعود إلى السيد المسيح، والضمير في (موته) يعود إلى كل كتابي، ويكون المعنى حينئذٍ: لا يموت أحد من أهل الكتاب فيخرج من دار الدنيا إلا ويؤمن ببشرية عيسى قبل موته - أي موت الكتابي -، وذلك أن الميت - وهو على فراش الموت يعاني من سكراته - يتبين له الحق، بعد زوال التكليف، حيث لا ينفعه الإيمان حينئذٍ، وذهب إلى هذا القول ابن عباس - في رواية أخرى عنه ومجاهد والضحاك، وابن سيرين. ^(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس من يهودي ولا نصراني يموت حتى يؤمن بعيسى ابن مريم، فقيل له: كيف والرجل يغرق أو يحترق، أو يسقط عليه الجدار أو يأكله السبع، فقال: لا تخرج روحه من جسده حتى يقذف فيه الإيمان بعيسى)، ^(٤) ومال إلى هذا القول سيد قطب، واستدل له بقراءة أبي: "إلا ليؤمنن به قبل موتهم". قال سيد قطب: (فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير، وأنه أهل الكتاب .. وعلى هذا الوجه يكون المعنى: أن اليهود الذين كفروا بعيسى - ﷺ - وما زالوا على كفرهم به، وقالوا: إنهم قتلوه وصلبوه، ما من أحد منهم يدركه الموت، حتى تكشف له الحقيقة عند حشجة الروح، فيرى أن عيسى حق، ورسالته حق، فيؤمن به، ولكن حين لا ينفعه إيمانه، ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً). ^(٥) وضعف الإمام الطبري هذا الوجه من حيث أنه لو

^(١) الثوري، أبو عبد الله، سفيان بن سعيد بن مسروق، تفسير سفيان الثوري (٩٨/١)، دار الكتب العلمية بيروت (الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ).

^(٢) الطبري، جامع البيان (٢٢/٦).

^(٣) المرجع السابق (٢١/٦).

^(٤) الطبري، جامع البيان (٢١/٦).

^(٥) قطب، الظلال (٨٠٣/٢).

كان صحيحاً لما جاز إجراء أحكام الكفار عليهم إذا ماتوا؛ لأنّ المصدّق بعيسى والمؤمن به، مصدّق بمحمد ﷺ وبجميع أنبياء الله ورُسُلِهِ. (١)

وثالثهما: أن يكون المعنى ليؤمننّ بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي، روي ذلك عن عكرمة. (٢) وضعف الإمام الطبري هذا الوجه من حيث إنه لم يجر ذكر لنبينا محمد ﷺ في سياق الآيات هاهنا. (٣)

آية المباهلة تبطل القول بألوهية المسيح:

ومن الآيات التي أبطلت عقيدة أهل الكتاب في تأليه عيسى ﷺ آية المباهلة الواردة في قوله تعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق، وما من إله إلا الله، وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولّوا فإنّ الله عليم بالمفسدين﴾ (٤) قال المفسرون في سبب نزولها: لما قدم وفد نصارى نجران وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى ﷺ قالوا للرسول ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: نقول إنه عبد، قال: أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قطّ من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله، فأنزل الله: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ (٥) الآية، وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا: قد كنّا مسلمين قبلك، فقال: كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث: قولكم اتّخذ الله ولداً، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب، فقالوا: فمن أبوه؟ فأنزل الله تعالى: "إنّ مثل عيسى عند الله .. إلى قوله ... ثم نبتهلّ

(١) الطبري، جامع البيان (٢١/٦ - ٢٢).

(٢) للمصدر السابق (٢١/٦).

(٣) للمصدر السابق (٢٣/٦).

(٤) سورة آل عمران: الآيات (٦١-٦٣).

(٥) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

فجعل لعنة الله على الكاذبين". فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم ذلك اضطرم الوادي عليكم ناراً، فقالوا أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال: الإسلام أو الجزية أو الحرب، فأقروا بالجزية. ^(١) وعن حماد بن سلمة عن يونس عن الحسن قال: جاء راهبا نجران إلى النبي ﷺ فقال لهما: "أسلما تسلما" فقالا: قد أسلمانا قبلك، فقال: "كذبتما"، بمنعكما من الإسلام: سجدكما للصليب، وقولكما اتخذ الله ولداً، وشربكما الخمر". فقالا: ما تقول في عيسى؟ قال: فسكت النبي ﷺ ونزل القرآن: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ ^(٢) إلى قوله "قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم" الآية، فدعاهما رسول الله ﷺ إلى الملاعنة، وقال: وجاء بالحسن والحسين وفاطمة وأهلها وولده عليهم السلام، قال: فلما خرجا من عنده قال أحدهما لصاحبه: أقرر بالجزية ولا تلاعنه، فأقرّ بالجزية، قال: فرجعا فقالا: نقرّ بالجزية ولا نلاعنك. ^(٣) والمباهلة والابتهال: الاسترسال في الدعاء، والتضرع فيه، ومن فسّر الابتهال باللعن: فلأجل أن الاسترسال في هذا المكان لأجل اللعن والدعاء على الظالم. ^(٤) قال ابن فارس: (الباء والهاء والسلام أصول ثلاثة: أحدهما، التخلية، والثاني، جنس من الدعاء، والثالث، قلة في الماء... قال: وأمّا الثاني: فالابتهال والتضرع في الدعاء، والمباهلة، ترجع إلى هذا، فإنّ المتباهلين يدعو كل واحد منهما على صاحبه). ^(٥) وفي هذه الآيات الكريمة يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يباهل من جادل في المسيح ﷺ، فادّعى أنه إله بعد أن ظهر له الحق في أمر المسيح، فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختصّ به، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته

^(١) للقرطبي، للجامع لأحكام القرآن (٦٦/٤)، والولحدي، لسباب النزول (ص ٨٩-٩٠).

^(٢) سورة آل عمران: الآية (٥٨).

^(٣) العك، تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول (ص ٧١).

^(٤) للراغب، المفردات (ص ٧٣)، وللهاتم المصري شهاب الدين أحمد بن محمد التتبان في تفسير غريب القرآن (١/١٤٩)، تحقيق: الدكتور، فتحي ثور الدببولي، دار الصحابة للنشر، القاهرة، (الطبعة الأولى، ١٩٩٢م).

^(٥) ابن فارس، أبو الحسن، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة بهل (١/٣١٠-٣١١). تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

على الكاذبين، فإن كان النصارى كاذبين في قولهم - هو الله - حَقَّتْ اللعنة عليهم، وإن كان من قال ليس هو الله - بل عبد الله - حَقَّتْ اللعنة عليه، وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق، والنصارى لما لم يعلموا أنهم على الحق نكلوا عن المباهلة، وقد قال الله سبحانه عقب ذلك: "إن هذا لهُوَ القِصصُ الحَقُّ وما من إله إلا الله" تكذيباً للنصارى الذين يقولون هو إله،^(١) ثم توعدهم الله تعالى بقوله: "فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين" أي إن عرضوا عن الإقرار بالتوحيد، فإنهم مفسدون والله عليم بهم، وسيجازيهم على ذلك شرَّ الجزاء.^(٢) وقد توصل الإمام ابن القيم إلى إثبات نبوة المسيح ﷺ ومحاجة النصارى بطريق عقلي: من أنهم لم يأتوا بأدلة على ألوهيته - سوى تكذيبه - علماً بأن أنجيلهم تشهد له بالعبودية، حيث قال رحمه الله في هذا المعنى: (وإن كان المسيح إنما ادعى أنه عبد ونبي ورسول كما شهدت به الأنجيل كلها، ودلَّ عليه العقل والفطرة، وشهدتم أنتم له بالإلهية ولم تأتوا على إلهيته ببينة غير تكذيبه في دعواه، وقد ذكرتم عنه في أنجيلكم في مواضع عديدة ما يصرِّح بعبوديته، وأنه مربوب مخلوق، وأنه ابن مريم - وهي بشر - وأنه لم يدع غير النبوة والرسالة، فكذبتموه في ذلك كله وصدقتم من كذب على الله وعليه).^(٣) وهكذا كشف القرآن الكريم الغمة، وأزال الشبهة في أمر المسيح، وبرأه وأمه مما افتراه عليه المفترون، من اليهود - لعنهم الله - ومن عبّاد الصليب، الذين سبّوه أعظم السب، "قاتلهم الله أنى يؤفكون"، وتتره رب العالمين وخالق المسيح وأمه مما افتراه المجرمون: وقد أنزل الله تعالى في كتابه العزيز المسيح أشرف المنازل، فوصفه بأنه عبد الله

(١) الرزقي، التفسير الكبير (٢٥١/٣).

(٢) الصابوني، صفوة التفسير (١٨٨/١).

(٣) ابن القيم، هداية الحيارى (٥٠١).

ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. ^(١) الطاهرة الصديقة سيّدة النساء، وقرّر القرآن الكريم معجزات المسيح وآياته، وأخبرنا بتخليد من كفر بالمسيح في النار، وأن الله عز وجل أكرمه ونزهه وصانه من أن ينال إخوان القردة منه، ما زعمته أمة النصارى أنهم نالوه منه، بل رفعه الله إليه حيّاً مؤيداً منصوراً، لم يصبه أعداؤه بشوكة، ولا نالته أيديهم بأذى، بل رفعه الله حيّاً إليه وأسكنه سماءه، وسيعيده إلى الأرض ينتقم به من مسيح الضلال وأتباعه، ثم يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويعلي به الإسلام، وينصر به ملة أخيه وأولى الناس به محمد ﷺ، حيث لا نبي بينهما، ولا يستغرب من إطباق أمة الضلال، الذين شهد الله أنهم أضل من الأنعام في إطباقهم على باطلهم، فكم من الأمم التي قصّتها علينا القرآن الكريم كانت مطبقة على الكفر والضلال بعد معاينة الآيات البينات، فلعباد الصليب أسوة بإخوانهم من أهل الشرك والضلال. ^(٢) والله ترّ من قال وهو يرد على عبّاد الصليب قولهم صلب المسيح، وتسليمه لليهود مع دعواهم أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

عجباً للمسيح بين النصارى	وإلى أي والدي نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا	إنهم بعد قتله صلبوه
فإن كان ما تقولون حقاً	وصحيحاً فأين كان أبوه
حين خلا ابنه رهين الأعداي	أتراهم أرضوه أم أغضبوه
فلئن كان راضياً بأذاهم	فأعذروهم لأنهم وافقوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه	واعبدوهم لأنهم غلبوه ^(٣)

^(١) المصدر السابق (ص ٥٣٨).

^(٢) المصدر السابق (ص ٥٣٧ - فما بعدها).

^(٣) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد، والأوهام، وإظهار محاسن الإسلام (٤١٩/١) تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

- اتحراف اليهود بشأن مريم عليها السلام:

جريمة جديدة من جرائم اليهود الكثيرة، وهذه المرة بحق مريم العذراء البتول المطهرة الطاهرة، فقد رموها بأبشع الجرائم وأفظعها، فاتهموها بالزنا ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾^(١) وليس هذا بغريب عنهم، فقد افتروا على الله ورُسُلَه وأوليائه، وعباده المؤمنين الأكاذيب. قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾^(٢) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً^(٣) وقد تكون مريم العذراء ليست هي المستهدفة، لكن المستهدف هو المسيح ﷺ، ورسالته الكريمة المقدسة، لهذا حاولوا اغتياله وتصفيته جسدياً حينما فشلت عملية البهتان والافتراء، وهذا هو أسلوب الظلمة الأشقياء.^(٤) "وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً" أي: بفريتهم عليها ورميهم إياها بالزنا.^(٥) فاليهود لعنهم الله كانوا يسمون عيسى ﷺ ابن البغية.^(٦) وجاء افتراء اليهود هذا على مريم الطاهر البتول لأنها ولدت عيسى ﷺ من غير أب.^(٧) وقد برأ القرآن الكريم مريم عليها السلام مما قيل عنها، وردّ على اليهود افتراءاتهم، حيث بيّن أنّ العبادة والنسك أضلاً مريم عليها السلام مذ كانت جنيناً في بطن أمها، وحتى بلغت مبلغ النساء، وقد اصطفاه الله لأمر جليل خطير، حيث نذرت أمها امرأة عمران وهي حامل بهاء، أن يكون ما في بطنها خالصاً لخدمة بيت المقدس، واستمرت مصممة على الوفاء بنذرها،

(١) سورة الكهف: الآية ٥.

(٢) البهتان: من بهت الشخص أي دهش، وتحير، قال تعالى: "قبيح الذي كفر" (سورة البقرة: الآية ٢٥٨). فالبهتان: هو الكذب الذي يبهت سامعه لفظاعته. (الربغ، المفردات (ص ٧٣).

(٣) سورة النساء: الأيتان (١٥٥-١٥٦).

(٤) الأمرد، جعفر، معجزة الأجيال، الصديقة مريم العذراء (ص ١٦٠) دار الوفاق، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).

(٥) للطبري، جامع البيان (١٢/٦).

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٣/١).

(٧) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٩٦).

فلما وضعتها أنثى جددت العزم على الوفاء بالنذر، مع أنه كان لديها مسوغاً للتخليل منه فكان هذا الإصرار عبادة أخرى! وهكذا انصرفت مريم البتول منذ الصبا للنسك والعبادة، وقام على تنشئتها وهدايتها وتعليمها نبي من أنبياء الله الصالحين فكفلها زكريا ، ووجهها إلى العبادة الصحيحة، وإلى تنزيه القلب من كل أدان الشرك والإثم، وكان الله سبحانه وتعالى، يتر عليها الرزق من حيث لا تحتسب، ومن غير جهدٍ أو عنت. ^(١) قال تعالى: ﴿ إذ قالت امرأة عمران ربّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا، كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أتى لك هذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ^(٢) لقد عرف بنو إسرائيل مريم من ساعة ولادتها، ويعرفون من والدها ووالدتها ومن ربّها ومن كفلها، وكيف كانت معيشتها، لكن كل ذلك لم يمنعهم من الافتراء عليها! ^(٣) وقد كانت تلك التنشئة الطاهرة التي نشأتها مريم بريئة من دنس الرذيلة، تمهيداً لأمر جليل اصطفاه الله له دون العالمين. ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ ^(٤) فكان هذا الاصطفاء اختياراً من الله لها لتكون أماً لمن يولد من غير نطفة آدمية، لتكون آية عجيبة من آيات الله للعالمين. ^(٥) إنّ حياة مريم عليها السلام - قبل الولادة وبعدها - تنفي عنها الريبة، وتبعدها عن مواطن الشبهة، كما بيّن ذلك القرآن الكريم في سورة مريم أجلى

^(١) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية (ص ١٤-١٥).

^(٢) سورة آل عمران: الآيات (٣٥-٣٧).

^(٣) الأمرد، للصدّيقة مريم العنواء (ص ١٦٠).

^(٤) سورة آل عمران: الآيات (٤٢-٤٣).

^(٥) أبو زهرة. محاضرات في النصرانية (ص ١٥). والخالدي، التخصّص القرآني (٤/١٨٨).

بيان. ^(١) ثم يأتي دليل البراءة القاطع من عيسى ﷺ وهو لا يزال غلاماً في المهد، فينطقه الله تعالى، ليكون كلامه إعلماً صريحاً ببراءة أمه، وأنه لم يكن إلا عبد الله، ولد من غير أب. ^(٢) قال تعالى: ﴿ قَالُوا كَيْفَ نَكْتُمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مَبْرُوكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ^(٣) لقد توعد الله تعالى كل من يرمي مؤمناً أو مؤمنة بفاحشة معينة ثم لا يتوب إلى الله: توعدّه باللعن والعذاب الأليم في الدارين قال تعالى: ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تُشْهِدُهُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ ^(٤) فالذي يبهت مؤمناً أو يقذف محصنة فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ ^(٥) وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بِهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ ^(٦) فالبهتان إيذاء وخطيئة كبيرة يتحمل وزرها من قام بها وأشاعها. ^(٧) فكيف إذا كان المفترى عليه عيسى وأمه - عليهما السلام، وهما بريتان؟!

^(١) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية (ص ١٥).

^(٢) المصدر السابق (ص ١٧).

^(٣) سورة مريم: الآيات (٢٩-٣٣).

^(٤) سورة للنور: الآيات (٢٣-٢٥).

^(٥) سورة الأحزاب: الآية ٥٨.

^(٦) سورة للنساء: الآية ١١٢.

^(٧) الأمرد، الصديقة مريم العذراء (ص ١٦١).

انحرافهم في نبوة سيدنا محمد ﷺ:

يتمثل انحراف أهل الكتاب خاصة اليهود بشأن النبي ﷺ في محاولاتهم الطعن في نبوته بشتى الوسائل والسبل، والتشكيك في صدقه لينصرف الناس عنه. ^(١) وسرى ذلك من خلال هذه الآيات الكريمة: قال تعالى: ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكتبوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ^(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء، وداود بن سلمة: يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي نذكر لكم، فأنزل الله. " ولما جاءهم كتاب من عند الله" الآية ^(٣) ومعنى الآية: ولما جاء اليهود كتاب من عند الله وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل، وقد كانوا قبل مجيء محمد ﷺ بالقرآن، يستتصرون به على أعدائه من المشركين، قائلين لهم إذا قاتلوهم: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله محمداً ﷺ، وهو النبي المطابق لما عندهم من صفات له في كتبهم، كفروا به لأنه من العرب وليس من اليهود، حسداً من عند أنفسهم، كما قال تعالى في آية أخرى عنهم ﴿ وآتيناهم بيّنات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، إن ربي يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ^(٤) قال ابن عباس

^(١) طنطاوي، بنو إسرائيل ص ١٠١.

^(٢) سورة البقرة: الآية ٨٩.

^(٣) السيوطي، لباب النقول ص ١٥.

^(٤) سورة الجاثية: الآية ١٧.

رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ يعني من أمر النبي ﷺ، وشواهد نبوته، بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، وينصره أهل يثرب. "بغياً بينهم" قال الضحاك أي: حسداً على النبي ﷺ^(١) فلعنة الله على الكافرين الذين يجحدون الحق بعدما تبين، ويكتمونه.^(٢) وهذا توبيخ لهم على طعنهم في نبوة محمد ﷺ، وكتمان أمره، وقال تعالى: ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبعوثاً من الله أن يبعث لهم نبياً قالوا لا نجعل لك نبياً بل نعبده قالوا فما آتاهم من الظلمات ما كانوا يكتمون﴾^(٣)

قال الإمام الطبري: (كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعون على نبوته والإقرار بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم وأمن بعضهم، فذلك اختلافهم).^(٤) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^(٥) قال الواحدي: (نزلت في علماء أهل الكتاب، وكتمانهم آية الرجم، وأمر محمد ﷺ)^(٦) وقال أبو العالية: (نزلت في أهل الكتاب، كتّموا صفة محمد ﷺ، فأخبر الله تعالى أنه يلعنهم كل شيء على صنيعهم هذا، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، كما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر والطير في الهواء).^(٧) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكْتَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٨) ومعنى الآية الكريمة: إن اليهود

(١) القرطبي (١٠٨/١٦).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١٢٤/١، والقرطبي للجامع لأحكام القرآن (٢٠/٢).

(٣) سورة يونس: الآية ٩٣.

(٤) الطبري، جامع البيان (١٦٧/١١).

(٥) سورة البقرة: الآية ١٥٩.

(٦) الواحدي: أسباب النزول (ص ٤٦).

(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠٠/١).

(٨) سورة البقرة: الآية ١٧٤.

كنتموا صفة النبي ﷺ في كتبهم التي بأيديهم، مما تشهد له بالرسالة والنبوة، لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من سفلتهم - ومن العرب -، من هدايا على تعظيم آبائهم، فخافوا إن ظهر أمر هذا النبي أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكنتموا أمره للإبقاء على ما يحصل لهم، فهم بذلك باعوا أنفسهم بعرض من الدنيا، اعتاضوا به عن الهدى واتباع الحق، فاستحقوا بذلك أنواعاً من العذاب، منه أكلهم في بطونهم يوم القيامة ناراً متأججة، لقاء ما أكلوه في الدنيا، مقابل كتمانهم الحق. ^(١) وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ^(٢) جاء في التسهيل: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي لليهود، أخذ عليهم العهد في أمر محمد ﷺ فكنتموه، وهي عامة في كل من علمه الله علماً. ^(٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدُونَهَا وَتَخْفُونَ كَثِيرًا، وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ، قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ^(٤) ومعنى قوله تعالى: تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدُونَهَا وَتَخْفُونَ كَثِيرًا: أن اليهود كانوا يكتبون التوراة في قراطيس مقطعة، والقرطاس: ما يكتب فيه. ^(٥) فكان اليهود يكتبون في ورقات مفرقة يبدون منها ما يشاؤون ويخفون ما يشاؤون. ^(٦) ومما كانوا يخفونه: أمر محمد ﷺ كما قال ابن جرير. ^(٧) وكان اليهود يعاتب بعضهم بعضاً على إظهار أمر الرسول ﷺ أمام الملأ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٠٦).

^(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

^(٣) ابن جزى، التسهيل (١/ ١٢٦)، والطبري، جامع البيان (١/ ١٨٣).

^(٤) سورة الأنعام: الآية ٩١.

^(٥) الراغب، المفردات (ص ٤٠٢).

^(٦) الزمخشري، الكشاف (٢/ ٤٢).

^(٧) الطبري، جامع البيان (٧/ ٢٦٩).

بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون* أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون^(١) بل فعلوا أكثر من ذلك: فكفروا بالتوراة لأن فيها صفة النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾.^(٢)

(١) سورة البقرة: الآيتان ٧٦-٧٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠١.

المبحث الخامس: انحراف أهل الكتاب بشأن اليوم الآخر

- تمهيد:

عقيدة الإيمان باليوم الآخر مما دلّ عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، وردّ على منكريه في أغلب سور القرآن. ^(١) والكتب الإلهية تدعو جميعاً إلى عقيدة الإيمان باليوم الآخر، ومن ضمنها التوراة المنزلة على موسى، فقد اشتملت على هذه العقيدة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(٢) في حين أن التوراة الموجودة اليوم بأيدي اليهود لا تكاد تذكر شيئاً عن اليوم الآخر إلا بعض الإشارات الغامضة في بعض أسفارها، ويستحيل أن يُغفل الله هذا الأمر، ممّا يؤكد وقوع التحريف فيها، ومحاولة طمس عقيدة الإيمان باليوم الآخر، ومن النصوص التي تشير إلى اليوم الآخر في التوراة ما جاء في سفر دانيال: "كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبديّة، وهؤلاء إلى الازدراء بهم" ^(٣) وجاء في سفر التثنية: "أليس ذلك مكنوزاً عندي مختوماً عليه في خزانتي لي النعمة، والجزاء في وقت تزلّ فيه أقدامهم" ^(٤)! هذا النص وهو من التوراة العبرانية يلاحظ عليه أنه يجيز أن يكون الانتقام في الدنيا، ويجيز أن يكون في الآخرة. ونفس النص السابق في التوراة السامرية يصرّح بيوم القيامة، ففي سفر تثنية الاشرع الإصحاح الثاني والثلاثين: "أليس هو مجموعاً عندي مختوماً في خزانتي إلى يوم الانتقام والمكافأة، وقت تزلّ أقدامهم" فهذا تصرّيح واضح للغاية في إثبات التوراة السامرية ليوم

^(١) أبو جعفر الطحاوي، أحمد بن محمد بن سلامة، شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٠٤)، تحقيق جماعة من العلماء، المكتب الإسلامي، بيروت، (الطبعة الثامنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

^(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

^(٣) سفر دانيال (٣/١٢).

^(٤) سفر التثنية (٣٤/٣٢).

القيامة. ^(١) ونشير هنا إلى أن السامريين يعتبرون توراتهم أقدم نسخة خطية على وجه الأرض. ^(٢) ويقول السامريون: إن النص السابق الذي يصرح بيوم القيامة حرّقه العبرانيون إلى يوم الجزاء، وبذلك يبقى متردداً بين أن يكون من أيام هذه الحياة الدنيا أو أن يكون يوم القيامة ^(٣) وجاء في سفر المزامير: "مثل الغنم إلى النار يساقون، الموت يرعاهم ويسودهم المستقيمون غداة وصورتهم تبلى، والهاوية مسكن لهم" ^(٤). ونلاحظ أن هذا النص يشير إلى الحشر في النار. ^(٥) ونلاحظ من خلال النصوص السابقة أن التوراة العبرانية لم تصرّح بيوم القيامة إلا في نص واحد فقط، أما باقي النصوص فهي غامضة، وهناك نصوص أخرى غامضة في التوراة أشارت إلى يوم القيامة. يقول بعض العلماء: اليهود يجمعون على إنكار البعث بعد الموت، وأن الحساب والعقاب في الدنيا فحسب ^(٦) فالأخيار والصالحون: يأخذون جزاءهم في الدنيا ثراءً ومالاً وصحةً.... وهكذا يتقبلون في نعم الدنيا باختلافها، أما الأشرار: فيجازون في الدنيا فقراً ومرضاً وقصراً في العمر، ومن مات فقد قامت قيامته، ولا قيامة ولا حساب بعد الموت؛ لأن اليهود يعتقدون أنهم شعب مختار مميّز على سائر الشعوب، وشعب هذا شأنه كيف يقف للحساب يوم القيامة مع سائر البشر وهم دونهم في درجات الإنسانية. ^(٧) إن عقيدة البعث عند اليهود تعرضت للتذبذب طبقاً لظروفهم الخاصة، مثلها مثل قضية الألوهية، فتارة تجد اليهود يؤمنون بالإله الواحد، وتارة يؤمنون به بصفة الإله الشعبي الخاص باليهود، وكذلك قضية البعث! ففي عصور

(١) الأشرقر، د. عمر سليمان، اليوم الآخر، القيامة الكبرى (ص ٩٢)، دار النفائس، عمان، (الطبعة الرابعة للـ١٤١١هـ - ١٩٩١م).

(٢) للشريفة، د. محمد، الطائفة السامرية (٦٠).

(٣) السقا، نقد التوراة (ص ٢٤١).

(٤) سفر المزامير (١٤/٤٩).

(٥) الأشرقر، د. صر، اليوم الآخر - القيامة الكبرى - (ص ٩٣).

(٦) فهناك مثلاً: الفريسيون: إحدى الفرق اليهودية التي تصوّر البعث تصويراً نبيوياً لا أخروياً. انظر السيد صالح العقيدة اليهودية (ص ٣٤٦).

(٧) المصدر السابق (ص ٣٤٥ - ص ٣٤٨).

الأمان والرخاء ينكر اليهود الحياة الأخروية ويقولون إن الجنة هي هذا النعيم المادي الذي هم فيه، وفي عصور الضنك والشدة والتشرد يثبتون عقيدة البعث، بعد أن تكون قلوبهم قد امتلأت غيظاً وحنقاً على هذه الحياة، فيلقون بأطماعهم الى ما وراء هذه الحياة، أملاً في حياة كريمة بعد الموت وهيئات هيات! ويؤكد ولديورانت هذا القول في كتابة قصة الحضارة فيقول: (ولم تدر فكرة البعث في اليهود إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان في هذه الأرض).^(١) إذن نحسن أمام إنكار لليوم الآخر في أكثر مراحل تاريخهم، الذي اتسم بالتشرد والضياع، تحقياً لقضائه تعالى فيهم، بعد أن نقضوا العهود والمواثيق:

اتحراف عقيدة اليهود في اليوم الآخر حتى في أحسن أحوالهم الإيمانية:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَأَذَّنَ رَبِّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾^(٢) ومن الملفت للنظر أن اليهود حتى في فترات إيمانهم باليوم الآخر والجنة والنار والحساب والعقاب لم يكن هذا الإيمان سليماً عند أكثرهم، بل كان مشوهاً ومنحرفاً حيث ظنوا أن الجنة لن يدخلها إلا اليهود، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، وأما غيرهم من البشر فمصيره النار، كما حكى الله عنهم، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة التالية حيث كشفت انحرافهم بشأن اليوم الآخر ثم كررت عليه بالإبطال فأخرست ألسنتهم: قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً، قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً قُلْنَ يَخْلَفُ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣) ذكر المفسرون في سبب نزول الآيات السابقة آثاراً منها: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم

(١) السيد صالح، العقيدة اليهودية (ص ٢٤٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٧.

(٣) سورة البقرة: الآية (٨٠ - ٨٢).

رسول الله ﷺ المدينة ويهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا، يوم واحد في النار من أيام الآخرة، فإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمْسَا النارَ إِلَّا أَياماً معدودة ﴾^(١) وأخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود قالوا لن ندخل النار إلا تحلة التسم، الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلة، فإذا انقضت انقطع عنا العذاب فنزلت الآية.^(٢) وأخرج كذلك عن ابن زيد قوله: "حدثني أبي: أن الرسول ﷺ قال لليهود: "أنشدكم بالله، وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء، من أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة؟ قالوا: إن ربهم غضب عليهم غضبة، فمكث في النار أربعين ليلة ثم نخرج، فتخلفوننا فيها، فقال رسول الله ﷺ: كذبتم والله، لا نخلفكم فيها أبداً فنزل القرآن تصديقاً لقول النبي ﷺ وتكذيباً لهم، نزل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمْسَا النارَ إِلَّا أَياماً معدودة.....إلى قوله هم فيها خالدون ﴾^(٣) فهذه الآية إخبار من الله تعالى عن اليهود، فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً قلائل، ثم ينجون منها. ^(٤) لقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ لهم " قل أتخذتم عند الله عهداً" أي هل أعطاكم الله العهد والميثاق بذلك؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك " فلن يخلف الله عهده" لأن الله لا يخلف الميعاد: "أم تقولون على الله ما لا تعلمون"؟ أم أنكم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله، والكذب والبهتان عليه عز وجل ^(٥) وأبطل القرآن الكريم دعواهم هذه بأصل عام يشملهم ويشمل غيرهم فقال تعالى: ليس الأمر كما تدعون، بل الحق أن من كسب سيئة وأحاطت به

(١) الواحدي، أسباب النزول (ص ٢٩-٣٠).

(٢) السيوطي، لباب النقول (ص ١٤).

(٣) الطبري، جامع البيان (١/٣٨٢).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١١٨).

(٥) المصدر السابق (١/١١٨).

خطيئته، فغمرته من جميع جوانبه، فسنت عليه مسالك النجاة، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود: " فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" أي: فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً. ^(١) فادعاء دخول الجنة والبعد عن النار لا يفيد هنا، إنما الذي يفيد هو الإيمان والعمل الصالح، واليهود بعيدون عن ذلك كل البعد: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون". وفي معنى الآيات السابقة قوله تعالى عن اليهود: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ ^(٢) وهؤلاء هم أحبار اليهود، أوتوا نصيباً وافراً من التوراة، وفي الآية تعجيب من أمر هؤلاء اليهود، للذين أوتوا نصيباً من الكتاب، لتولي فريق منهم وهم أحبارهم، وعلمائهم ورفضهم التحاكم إلى كتابهم الذي بين أيديهم، وهو التوراة التي يعتقدون صحتها، ثم إعراضهم بعد ذلك عن قبول حكم الله، كما جاء في التوراة، ولكن ذلك ليس غريباً عليهم: لأن طبيعتهم الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل. ^(٣) وإنما حمل هؤلاء وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم من أنهم لن يعذبوا في النار إلا أياماً قليلة: "ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات" ^(٤) وقد ثبتوا على باطلهم هذا، بسبب ما خدعوا به أنفسهم من أن النار لن تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهذا الافتراء إنما اختلقوه من تلقاء أنفسهم، ولم ينزل الله به سلطاناً. ^(٥) وقوله تعالى: "وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون" أي أصاب موضع الغرة والغفلة منهم في دينهم. ^(٦) نعم، لقد

^(١) طنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ٥٣٩).

^(٢) سورة آل عمران: الآية (٢٣-٢٤).

^(٣) الزمخشري، الكشاف (٣٧٦-٣٧٧) وقطب، الظلال (٣٨٢/١).

^(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٥/١).

^(٥) للمرجع السابق (١٥٦/١).

^(٦) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٤٤).

أخبر الله تعالى عن مفسد هذا الغرور والافتراء بأيقاعهم في الضلال الدائم، لأنّ المخالفة إذا لم تكن عن غرور فالإقلاع عنها مرجو، أمّا الغرور فلا يترقب منه إقلاع.^(١) ثمّ توّعه الله تعالى لقاء تقولهم عليه، فقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوَفَّيْتُمْ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢) أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله، وكذبوا رُسُلَه، وقتلوا أنبياءه والأمريين لهم بالمعروف والناهيين عن المنكر، فإنّ الله سألهم عن ذلك كلّه ومجازيهم عليه.^(٣) وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾^(٤) تشير هذه الآية إلى انحراف آخر من انحرافات أهل الكتاب بشأن اليوم الآخر وهو: أنّ اليهود قالوا: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان يهودياً، وهنا لا بدّ أنّ نبيّن أنّ هذه المقولة صادرة عن بعض فرق اليهود، وهؤلاء يسمّون بالكتبة، وهناك الصدوقيّون الذين لا يؤمنون بالبعث أو الخلود في الجنّة أو النار، وقد ذكر إنجيل متى أنّ الطائفة المكذّبة بالقيامة جاؤوا إلى عيسى ﷺ وجادلوه في القيامة: (في ذلك اليوم جاء إليه صدوقيّون، الذين يقولون ليس قيامة).^(٥) فإن قيل: كيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر، مع أنّ اليهود يعتقدون أنه لن يكون للنصارى من نصيب في الثواب، والنصارى يعتقدون مثل ذلك في اليهود، فهما على طرفي نقيض؟ أجيب عن ذلك: إنّما عنى الله بهذا الكلام أنّ اليهود قالت: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان نصرانياً، ولكنّ الكلام لما كان مفهوماً عند المخاطبين به، جمع الله تعالى الفريقين في الخبر عنهما فقيل: "لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هوداً أو نصارى".^(٦) وقد فنّد القرآن الكريم هذه

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢١١/٣).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٢٥).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٦/١).

(٤) سورة البقرة: الآية (١١١).

(٥) متى، الإصحاح (٢٣/٢٢).

(٦) الطبري، جامع البيان (٤٩٢/١).

الدعوى الباطلة من كلا الفريقين: بأن هذه الدعوى ما هي إلا أمنية تمنوها على الله بغير حق وسولتها لهم أنفسهم، وزينها لهم الشيطان، بعد أن استحوذ عليهم، فخدعهم بالأباطيل والأكاذيب. ^(١) فإن قال قائل: لم جمع أمانيتهم، مع أن قولهم: "لن يدخل الجنة أمنية واحدة؟" قيل إنه أشير بها إلى الأمانى المذكورة: وهي أمانيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمانيتهم أن يرتوهم كفاراً، وأمانيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم! إلا أن العلامة ابن المنير المالكي: يرى أن المشار إليه أمنية واحدة، ولكنها جمعت لشدة تمنيتهم لهذه الأمنية، ومعاودتهم لها، وتأكيدها في نفوسهم، ليفيد هذا الجمع أنها متأكدة في قلوبهم، بالغة منهم كل مبلغ، فالجمع يفيد كل ذلك وإن كان مؤداه واحداً. ^(٢) وقد طالبهم القرآن كذلك بتقديم أي برهان لإثبات ما يدعون فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٣) أي: قل يا محمد ﷺ لهؤلاء الزاعمين أن الجنة خالصة لهم من دون الناس: هاتوا دليلكم وحجتكم على ما تقولون، إن كنتم صادقين في دعواكم، لأن دعواهم دخول الجنة لا تثبت إلا بوحى من الله، لا بمجرد التمني، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يطالبهم بالدليل على ذلك من كتبهم، وكتبهم خالية مما يدل على صحة دعواهم. ^(٤) وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين: "وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى" إلى إحضار حجة على دعواهم، فإنه بمعنى التكنيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم، لأنهم ليسوا بقادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبداً. ^(٥) لقد أرسى القرآن الكريم قاعدة كلية رتب دخول الجنة على الإيمان بالله والعمل الصالح، بلا محاباة لأمة أو لجنس أو لطائفة، قال تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٥٤). وطنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ٥٧٠).

^(٢) ابن المنير المالكي، الانتصاف بحاشية الكشاف (١/٢٠٣).

^(٣) سورة البقرة: الآية (١١١).

^(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل في القرآن والسنة (ص ٥٧١).

^(٥) الطبري، جامع البيان (٤٩٣/١).

عليهم ولا هم يحزنون ﴿^(١) والمعنى: بل يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله، وهو مؤمن ومصطفى بما جاء به محمد ﷺ ومتبوع لدينه، هذا هو الذي يدخل الجنة، ولا خوف عليه من دخول النار. ^(٢) وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أبطلت دعوى أهل الكتاب، في أن الجنة لهم من دون الناس، وبينت أن هذه الدعوى ما هي إلا من قبيل الأمانى والأوهام، التي لا تستند إلى دليل صحيح، ومن ثم بينت الآيات أن المستحقين للجنة هم الذين أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له دينهم، وليس اليهود والنصارى أصحاب الدعوى السابقة. وهناك آية أخرى رتت على اليهود مزاعمهم في أن الجنة خالصة لهم هي قوله تعالى: ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة خالصة عند الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ ^(٣) فكل من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من هذه الحياة الدنيا، لما يصير إليه من نعيم دائم، ويذهب عنه من أذى ونصب لكن اليهود أحجموا عن تمني الموت: لقبح أعمالهم، ومعرفتهم لكفرهم في قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وحرصهم على الدنيا، ولذلك أكنبهم الله تعالى فقال: ﴿ وإن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ ^(٤) ^(٥) والحقيقة أنهم أحرص الناس على حياة، وتكثير حياة بدل على التقليل والتحقير، فهم حريصون على أي حياة، مهما كانت حقيرة، المهم أنها حياة، فهل قوم هذا شأنهم يحبون الموت، أم هم يستحقون الجنة كما يزعمون؟! أما النصارى فإنهم يعتقدون أن الذي ينعم أو يعذب في القيامة هي الروح، وهي التي تبعث دون الجسد، لكلام صدر عن بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس في الإصحاح الخامس عشر. ^(٦) وهذه

^(١) سورة البقرة: الآية ١١٢.

^(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٢/٢).

^(٣) سورة البقرة: الآية ٩٤.

^(٤) سورة البقرة: الآية ٩٥.

^(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤/٢).

^(٦) انظر: رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح الخامس عشر (٤٤-٥٠).

نصوص من الأناجيل تشير إلى البعث والحساب: جاء في إنجيل لوقا: "ومات الغني أيضاً ودفن، فرفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب".^(١) وجاء في إنجيل متى: "فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك، خيرٌ لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع، من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان"^(٢) وفي إنجيل متى كذلك قول عيسى : (قد سمعتم أنه قيل للقديس لا تزن، وأما أنا فأقول لكم، إن كل من ينظر إلى امرأة ليستهيها فقد زنى بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله في جهنم، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله في جهنم".^(٣) ومن أكثر الكتب التي تحدّثت عن الجنة والنار، إنجيل برنابا، فقد تحدّث عن نعيم أهل الجنة وأنهم يأكلون ويشربون، ولا يتغوطون ... ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل ولا يعترفون به.^(٤)

(١) لوقا (١٦/٢٢-٢٣).

(٢) متى (١٨-٩).

(٣) متى (٥/٢٧-٣٠).

(٤) الأشقر، عمر، اليوم الآخر (٢)، القيامة الكبرى (ص٩٣).

الفصل الثاني: الاحرافات التشريعية عند أهل الكتاب :

المبحث الأول: احرافات أهل الكتاب في الميدان الاجتماعي.

المبحث الثاني: احرافات أهل الكتاب في الميدان الاقتصادي.

المبحث الثالث: احرافات أهل الكتاب في الميدان السياسي.

المبحث الرابع: احرافات أهل الكتاب في الميدان العسكري.

الفصل الثاني

- الانحرافات التشريعية عند أهل الكتاب -

- تمهيد:

إنّ سلوك الإنسان وأفعاله فرع عن معتقداته، وأفكاره، فإذا كان الفكر سليماً وسويّاً، وكانت العقيدة مرتبطة بخالق الأكوان، لا يشوبها الانحراف، جاءت النظم، والتشريعات مستقيمة، محققة لسعادة الإنسان في الدارين، أمّا إذا كان الفكر منحرفاً، والعقيدة مشوهة، كما هو الحال عند أهل الكتاب، فإنّ التشريعات المنبثقة عن هذه العقائد ستأتي منحرفة كذلك، ولن يجني أصحابها إلاّ الوبال، وهذا هو موضوع حديثنا في هذا الفصل. وسنتحدّث في هذا الفصل بإذن الله عن انحرافات أهل الكتاب في الميدان الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والعسكري، وبالله التوفيق.

المبحث الأول: انحرافات أهل الكتاب في الميدان الاجتماعي.

إنّ الشريعة التي أوحى بها الله سبحانه لنبيه موسى ﷺ هي أفضل الشرائع، وأنسبها للقوم الذين أرسله إليهم، ألا وهم بنو إسرائيل قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرِّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾^(١) ثم أرسل الله تعالى لبني إسرائيل عيسى ﷺ ليجدد العهد فيهم وأنزل عليه الإنجيل لكنّ بني إسرائيل كعادتهم لم يتركوا شيئاً كما جاءهم به أنبياءهم (عليهم السلام) بل غيروا وبتلوا، وزاندوا ونقصوا، وانحرفوا عن هذه الشرائع، ومن ذلك انحرافهم في

(١) سورة المائدة: الآية (٤٤).

الميدان الاجتماعي، ويشمل هذا الانحراف: انحراف أهل الكتاب في العبادة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإساءة للوالدين والأقربين وتقطيع الأرحام، وتقسيمهم الناس إلى طبقتين طبقة الأشراف وهم أغنياء القوم وسادتهم، وطبقة العامة وهم الفقراء.

١. انحراف أهل الكتاب في العبادة:

ابتداع النصراني للرهبانية: قال تعالى: ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسنا، وقفينا بعيسى ابن مريم، وآتيناها الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾^(١) رهبانية بفتح الراء مشتقة من الرهب، أي الخوف الشديد من غضب الله تعالى، أو من مخالفة الدين الحق.^(٢) ويرى الزمخشري: أن الرهبانية مشتقة من الرهب، أي: الخوف من الجبابرة الذين لم يؤمنوا بعيسى ﷺ، وقد ظهر الجبابرة على المؤمنين بعيسى فقاتلهم ثلاث مرات، فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتوا في دينهم، فاختاروا الرهبانية، وهي ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين.^(٣) والرهبانية: غلو في تحمل التعبد من فرط الرهبة.^(٤) والرهبانية: اسم للحالة التي يكون الراهب متصفاً بها في غالب شؤون دينه، والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس، لأن قياس النسب إلى الراهب الراهبية، والنون فيها مزيدة للمبالغة في النسبة كما زيدت في قولهم: شعراني: لكثير الشعر، ولحياني لعظيم اللحية.^(٥) والراهب يمتنع من التزوج خيفة أن تشغله زوجه عن عبادته، ويمتنع من مخالطة الأصحاب خشية أن يلهوه عن العبادة، ويترك لذات المأكول والملبس خشية الوقوع في اكتساب المال الحرام،

(١) سورة الحديد: الآية (٢٧).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٢٢/١٣).

(٣) الزمخشري، الكشاف (٤٧٩/٤).

(٤) الراغب، المفردات (ص ٢١٠).

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٢٠ / ١٣).

وإنما أرادوا بذلك التشبه بعيسى ﷺ، في زهده وتركه للزواج، وقوله تعالى: "ابتدعوا" أي أحدثوها. ^(١) فالبدعة هي: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه. ^(٢)

وخلاصة تفسير هذه الآية: يقول الله تعالى ثم اتبعنا على آثار نوح وإبراهيم بُرسلنا موسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء (عليهم صلوات الله وسلامه). وبقي الرُّسُل يتتابعون رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، وهو من نرية إبراهيم ﷺ من جهة أمه، وأنزلنا عليه الإنجيل وجعلنا في قلوب أتباعه من الحواريين وأتباعهم ليناً وشفقةً وخشية، حيث إن تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى ﷺ أمرتهم بالتخلق بالرفقة والرحمة كما أن متابعتهم لسيرة عيسى ﷺ رسخ هذه الأخلاق في قلوبهم ويسرها الله لهم. ^(٣) ومعنى قوله تعالى: "ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم" أي جاعوا بها من قبل أنفسهم، وما شرعها الله لهم، ولا فرضها عليهم، وإنما هم الذين التزموها من تلقاء أنفسهم. ^(٤) والإستثناء في قوله تعالى: "إلا ابتغاء رضوان الله" إما أنه استثناء منقطع، قاله سعيد بن جبير وقتادة، وقال الزجاج: "ما كتبناها عليهم" أي: لم نكتب عليهم شيئاً البتة. ^(٥) أي لم نكتب عليهم الرهبانية، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله. ^(٦) وإما أنه استثناء متصل، والمعنى: كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله. ^(٧) والقول الأول هو الأرجح، لقوله تعالى: "ابتدعوها"، ولقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "ما

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير (١٣/٤٢٢).

(٢) للشاطبي، إبراهيم بن موسى القرطبي، الاعتصام (٢٧/١) تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٧٠)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (١٣/٤٢١).

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/١٧٦).

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٧٠).

(٦) ابن جزّي، التسهيل (٤/١٠٠).

(٧) المصدر السابق (٤/١٠٠).

كتبناها عليهم لكن ابتدعوها، وقد اقتصر الزمخشري في تفسيره الكشّاف على القول الأول. ^(١)

وقد قيل: إن النصارى ابتدعوا الرهبانية: للانقطاع عن جماعات الشرك من اليونان والروم، وخوفاً من بطش اليهود طلباً لرضوان الله، كما حكى الله عن أصحاب الكهف ^(٢) ﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ﴾ ^(٣) وفي الحديث الشريف: "يوشك أن يكون خير مال الرجل غنماً يتتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن" ^(٤) وعليه فيكون تركهم التزوّج عارضاً اقتضاه الانقطاع عن المدن والجماعات، وأمّا ترك التزوّج فظنه الذين جاءوا من بعدهم أصلاً من أصول شريعة المسيح ﷺ وليس كذلك شأن عيسى ﷺ فلعله ترك التزوّج لعارض آخر، وليس ترك التزوّج من شؤون النبوة، فقد كان لجميع الأنبياء الأزواج والزرية، الصالحة، وغيرها، قال تعالى: ﴿وجعلنا لهم أزواجاً ونزيراً﴾ ^(٥) وقيل: إن الانقطاع عن اللذائذ وإغئات النفس، كان من وجوه التقرب إلى الله تعالى في بعض الشرائع الماضية، حتى جاء الإسلام وأبطل ذلك. ^(٦) هذا، وقد نهم الله تعالى على عدم التزامهم بهذه الرهبانية، فقال تعالى: ﴿فما رعوها حقّ رعايتها﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حقّ القيام، كما يجب على الناصر الوفاء بنذره، لأنه عهد مع الله لا يحقّ نكثه. ^(٧) فالكلام مسوق مساق اللوم على تقصيرهم، فيما التزموه أو نذروه. ^(٨) قال الإمام ابن كثير: (وهذا نمّ لهم من وجهين أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني: عدم قيامهم بما التزموه ممّا زعموا أنه قرينة إلى الله عز

٥٨٧٧٦٨

^(١) الزمخشري، الكشّاف (٤/٤٨٠).

^(٢) ابن عسور، التحرير والتتوير (١٣/٤٢٥).

^(٣) سورة الكهف: الآية (١٦).

^(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، باب، خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، برقم ٣٣٠٠، انظر: ابن حجر، فتح الباري (٦/٤٣١).

^(٥) سورة الرعد: الآية (٣٨).

^(٦) ابن عسور، التحرير والتتوير (١٣/٤٢٥).

^(٧) الزمخشري، الكشّاف (٤/٤٨٠).

^(٨) ابن عسور، التحرير والتتوير (١٣/٤٢٦).

(^١) وقال الإمام ابن جرير: (وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها بعض الطوائف التي ابتدعتها ، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر أنه أتى الذين آمنوا منهم أجرهم، فدل بذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتها، فلو لم يكن منهم من كان كذلك، لم يكن مستحق الأجر الذي قال جل ثناؤه: "فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم"، إلا أن الذين لم يرعوها حق رعايتها، ممكن أن يكونوا على عهد الذين ابتدعوها، وممكن أن يكونوا جاؤوا بعدهم، لأن الذين هم من أبنائهم إذا لم يكونوا رعوها، فجاز في كلام العرب أن يقال: لم يرعها القوم على العموم، والمراد بذلك البعض الحاضر). (^٢) وقال سيد قطب: (والراجح في تفسير الآية: أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى ﷺ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله، وابتعاداً عن أضرار الحياة، ولم يكتبها الله عليهم ابتداءً، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم، صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها، ويحافظوا على مقتضياتها، من تطهير وترفع، وقناعة وعفة، وذكر وعبادة، مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها، ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح، وأن يتخذها الكثير مظهراً عارياً من الحقيقة، فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم، والله تعالى لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال، ولا بالطقوس والمسوح، إنما يأخذهم بالعمل والنية، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك، وهو الذي يعلم ما في القلوب والصدور). (^٣) ثم ختمت الآية بقوله تعالى: "فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون" أي: أن الله تعالى أتى الذين آمنوا منهم بعيسى ﷺ، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ - لما بعثه الله - آتاهم أجرهم الذي يستحقونه

(^١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣١٥).

(^٢) الطبري، جامع البيان (٢٧/٢٤١).

(^٣) قطب، الظلال (٦/٣٤٩٥).

لقاء إيمانهم هذا، وكثير منهم فاسقون: بمعنى كافرين خارجين عن الإيمان، ووجه الله الذم لهم: على تقدير أن الاستثناء منقطع، أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية، معتقدين أنها طاعة وأن الله يرضاها، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية، يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه ديناً، وأما على القول بأن الاستثناء متصل، وأن التقدير: ما كتبناها عليهم بشيء من الأشياء إلا ليبغوا بها رضوان الله، بعد أن وقفناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر.^(١)

٢. ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١) قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾^(٢) في هاتين الآيتين الكريمتين يخبرنا الله تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل في الزبور والإنجيل.^(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل، وعلى عهد محمد في القرآن^(٤). ثم بيّن سبحانه سبب ذلك اللعن، وهو عصيانهم، واعتداؤهم. وفي الآية التالية وبّخهم الله تعالى حيث قال: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ فلم يكن ينهى بعضهم بعضاً عن فعل المأثم، وارتكاب المحرمات، وفي هذا التوبيخ إخبار بأمرين قبيحين أحدهما: أنهم كانوا يفعلون المنكر، والآخر: أنهم كانوا تاركين للنهي عنه، وعن أمثاله في المستقبل.^(٥) وروى أبو داود بإسناده عنه قال رسول الله: "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقي الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع

(١) الشوكاني، فتح التقدير (١٧٩/٥).

(٢) سورة المائدة: الأيتان (٧٨-٧٩).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٢/٢).

(٤) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط (٣٣٦/٤).

(٥) ابن المنير، الانتصاف (٦٩٩/١).

فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قرأ: "لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم" إلى قوله "فاسقون" ثم قال: كلاً والله لتأمرؤن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه^(١) على الحق أطراً، ولتقصرونه على الحق قصراً"^(٢) وروى الإمام أحمد بإسناده عن عدي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قانرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة"^(٣) وليس من شروط الناهي أن يكون سليماً عن معصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً.^(٤) ثم ختمت الآية بقوله تعالى: "لبنس ما كانوا يفعلون" نماً لهم تركهم النهي عن المنكر، وكذا من بعدهم ينم إذا فعل فعلهم.^(٥) قال الزمخشري: (هذا تعجيب من سوء فعلهم، مؤكداً لذلك بالقسم، فإيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير، وقلة اهتمامهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء، مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب، فإن قلت كيف وقع ترك التناهي عن المنكر تفسيراً للمعصية والاعتداء؟ قلت: من قبل أن الله تعالى أمر بالتناهي، فكان الإخلال به معصية وهو اعتداء، لأن في التناهي حسماً للفساد فكان تركه على عكسه، فإن قلت: ما معنى وصف المنكر بفعله، ولا يكون النهي بعد الفعل، قلت: معناه لا

(١) لتأطرنه: أي لتردنه عن الجور، وأصل الأطر: العطف أو التثبي، ومنه تأطرن العصى، وهو تثبيتها. (الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم، معالم السنن شرح أبي داود (٢٣٠/٤) دار ابن حزم، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي برقم ٤٣٣٦ (٣٢٩/٤-٣٣٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٧٧٢٠ (٢٥٨/٢٩).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٤/٦).

(٥) المرجع السابق (١٦٤/٦).

يتأهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله^(١).
وقال في البحر: (وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر، والتجاهر به، وعدم النهي عنه،
والمعصية إذا فعلت ينبغى أن يُستتر بها، فإذا فعلت جهاراً وتواطأ الناس على عدم
الإنكار، كان ذلك تحريضاً على فعلها، وسبباً مثيراً لإنشائها وكثرتها).^(٢)

٢) قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبرّ وتتسمون أنفسكم وأتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾^(٣)
البرّ أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو: ﴿إنه هو البرّ
الرحيم﴾^(٤) وإلى العبد تارة أخرى فيقال: برّ العبد ربّه أي توسع في طاعته فمن الله
تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة، وذلك ضربان: ضرب في الاعتقاد، وضرب في
الأعمال، وقد اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم﴾ الآية^(٥) والبرّ:
هو جماع الخير.^(٦) وقيل: البر هنا الطاعة والعمل الصالح.^(٧) وفي هذه الآية: يوبّخ الله
تعالى أهل الكتاب فالحمزة في كلمة "أتأمرون": للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم^(٨)
حيث كانوا يأمرون الناس بالبرّ ولا يأمرون به، وعبر سبحانه عن تركهم البرّ هنا
بقوله: ﴿وتتسمون أنفسكم﴾، فالنسيان هنا بمعنى الترك.^(٩) مع أنهم كانوا يقرعون
الكتاب، ويعلمون ما فيه من أوامر الله ونواهيه، وصاحب هذا الفعل يستحقّ أن يوصف
بالجنون فناسب خطابهم بالقول: "أفلا تعقلون" والعقل: هو المنع، أي أفلا تمنعون أنفسكم

(١) الزمخشري، للكشاف (١/ ٦٩٩ - ٧٠٠).

(٢) أبو حيان، البحر المحيط (٤/ ٣٣٧).

(٣) سورة البقرة: الآية (٤٤).

(٤) سورة الطور: الآية (٢٨).

(٥) الراغب، المفردات (ص ٥١).

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/ ٨٥).

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٥٠).

(٨) القاسمي، محاسن التلويل، (١/ ١١٨).

(٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٥٠).

من واقعة هذه الحال المردية لكم، فتعرفون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فنتبئوا من رقدتكم، وتتصروا من عميتكم.^(١) والمراد بهذه الآية علماء اليهود. ^(٢) قيل: كانوا يأمرن الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر، وبخالقون، فعبرهم الله عز وجل. وقيل: كانوا ينهاون الناس عن الكفر بما عندهم من النبوة والعهد من التوراة، ويتركون أنفسهم.^(٣) وبخالقونها في جدهم صفة محمد ﷺ، وقال ابن جريح: كان الأحبار يحضون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصي. ^(٤) وقال قتادة: كان بنو إسرائيل يأمرن الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر وبخالقون ذلك، فعبرهم الله عز وجل. ^(٥) وبالجملة فالمعاني كلها متقاربة، والغرض: أن الله تعالى نهم على هذا الصنيع، وبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرن بالمعروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب الأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم. ^(٦)

٣. الإساءة للوالدين والأقربين وتقطيع الأرحام !

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ . ^(٨) اختلف العلماء في زمن أخذ هذا الميثاق على بني إسرائيل، فقال بعضهم: هو الميثاق الذي أخذ عليهم وعلى غيرهم من الناس حين أخرجوا من

^(١) المرجع السابق (٢٥٠/١)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٥/١).

^(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٨/١).

^(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٨٥/١).

^(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤٨/١).

^(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٨٥/١).

^(٦) المرجع السابق (٨٥/١).

^(٧) الميثاق: هو العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد، فإن لم يكن مؤكداً سمي عهداً. للراغب، المفردات (ص ٥٢٧)،

والصابوني، صفة للتفسير (٦٥/١).

^(٨) سورة البقرة: الآية (٨٣).

صُلب آدم كالنَّزْر، وقال آخرون: هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على السنة أنبيائهم. ^(١) وفي هذه الآية يذكر الله تعالى بني إسرائيل بالعهد والميثاق الذي أخذ عليهم، والذي أمرهم الله فيه على السنة رسلهم وأنبيائهم ألا يعبدوا إلا الله، وبهذا أمر الله جميع خلقه، وقوله تعالى "لا تعبدون": إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد بذلك الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي. ^(٢) لقد أمرهم الله أن يحسنوا إلى الوالدين، وأن يحسنوا كذلك إلى الأقرباء، واليتامى، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب، وأن يقولوا للناس حسناً؛ بخفض الجناح، والخلق الكريم، ولين الجانب، والكلام الطيب النافع، وأن يصلّوا ويذكّوا، وأن يحافظوا على هذين الركنتين لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية. ^(٣) والمقصود ببني إسرائيل في الآية أي: سلفهم وخلفهم، لأن هذه الأوامر والنواهي التي تناولتها الآيات، والتي هي مضمون العهد المأخوذ عليهم، قد أخذت عليهم جميعاً - سلفاً وخلفاً - على لسان أنبيائهم ورسلهم. ^(٤) فهل حافظوا على عهدهم مع الله، وهل وفّوا بشيء مما أمرهم الله به، كلا لقد تولّوا وهم يعلمون، وتركوا العمل بما أمروا به. قال الشيخ محمد رشيد رضا عند تعليقه على قوله تعالى: ﴿ وأنتم معرضون ﴾ (قد يتولّى الإنسان منصرفاً عن شيء، وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، فليس كل متولٍّ عن شيء معرضاً عنه، أو مهملًا له على طول الدوام، لذلك كان نكر هذا القيد: " وأنتم معرضون" لازماً لا بد منه، وليس تكراراً كما يتوهم ... لقد كان سبب ذلك التولي مع الإعراض: أن الله أمرهم ألا يأخذوا الدين إلا من كتابه، فاتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، يحلّون برأيهم، ويحزّون، ويبيحون باجتهادهم، ويحظرون، ويزيدون في الشرائع

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢).

(٢) الزمخشري، الكشاف (١٨٦/١).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢ - فما بعدها).

(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٣٩٥).

والأحكام، ويضعون ما شاعوا من الشعائر، فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء، شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، فإن الله هو الذي يضع الدين وحده، وإنما العلماء أدلاء يُستعان بهم على فهم كتابه، وما شرع على السنة رُسُلُه^(١) قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى فَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْتَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾^(٢) ومعنى هذه الآيات أي: أنكروا يا بني إسرائيل لتعتبروا وتتعضوا، حين أخذ الله عليكم العهد في التوراة، ألا يقتل بعضكم بعضاً ولا ينفيه، ولا يسترقه، ولا يدعه يسرق.^(٣) ثم أقررت بهذا الميثاق وألزمت به أنفسكم، وأنتم تشهدون عليها، وقيل: معناه وأنتم تشهدون اليوم يا معشر يهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.^(٤) وقد أورد سبحانه النهي عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم، بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثراً شريفاً، يعيها على الامتثال، إن كان هناك قلب يشعر أو وجدان يتأثر، فقال تعالى: ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ : حيث جعل الله دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى إذا سفكه كان كأنه سفك دم نفسه، وانتحر بيده، وعلى هذا النسق قال تعالى: "وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ" وهذا تعبير قرآني معجز في بلاغته.^(٥) ثم وبّخهم الله ... ثم نقضتم الميثاق كعادتكم يا معشر اليهود بعد إقراركم به، فارتكبتم ما نهيتم عنه من قتلكم إخوانكم في الملة والدم،

(١) رضا، تفسير المنار (١/٣٦٩).

(٢) سورة البقرة: الآيات (٨٤-٨٥).

(٣) القرطبي، الجملع لأحكام القرآن (٢/١٥).

(٤) الزمخشري، الكشاف (١/١٨٧).

(٥) رضا، تفسير المنار (١/٣٧٢).

وأخرجتموهم من ديارهم وأوطانهم، فتعاونتم عليهم بالمعصية، والظلم، فإذا وقعوا في الأسر فادبتموهم، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر، وهو محرّم عليكم إخراجهم، فكيف تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟^(١) هذا هو التناقض بعينه! "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض" فكيف تؤمنون ببعض أحكام التوراة وهو مفاداة الأسرى،^(٢) وتكفرون ببعض أحكامها؛ كالتقتل والإخراج من الديار؟ والغرض من ذلك هو التوبيخ، لأنهم جمعوا بين النقيضين الكفر والإيمان، والكفر ببعض آيات الله كفر بالكتاب كله، ولهذا عقّب الله تعالى على ذلك وعلى نقضهم للميثاق بقوله: "فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا"، وجزاء من ينقض العهد والميثاق ويؤمن ببعض الكتاب، ويكفر ببعض جزاؤه ذل وهوان، وغضب في الدنيا، "ويوم القيامة يرتون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون"، ثم في الآخرة يرتون إلى عذاب أشدّ منه، عذاب دائم لا ينقطع.^(٣) مع التهديد الخفي بأن الله تعالى ليس غافلاً عنه ولا متجاوزاً،^(٤) والموصوفون بهذه الأوصاف القبيحة، هم الذين اختاروا وأثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولو لساعة واحدة، وليس لهم من ينصرهم أو ينقذهم من هذا العذاب الأليم.^(٥) أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون". يرى كثير من المفسرين: أن هذه الآيات تتحدث عن اليهود الذين كانوا في المدينة، في زمن رسول الله ﷺ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أنّ الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية مشركين وعبدة أوثان، وكان هذان الحيان أشدّ ما يكونا حينئذ من العرب عداً، وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء، وتربطهم عهود مع هذين الحيين، فكان بنو

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢١).

(٢) قطب، في ظلال القرآن (١/٨٨).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢١-١٢٢).

(٤) قطب، في ظلال القرآن (١/٨٨).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٢).

قَيْنَقَاعَ وَبَنُو النَّضِيرِ حَلْفَاءَ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ بَنُو قَرِيظَةَ حَلْفَاءَ الْأَوْسِ، فَكَانَتِ الْحَرْبُ إِذَا نَشِبَتْ بَيْنَهُمْ، قَاتِلَ كُلِّ فَرِيقٍ مَعَ حَلْفَائِهِ، فَيَقْتُلُ الْيَهُودِيَّ أَعْدَاءَهُ وَقَدْ يَقْتُلُ الْيَهُودِيَّ يَهُودِيًّا مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ، وَهَذَا مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ، بِنَصِّ مِيثَاقِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَكَانُوا يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ بِيوتِهِمْ وَدِيَارِهِمْ، إِذَا غَلَبَ فَرِيقُ الْآخَرِ، وَيَنْهَبُونَ أَمْوَالَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ أَسْرَاهُمْ، وَهَذَا حَرَامٌ عَلَيْهِمْ بِنَصِّ التَّوْرَةِ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، فَكُتِبَ أَسْرُ الْمَأْسُورِينَ مِنَ الْيَهُودِ عِنْدَهُمْ أَوْ عِنْدَ حَلْفَائِهِمْ أَوْ أَعْدَاءِ حَلْفَائِهِمْ، عَمَلًا بِحُكْمِ التَّوْرَةِ، لِذَا وَبَّخَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَمَّاهُمْ. (١)

٤. تقسيم الناس على غير أساس التقوى:

فَقَدْ قَسَمُوا النَّاسَ إِلَى طَبَقَتَيْنِ طَبَقَةُ الْأَشْرَافِ، وَهِيَ أَغْنِيَاءُ الْقَوْمِ وَسَادَتُهُمْ، وَطَبَقَةُ الْعَامَةِ، وَهِيَ الْفُقَرَاءُ، وَأَحْقِيَّةُ الْأَشْرَافِ بِالْمَلِكِ دُونَ الْعَامَةِ! وَيَبْدُو هَذَا الْأَمْرَ جَلِيًّا وَاضِحًا فِي قِصَّةِ طَالُوتَ، وَالَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَكُونَ مَلِكًا عَلَيْهِمْ، يَقُودُهُمْ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَيْثُ طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْ أَحَدِ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﷺ، ثُمَّ اعْتَرَضَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَلِكِ طَالُوتَ، لِأَنَّ الْمَلِكَ عِنْدَهُمْ مُؤَهَّلَاتٌ خَاصَّةٌ، قَالَ تَعَالَى مَبِينًا هَذِهِ الرِّذِيلَةَ مِنْ رِذَائِلِهِمْ: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا، قَالُوا أَنَا يَا يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً (٢) فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. (٣) لَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَيْثُ طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّ لَهُمْ (٤) - مِنْ بَعْدِ مُوسَى - أَنْ يَخْتَارَ لَهُمْ مَلِكًا يَقُودُهُمْ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٠). وقطب، الظلال (١/٨٨).

(٢) البسطة: هي لسم من البسط، وهي السعة والانتشار، فالبسطة، الوفرة، والقوة من الشيء، (ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢/٤٩٢).

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(٤) للصنعاني، عبد الرزاق بن همام ت ٢١١هـ، تفسير القرآن (١/٩٧)، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشيد، الرياض، (الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ).

سبحانه إلى نبيهم أنه اختار لهم طالوت ملكاً. وطالوت هذا رجل من عامة بني إسرائيل وليس من الملأ الأشراف، ولا من الأسر المتنفذة، ولا من أصحاب الجاه والمال والزعامة، ولا نجد في مصادرنا الإسلامية الموثوقة خبراً صحيحاً عن بيعة طالوت، ولا عن أسرته، ولا عن بداية أمره، فلا نعرف تفاصيل ذلك وكل ما نعرف عنه أنه رجل صالح، وأنه من عامة بني إسرائيل، اصطفاه الله عليهم، وفضله على زعماتهم، وآتاه الله بسطة في العلم والجسم، وجعله أول ملك فيهم. ^(١) فماذا كان موقف الملأ من بني إسرائيل من هذا الاختيار؟ لقد اعترضوا على ملك طالوت، ويبدو أن نبيهم كان يتوقع ذلك منهم، فأنبياء بني إسرائيل يعرفون طبيعة قومهم المتقلبة، وسوء نظرهم لأوامر الله، والتعامل معها بمزاجية؟ ولهذا كانوا يؤكدون لهم دوماً أن مصدر هذه الأوامر هو الله العليم الخبير، وليست من عند أنفسهم من هنا أكد لهم نبيهم أن الله سبحانه هو الذي اختار طالوت ليكون ملكاً عليهم، وهو إنما يبلغهم أمر الله ووحيه، وبالتالي فإن اعتراضهم على ملك طالوت، هو في الحقيقة اعتراض على الله سبحانه، ورفض لاختياره تعالى، فهم يريدون غير ما أراه الله، ويختارون غير ما اختاره العليم الخبير. ^(٢) لقد وجهوا كلامهم لنبيهم معترضين ومنكرين لهذا الاختيار: "قالوا أنا يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال!" فالعمدة في اختيار طالوت ملكاً عليهم أمران: الأول: العلم ليتمكن من معرفة أمور السياسة، والأمر الثاني: قوة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد، وقد خصه الله منهما بحظٍ وافر. ^(٣) ومن هنا ينبغي أن يكون الملك ذا

^(١) لخالدي، التخصيص القرآني (٣/٣٧٦).

^(٢) المصدر السابق، (٣/٣٧٦-٣٧٧).

^(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/١٦١).

علم وشكل حسن، وقوة شديدة في بدنه ونفسه. ^(١) فالجملة الكريمة: 'وزاده بسطة في العلم والجسم' تدلنا على المؤهلات المطلوبة والصفات الضرورية، التي لا بد من وجودها في كل من ولي أمور الناس، أو كان قائداً حاكماً، فيجب أن يتوفر في القائد الناجح: الجانب المعنوي النفسي: وهو "البسطة في العلم"، بمعنى أن يتمتع بموهبة وفطنة وذكاء وبصيرة، وعقلية علمية واعية، يحسن فهم الأمور والتعامل معها، والجانب المادي: وهو "البسطة في الجسم"، بمعنى أن يتمتع بجسم سليم قوي، ليتمكن من القيام بواجبه، وقتال أعدائه، والحكمة تقول: العقل السليم في الجسم السليم. ^(٢) والله تعالى مالك الملك، يعطي الملك لمن يشاء من عباده، من غير إرث ولا مال، وهو سبحانه واسع الفضل، عليم بمن هو أهل للملك فيعطيه إياه. ^(٣) وهكذا كشفت الآية الكريمة هذا الانحراف الاجتماعي عند بني إسرائيل، ومقياسهم الخاطئ في اختيار القائد أو المسؤول، ثم أبطلت هذا الانحراف، مبيّنة أن الملك ليس ميراثاً يورث من الأجداد والآباء وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء، ^(٤) وحتى يزيل نبيهم ما علق في نفوسهم من اعتراض، قدم لهم آية ومعجزة تدل على أن الله قد رضي لهم طالوت ملكاً. ^(٥) وكانت معجزته: أن يأتيهم التابوت فيه سكينه من ربهم، وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، وتمت المعجزة فخضع القوم لملكهم طالوت على مضض، وهذا ما سنبيّنه لاحقاً عند حديثنا عن انحرافات أهل الكتاب في الميدان العسكري. وإنما قالوا ذلك لأن النبوة كانت في سبط لاوي ابن يعقوب، والملك في سبط يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد السبطين. ^(٦) فهم يرون أن هناك من أبناء

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠١/١).

^(٢) الخالدي، القصص القرآني (٣٧٩/٣-٣٨٠).

^(٣) المصدر السابق (٣٨٠/٣).

^(٤) الخالدي، القصص القرآني (٣٨٠/٣).

^(٥) المصدر السابق (٣٨٠/٣).

^(٦) الزمخشري، الكشاف (٣٢٠/١).

الملوك من هو أولى بالملك منه على حدّ زعمهم، ويلاحظ أنّ ميزانهم في اختيار الزعيم والقائد، فيه جاهلية، ومؤهلات الملك عندهم مؤهلات جاهلية، فالملك هو من كان من نسل الملوك ومن أبناء الأسرة الحاكمة وهذان المؤهلان: بيت الملك، وسعة المال، أمران خارجان عن شخصية الإنسان، فأين مؤهلاته النفسية الداخلية؟ وأين مواهبه الفردية المعنوية، أين علمه وفطنته ونكاؤه، وصحته؟ أين كيانه وشخصيته؟ لا قيمة لذلك كله عندهم، المهم أسرته وماله! (١) ولقد ردّ عليهم نبيهم اعتراضهم هذا مصححاً لهم مفهومهم الخاطي ومبيناً لهم المؤهلات القيادية التي امتاز بها طالوت، وهذا هو الميزان الإيماني الذي ينبغي أن يوزن به القادة والملوك، والذي يقوم على المؤهلات الذاتية الداخلية المعنوية، التي يتمتع بها من يكون ملكاً قائداً. (٢) وحتى يزيل نبيهم اعتراضهم ونكوصهم، أكد لهم أنّ الله هو الذي اصطفاه عليهم واختاره لهم، وهو أعلم بالمصالح، ولا اعتراض على حكم الله. (٣) "إنّ الله اصطفاه عليكم..." لقد تضمّنت الآية بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا بالنسب، فلا حظ للنسب فيها مع العلم وفضائل النفس، وأنها بمنقمة عليه، لأنّ الله أخبر أنه اختاره عليهم لعلمه وقوته، وإن كانوا هم أشرف نسباً. (٤)

(١) الخالدي، القصص القرآني (٣/٣٧٨).

(٢) للمصدر السابق (٣/٣٧٨).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢/٤٩٢).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/١٦١).

المبحث الثاني: اتحرافات أهل الكتاب في الميدان الاقتصادي.

وفيه:

١. أكلهم السحت.
 ٢. أخذهم الربا.
 ٣. أكلُ عُلَمائهم أموال الناس بالباطل.
 ٤. تحايلهم على الحرام.
- أكلهم السحت:

السحت لغة: الهلاك والشدة والاستئصال،^(١) قال تعالى: ﴿ فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ ﴾^(٢) يُقال: سحته وأسحته، ومنه السحت، للمحظور الذي يلزم صاحبه العار، كأنه يُسحت دينه ومروءته، قال تعالى: ﴿ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾^(٣) أي لما يسحت دينهم.^(٤) والسحت: هو كل ما لا يحل كسبه، وهو من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة.^(٥) فالسحت يشمل جميع المال الحرام، كالربا، والرشوة، وأكل مال اليتيم، والمغصوب ... الخ.^(٦) وسُمي المال الحرام سحتاً: لأنه يسحت الطاعات، أي يذهبها ويستأصلها.^(٧)

١. قال تعالى: ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً، وَإِنْ حَكَمْتَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ بِحَبِ

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة سحت (١٨٦/٦).

(٢) سورة طه: الآية ٦٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٢.

(٤) الراغب، المفردات (ص ٢٣١).

(٥) الزمخشري، الكشاف (١/٦٦٧).

(٦) ابن عثور، التحرير والتنوير (٤/٢٠٢).

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/١١٩).

المقسطين»^(١) في هذه الآية إخبار من الله سبحانه وتعالى عن رذيلتين من رذائل اليهود، الأولى: سماعهم للكذب، وجاءت بصيغة المبالغة "سماعون" والسماع: الكثير السمع، أي: الاستماع لما يقال له، ومعنى الآية أن اليهود يصغون إلى الكلام الكذب، وهم يعلمونه كذباً، فهم يحفلون به ويتطلبونه، فيكثر سماعهم إياه، وهذا كناية عن نفسي الكذب في جماعتهم بين سامع ومخفق، لأن كثرة السمع تستلزم كثرة القول، والمراد بالكذب، كذب أخبارهم الزاعمين أن حكم الزنى في التوراة: التحميم.^(٢) وجاءت هذه الآية تنمة لمعنى الآيات التي قبلها، في نفس السياق. أما الرذيلة الثانية، فهي أكلهم السحت، حيث كانوا يأخذون الرشاً على الأحكام وتحليل الحرام، وعن الحسن قال: (كان الحاكم في بني إسرائيل إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في كفه فأراها إياه، وتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه فيأكل الرشوة، ويسمع الكذب).^(٣) ثم خير الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يحكم بين هؤلاء اليهود فيما شجر بينهم من خصومات، وأن يكون حكمه بينهم بالعدل، أو أن يعرض عنهم، وإن أعرض عنهم فلن يضروه شيئاً، لأن الله تعالى يعصمه من الناس.^(٤) قال تعالى: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ أي إن جاءوك يتحاكمون إليك، فلا عليك ألا تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم.^(٥)

٢. قال تعالى: ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت، لبئس ما كانوا يعملون* لولا إنهمم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما

(١) سورة المائدة: الآية ٤٢.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٩٩/٤). والتحميم هو: تسخيم الوجه بالحُمم، وهو الفحم فيصبح لسوداً. (ابن منظور، لسان العرب (٣/٣٤٣).

(٣) للزمخشري، للكشاف (١/٦٦٧-٦٦٨).

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤٢).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٠).

كَاتُوا يَصْنَعُونَ ﴿١﴾ ^(١) بَيَّنَّ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَسَابُقَ الْيَهُودِ وَمَسَارَعَتَهُمْ إِلَى تَعَاظِي الْمَأْتَمِّ وَالْمَحَارِمِ، وَالْإِعْتِدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَأَكَلَ الْمَالِ الْحَرَامِ، وَذَمَّهُمْ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الشَّنِيعَةِ بِقَوْلِهِ: "لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" وَوَبَّخَ عُلَمَاءَهُمْ، عَلَى تَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. ^(٢) وَالرَّبَّانِيُّونَ: وَاحِدُهُم رِبَّانِيٌّ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبِّ، وَالرَّبَّانِي: هُوَ الَّذِي يَرْبِي النَّاسَ بِصَغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ، فَالرَّبَّانِيُّونَ أَرْبَابُ الْعِلْمِ، وَالرَّبَّانِيُّونَ فَوْقَ الْعُلَمَاءِ. ^(٣) وَالْأَحْبَارُ: مَفْرُودُهَا حَبْرٌ، وَهُوَ الْعَالِمُ، سَمِيَ بِذَلِكَ لَمَّا يَبْقَى مِنْ أَثَرِ عِلْمِهِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَمِنْ أَثَرِ أَعْمَالِهِ الْحَسَنَةِ الْمُقْتَدَى بِهَا. ^(٤) (وَالْحَبْرُ وَالْحَبْرُ، الرَّجُلُ الْعَالِمُ وَهُوَ مَأْخُودٌ مِنَ التَّحْبِيرِ وَهُوَ التَّحْسِينُ، فَهَمُّ يُحْبَرُونَ الْعِلْمَ أَيَّ بَيَّنْتُونَهُ، وَيَزَيَّنْتُونَهُ، وَهُوَ مُحْبَرٌ فِي صَدُورِهِمْ) ^(٥) وَعَلَيْهِ تَكُونُ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي الْيَهُودِ خَاصَّةً، وَسِيَاقُ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَقَالَ الْحَسَنُ: الرَّبَّانِيُّونَ عُلَمَاءُ النَّصَارَى، وَالْأَحْبَارُ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ. ^(٦) وَلَوْلَا فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِمَعْنَى: أَفَلَا يَزْجُرُهُمْ عِلْمَاؤُهُمْ عَنِ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ؟. ^(٧) وَاقْتَصَرَ فِي تَوْبِيخِ الرَّبَّانِيِّينَ عَلَى تَرْكِ نَهْيِهِمْ عَنِ قَوْلِ الْإِثْمِ وَأَكْلِ السَّحْتِ، وَلَمْ يَذْكَرِ الْعَدْوَانَ إِيْمَاءً إِلَى أَنَّ الْعَدْوَانَ يَزْجُرُهُمْ عَنْهُ الْمُسْلِمُونَ، وَلَا يَلْتَجِنُونَ فِي زَجْرِهِمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، لِأَنَّ الْإِعْتِمَادَ فِي النَّصْرَةِ عَلَى الْمَجْنِيِّ عَلَيْهِ ضَعِيفٌ، ثُمَّ ذِيلُ الْآيَةِ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْتِنَافِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ" وَهُوَ نَمٌّ لِصَنِيعِ الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَحْبَارِ، فِي سَكَوتِهِمْ عَنِ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ، وَكَلِمَةُ (يَصْنَعُونَ) بِمَعْنَى يَعْمَلُونَ، وَإِنَّمَا قَالَ هُنَا يَصْنَعُونَ، وَفِي الَّتِي قَبْلَهَا يَعْمَلُونَ: تَفَنُّنًا، وَقِيلَ:

(١) سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الْآيَاتَانِ (٦٢-٦٣).

(٢) ابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ (٧٤/٢).

(٣) الْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ (١٢٣/٦).

(٤) الرَّاعِبُ، الْمَفْرُودَاتُ (ص ١١٣).

(٥) الْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ (١٢٣/٦).

(٦) الْقُرْطُبِيُّ، الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ (١٥٣/٦).

(٧) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ (١٥٣/٦).

لأنّ يصنعون أدلّ على التمكن في العمل من يعملون. ^(١) وبذلك وبخ الله تعالى الخاصة وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشدّ من توبيخ فاعل المعاصي. ^(٢) ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: هي أشدّ آية في القرآن! وعن الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، وقال الزمخشري عقب هذه الآية: (ولعمري إنّ هذه الآية مما "يقذف" أي ينشط السامع، وينعى على العلماء توانيهم). ^(٣)

- أخذهم الربا وقد نهوا عنه:

قال تعالى: ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ ^(٤) يخبرنا الله عز وجل في هذه الآية: أنه بسبب ظلم اليهود، وما ارتكبه من الكفر والذنوب العظيمة، حرّم الله عليهم طيباتٍ كانت حلالاً لهم، وهذا التحريم قد يكون قدرياً بمعنى أنه تعالى قبضهم لأن تأوّلوا في كتابهم وحرّفوا وبدّلوا أشياء كانت حلالاً لهم، فحرّموها على أنفسهم تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتطعماً، ويحتمل أن يكون شرعياً بمعنى: أنه تعالى حرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك. ^(٥) والطيبات التي حرّمت عليهم هي ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كلّ ذي ظفر ﴾ ^(٦) (وكلمة أنبوا ذنباً صغيراً أو كبيراً حرّم الله عليهم بعض الطيبات في المطاعم وغيرها). ^(٧) كما أنّ هذا التحريم كان بسبب صدهم الناس وصدّهم أنفسهم عن اتباع الحقّ، وهذه سجيّة لهم

^(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٤٨/٤).

^(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥٥/٣).

^(٣) الزمخشري، الكشاف (٦٨٧/١).

^(٤) سورة النساء: الآيتان (١٦٠-١٦١).

^(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٤/١).

^(٦) سورة الأنعام: الآية (١٤٦).

^(٧) الزمخشري، الكشاف (٦٢٣/١).

متصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ولهذا كانوا أعداء الرُّسل وقتلوا خلقاً من الأنبياء وكذبوا آخرين. ^(١) ومن هذه الرذائل التي اقرتها اليهود: أكلهم الربا وقد نهوا عنه، فإله تعالى قد نهاهم عن الربا فتناولوه، وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. ^(٢) وسيبقى المال معبودهم من دون الله، يسعون لتحصيله بكافة الوسائل والسبل حلالها وحرامها ومنها الربا الذي يُغرقون به أسواق العالم في هذا العصر، والذي على أساسه أقيمت أنظمة اقتصادية، وأنشئت بنوك، وأعدت قروض، وقررت خطط، وأدخلت إلى مناهج الدراسة في الجامعات، وألفت لها الكتب، ونشرت لها الدعايات، وتخرج عليها أفواج من الخريجين، فصوّروا الربا وكأنه ضرورة لا بد منها لأي نظام اقتصادي. ^(٣)

- أكل علماتهم أموال الناس بالباطل، وأخذهم الرشوى من العامة:

قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ^(٤) يبين الله لنا في هذه الآية الكريمة نقيصة من نقائص أهل الكتاب، وانحرافاً من انحرافاتهم، تحقيراً لهم في نفوس المسلمين، وليكونوا أشدّ عليهم في معاملتهم. ^(٥) وهذه النقيصة هي أنّ كثيراً من "الأحبار" وهم علماء اليهود "والرهبان" وهم عبّاد النصارى. ^(٦) ليأكلوا أموال الناس بالباطل، وأسند الحكم للكثرة، إنصافاً للقلة المؤمنة منهم، والباطل يشمل وجوهاً كثيرة، منها: تغيير الأحكام الدينية لموافقة أهواء الناس، وأخذ أموالهم كذلك كما قال

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٤/١).

^(٢) المصدر السابق (٥٨٤/١).

^(٣) الخالدي، الدكتور صلاح عبد الفتاح، إسرائيليات معاصرة (ص١١٢)، دار عمار، عمان، الأردن، (الطبعة الثانية ١٤١٨م - ١٩٩٧م).

^(٤) سورة التوبة: الآية (٣٤).

^(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٧٤/٦).

^(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٨).

تعالى: ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾^(١) ومنها: أخذ الرشوة على القضاء بين الناس، مقابل إعطاء الحق لغير أهله، ومنها: جحد الأمانات عن أربابها، ومنها: أكل أموال اليتامى.^(٢) وحاصل ذلك: أنهم كانوا يأكلون الدنيا بالدين، ويستغلون مناصبهم ورياستهم في الناس، ليأكلوا أموال الناس بالباطل، قال ابن كثير: (كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ، استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم الذل والصغار، وباعوا بغضب من الله تعالى).^(٣) ومما قيل أيضاً في أكلهم أموال الناس بالباطل: أنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وقروضاً باسم الكنائس والبيع، وغير ذلك وقيل: كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين: والقيام بالشرع، وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام.^(٤) ويؤخذ من هذه الآية: التحذير من علماء السوء، وعباد الضلال، قال الإمام سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى.^(٥) وقد جمع هؤلاء العلماء رذيلة أخرى بجانب أكلهم الحرام، وهي صدّهم الناس عن اتباع الحق، ولبسهم الحق بالباطل، وإظهارهم لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.^(٦) ثم ذكرت الآية قسماً ثالثاً من النّاس، هم الأغنياء وأرباب رؤوس الأموال من المسلمين، وقد رجّح الإمام القرطبي أن هذه

(١) سورة البقرة: الآية ٧٩.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٧٥/٦).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٠/٢).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٨).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٠/٢).

(٦) المصدر السابق (٣٥٠/٢).

الآية نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين معاً.^(١) قال الإمام ابن المبارك: الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء: فسدت أحوال الناس.^(٢)

- تحايلهم على الشرع في سبيل جنى الأرباح:

قال تعالى: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يغدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبأهم بما كانوا يفسقون* وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون* فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، فلما عتوا عما نهبوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾^(٣) والقصة باختصار: أن الله عز وجل أخذ على بني إسرائيل العهد أن يتفرغوا لعبادته في يوم السبت^(٤)، وحرّم عليهم فيه الاصطياد دون سائر الأيام، وقد أراد الله تعالى أن يختبر استعدادهم للوفاء بهذا العهد، فابتلاهم بكثرة الحيتان في يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم الحيتان على الساحل في هذا اليوم سهلة الاصطياد، فقالوا لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذي يزخر بالأسماك يوم السبت حياضاً تتساب إليها المياه، حاملة الأسماك في ذلك اليوم، ثم نصطادها يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجتمع بين احترام ما عهد إلينا في يوم السبت، وبين ما تشتهي أنفسنا من الحصول على تلك الحيتان! فنصحهم فريق منهم بأن ذلك يكون امتثالاً ظاهرياً لأوامر الله سبحانه، ولكنه في حقيقته فسوق عما أمر الله به في يوم السبت، من ترك الصيد فيه وعصياناً لأمره، فلم يعبأوا بذلك، ونفذوا تلك الحيلة، فغضب الله عليهم، ومسحهم قردة، وجعلهم عبرة لمن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٩/٨).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٠/٢).

(٣) سورة الأعراف: الآيات (١٦٣-١٦٥).

(٤) هذا الخبر من الإسرايليات التي لم يرد في شرعنا ما يوافقها أو يعارضه، لذا فإننا نتوقف فيه فلا نصنقه ولا نكتبه.

عاصرهم ولمن أتى بعدهم، وموعظة للمتقين إلى يوم الدين.^(١) وفي هذه الآيات الكريمة، يوجه الله تعالى نبيه محمداً ﷺ لسؤال بني إسرائيل الذين كانوا بحضرته، سؤال تقرير وتوبيخ، عن أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، مشرفة على شاطئه.^(٢) وهي قرية "أيلة"^(٣) على شاطئ بحر القلزم أن يسألهم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة.^(٤) والظاهر أن علماءهم كانوا يخفون هذه الواقعة عن عامتهم، وفي الكشف عن ملابسات هذه الواقعة لمحمد ﷺ، علامة على صدقه، وتحذير لليهود من كتمان صفته التي كانوا يجدونها في كتبهم، كما كتموا هذه القصة عن عامتهم، وهذا التحذير يحمل طابع التهديد، لئلا يحلّ بهم ما حلّ بإخوانهم وسلفهم.^(٥) وكان ذلك علامة على صدق النبي ﷺ، إذ أطلع الله على تلك الأمور من غير تعلّم، وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، لأننا من سبط إسرائيل ومن سبط موسى كليم الله، فنحن أولادهم، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: سلهم - يا محمد - عن القرية، أما عذبتهم بنوبهم، وذلك بتغيير فروع الشريعة^(٦). وقوله تعالى: ﴿إذ يعدّون في السبت إذ تأتيهم حيتاتهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبّون لا تأتيهم﴾ ومعنى إذ يعدّون أي: إذ يتجاوزون حد الله فيه، وهو اصطياًدهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه.^(٧) وأصل السبت: الهدوء والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم مسبوت، لهدوئه وسكون جسده واستراحته،

(١) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٣٠).

(٢) الزمخشري، الكشّاف (١٦١/٢).

(٣) جمهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية: قرية (أيلة) التي تقع بين منبج والطور. وقيل: هي قرية طبرية، الزمخشري، الكشّاف (١٦١/٢)، وطنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٣٢).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٢).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٢) وطنطاوي، بنو إسرائيل ص ٤٣٧.

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٤/٧).

(٧) الزمخشري، الكشّاف (١٦١/٢).

كما قال جل ثناؤه ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾^(١) أي راحة لأجسادكم^(٢) والسبت مصدر سببت اليهود، إذا عظمت يوم السبت.^(٣) وكانت الأسماك تأتيهم يوم السبت الذي أمروا أن يعظموه، وألا يصطادوا فيه، فتأتيهم كثيرة ظاهرة على وجه الماء، "ويوم لا يسببون لا تأتيهم"، أي: وفي غير يوم السبت في سائر الأيام لا تأتيهم، بل تغيب عنهم وتختفي.^(٤) وكان هذا البلاء الشديد العجيب، وهو ظهور السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرم عليهم صيده واختفاؤه عنهم في اليوم الحلال، ابتلاء وامتحاناً لهم، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعذيبهم حدود الله، وتحاييلهم على شريعتهم.^(٥) وبينت الآيات بعد ذلك أن أهل تلك القرية انقسموا إلى ثلاثة أقسام، وهذا قول جمهور المفسرين.^(٦) قال الإمام ابن كثير: (يخبر الله تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا ثلاث فرق، فرقة ارتكبت المحظور، واحتالوا على اصطیاد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً).^(٧) وقد عللت الفرقة الناهية عن المنكر، للفرقة الساكنة عن النهي، عللوا نصيحتهم بعلتين:

الأولى: الاعتذار إلى الله تعالى من مغبة التصير في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثانية: الأمل في صلاحهم وانتفاعهم بالموعظة، حتى ينجوا من العقوبة، ويسلكوا طريق المهتدين.^(٨) فماذا كانت النتيجة: لقد ترك العاصون ما نكروهم به صلحاؤهم ترك الناسي

(١) سورة النبا: الآية ٩.

(٢) للطبري، جامع البيان (٣٣٢/١).

(٣) الزمخشري، الكشاف (١٦١/٢).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٤/٧). وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٢).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٢)، وطنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٣٣).

(٦) المصدر السابق (١٩٥/٧).

(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٢).

(٨) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٣٤).

للشيء، وأعرضوا عن قبول النصيحة. ^(١) وحينئذٍ استحقوا العذاب الشديد بسبب فسقهم، وعصيانهم لأمر الله تعالى، فهذه الآية الكريمة صريحة في أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الذين اعتكوا في السبت، وأن الفرقة الناجية هم الناهون عن المنكر، أما الفرقة الثالثة فسكنت عنها الآيات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما أدري ما فعلَ بالفرقة الساكنة أنجوا أم هلكوا قال غلامه عكرمة: فلم أزل به حتى عرفت أنه قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك، فكساني حنة. ^(٢) وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين: أن الفرقة الثالثة قد نجت من العذاب، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون في السبت. ^(٣) قال الزمخشري: (فإن قلت: الأمة الذين قالوا: ثم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً من أي الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين، أم من فريق المعذبين؟ قلت: من فريق الناجين، لأنهم من فريق الناهين، وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض منه، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً، لعلمهم بحال القوم، وإذا علم الناهي حال المنهي عنه، وأن النهي لا يؤثر فيه، سقط عنه النهي، وربما وجب الترك، لدخوله في باب العيب) ^(٤) ثم ختمت هذه الحادثة بقوله تعالى: ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ أي: فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك. ^(٥) والأمر في قوله تعالى: (قلنا) تكويني لا تكليفي، لأنه ليس في وسعهم حتى يكلفوا به، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ^(٦) وقيل في تفسير الآية: إن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب بئيس شديد، يتناول البؤس والشقاء والفقر في المعيشة، فلما لم يرتدعوا

^(١) الزمخشري، الكشاف (١٦١/٢).

^(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٥/٢).

^(٣) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٣٥).

^(٤) للزمخشري، الكشاف (١٦٢/٢).

^(٥) المصدر السابق (١٦٣/٢).

^(٦) سورة النحل: الآية ٤٠.

ولم يثوبوا إلى رشدهم، مسخهم الله مسخاً خَلْقياً وجسماً فكانوا قردة على الحقيقة، وهو الظاهر من الآية، وعليه الجمهور.^(١) وقيل: مسخهم خُلُقياً ونفسياً فصاروا كالقردة في شرورها وإفسادها،؟؟؟ وهذا مروى عن مجاهد.^(٢)

(١) الزمخشري، الكشاف (١٦٣/٢)، وطنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٣٦).

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٣٦).

المبحث الثالث: اتحرافات أهل الكتاب في الميدان السياسي

وفيه:

١. اتخاذهم أحبارهم ورهبتهم أرباباً من دون الله.

٢. إيمانهم بالجبوت والطاغوت.

٣. رفضهم التحاكم إلى كتاب الله.

٤. جدالهم فيما حُرِّم عليهم من الأطعمة.

اتخاذهم أحبارهم ورهبتهم أرباباً من دون الله:

قال تعالى: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبتهم أرباباً من دون الله، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾^(١) لقد خُصَّ الخَبْرُ بعالم اليهود: لأنَّ علماء دين اليهودية يشتغلون بتحرير علوم شريعة التوراة فهم علماء دينهم، وخُصَّ الراهب بعظيم دين النصرانية لأنَّ دين النصارى قائم على أصل الزهد في الدنيا، والانتقطاع للعبادة.^(٢) روى الإمام أحمد،^(٣) والترمذي،^(٤) وابن جرير^(٥) من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أنه لما بلغته دعوة النبي ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته، وأعطاهما فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام، وفي القُدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عديّ إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه

(١) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٢) ابن عثور، التحرير والتنوير (١٧٠/٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٩٤٠٠، (٢٧٨/٤) مع لختلاف في اللفظ.

(٤) وأخرجه، الإمام الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: من سورة التوبة، برقم: ٣٠٩٥،

(٥) (٢٧٨ /٥) - مع لختلاف في اللفظ -، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) نظّر: الطبري، جامع البيان (١١٤/١٠).

طيسى، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدثت الناس بقدمه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: (اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: "بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم". وقال رسول الله ﷺ: "يا عدي ما تقول؟ أضرارك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله، ما يضرّك أن يقال: لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله؟" ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: "إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالّون"^(١). لقد فسّر رسول الله ﷺ في هذا الحديث عبادة أهل الكتاب لأحيارهم ورهبانهم: بطاعتهم ومتابعتهم فيما أحلّوه لهم ممّا حرّمه الله عليهم، وما حرّمه عليهم ممّا أحله الله لهم، هذا هو المأثور عن رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية، وبه قال علماء الصحابة كعبد الله بن عباس، وحذيفة بن اليمان أمين سرّ رسول الله ﷺ، وغيرهما.^(٢) وهو ما ذهب إليه أئمة التفسير، كالإمام القرطبي حيث قال عند تفسيره للآية: (قال أهل المعاني: جعلوا أحيارهم ورهبانهم كالأرباب، حيث أطاعوهم في كل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً ﴾^(٣) أي كالنار، وقال الزمخشري: (اتخاذهم أرباباً: أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرّم الله وتحريم ما حلّله كما تطاع الأرباب في أوامرهم).^(٤) لقد حكم الله سبحانه عليهم بالشرك في هذه الآية، لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها، فهذا وحده دون الاعتقاد والشعائر، يكفي لاعتبار من يفعله مشركاً بالله، الشرك الذي يخرج من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر، إن الشرك بالله يتحقّق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٤٨-٣٤٩).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٤٨).

(٣) سورة الكهف: الآية (٩٦).

(٤) الزمخشري، الكشاف (٢/٢٥٢).

عباده، ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته، ولا تقديم الشعائر التعبدية له. (١) وقد خصّ الله سبحانه المسيح ﷺ بالذكر هنا: لأنّ تأليه النصارى إياه أشنع وأشهر، فقد جعلوه ابناً وأهلوه للعبادة، ثم بيّن سبحانه وتعالى في معرض التشنيع عليهم وإنكار صنيعهم، أنهم لا عذر لهم فيما زعموا، حيث إنهم لم يكلفوا على أسنة أنبيائهم إلاّ بعبادة الله وحده، لأنّه سبحانه منزّه عن الشريك والولد. (٢)

- إيمانهم بالجبّ والطاغوت:

قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبّ والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله، ومن يلعن الله، فلن تجد له نصيراً ﴾ (٣) عن عكرمة رضي الله عنه قال: جاء حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم، فأخبرونا عنا وعن محمد؟ فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ قالوا نحن ننحر الكوماء - أي الناقة السمينة - ونسقي اللبن على الماء، ونفك العاني، ونصل الأرحام، ونسقي الحجيج، وديننا القديم ودين محمد الحديث، قالوا: بل أنتم خير منه وأهدى سبيلاً، فأنزل الله الآيات. (٤) وفي رواية خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد، ليحالفوا قريشاً على غدر رسول الله ﷺ، وينقضوا عهدهم معه، فنزل على أبي سفيان، ونزلت اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكرأ منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وأمن بهما، فذلك قوله: يؤمنون بالجبّ والطاغوت، ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء

(١) قطب، الظلال (٣/١٦٤٢).

(٢) للزمخشري، الكشاف (٢/٢٥٢)، وابن عثور، التحرير والتوير (٦/١٧٠).

(٣) سورة النساء: الآيتان (٥١-٥٢).

(٤) السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/٥٦٢)، دار الفكر، بيروت، (١٩٩٣م). وانظر: العك، تسهيل الوصول (ص ١٠٢).

منكم ثلاثون ومنا ثلاثون، فنلزم أكبادنا بالكعبة، فنعاهد رب البيت لنجاهد على قتال محمد، ففعلوا ذلك، فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب، وتعلم، ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى طريقاً، وأقرب إلى الحق، أنحن أم محمد؟ فقال كعب: أعرضوا علي دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودينه الحديث، فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه، فأنزل الله تعالى: "الم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب، يعني كعباً وأصحابه، وقال قتادة: إنما حمل كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب على ما قالوا حسد محمد ﷺ وأصحابه، ولما رجعا إلى قومهما قال لهما قومهما: إن محمداً يزعم أنه قد نزل فيكما كذا وكذا؟ فقالا: صدق والله ما حملنا على ذلك إلا بغضه وحسده." (١) قال الرازي: (اعلم أنه تعالى حكى عن اليهود نوعاً آخر من المكر، وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على المؤمنين، ولا شك أنهم كانوا عالمين بأن ذلك باطل، فكان إقدامهم على هذا محض عناد وتعصب). (٢)

معنى الجبت والطاغوت: قال أهل اللغة: كل معبود من دون الله فهو جبت وطاغوت. وأما الطاغوت: فهو مأخوذ من الطغيان، وهو الأسراف في المعصية، فكل من دعا إلى المعاصي الكبار لزمه هذا الاسم، ثم توسعوا في هذا الاسم حتى أوقعوه على الجماد، كما قال تعالى: ﴿ واجتنبني وبنيتني أن نعبد الأصنام * رب إيهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ (٣) فأضاف الاضلال إلى الأصنام مع أنها جمادات. (٤) وقال الراغب: (يقال لكل ما عبد من دون الله جبت،

(١) المعك، خالد، تسهيل الوصول (ص ١٠٣).

(٢) للرازي، التفسير الكبير (٤ / ١٠١).

(٣) سورة يراهم: الأيتان (٣٥-٣٦).

(٤) للرازي، التفسير الكبير (٤ / ١٠١).

والساحر والكاهن جبناً^(١) والطاغوت: عبارة عن كل متعدّد وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُر بِالطَّاغُوتِ﴾^(٢) وقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتِ﴾^(٣) وقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتِ﴾^(٤) وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾^(٥) فالطاغوت عبارة عن كل متعدّد، ولما تقدّم سمّي الساحر والكاهن والمارد من الجن، والصارف عن طريق الخير طاغوتاً.^(٦) وقال الواحدي: (الجبب أي: الأصنام، والطاغوت سدنتها).^(٧) فالجبب والطاغوت كلمتان وضعتا علّمين على مَنْ كان غاية في الشر والفساد.^(٨) قال ابن جرير: (والصواب من القول في تأويل "يؤمنون بالجبب والطاغوت" أن يُقال: يصدّقون بمعبودين من دون الله، ويتخذونهما إلهين، وذلك إن الجبب والطاغوت اسمان لكل مُعظّم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع له، كائنًا ما كان ذلك المُعظّم، من حجر أو إنسان أو شيطان).^(٩) فيكون معنى الآيتين الكريميتين: قد رأيت وعلمت علم اليقين - أيها الرسول الكريم - حال هؤلاء اليهود الذين أوتوا حظاً من الكتاب، وفي وصفهم بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب بيان لحقيقة حالهم، حيث إنهم نسوا حظاً وافرًا ممّا ذكروا به، ومع ذلك فإن النصيب الذي أوتوه لم يعملوا به، ولو عملوا به لما آمنوا بالعقائد الفاسدة ولما فضلوا عبادة الأوثان على عبادة الرحمن ارضاء للكفّار، ولما قالوا إنّ هؤلاء الكفّار في شركهم، وعبادتهم للجبب والطاغوت، أهدى سبيلاً وأقوم

(١) الراغب، المفردات (ص ٩٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٥) سورة النساء: الآية ٦٠.

(٦) الراغب، المفردات (ص ٣٠٨).

(٧) الواحدي، أبو الحسن، علي بن أحمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/٢٦٨)، تحقيق: صفوان عدنان دلودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ).

(٨) الرزقي، للتفسير للكبير (٤/١٠١).

(٩) الطبري، جامع البيان (٥/١٣٣).

طريقاً من المؤمنين، الذين اتبعوا محمداً ﷺ^(١) قال ابن كثير: (يفضلون الكفار على المسلمين، جهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم).^(٢) هذا هو موقف اليهود دائماً من أهل الحق؛ وأهل الباطل، إنهم أصحاب أطماع لا تنتهي ونووا أهواء لا تعتدل، وأحقاد لا تزول، وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم، إنما يجدون العون والنصرة عند الباطل وأهله، ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق، ولأهل الباطل ضد الحق.^(٣) ثم بين سبحانه مصيرهم السيئ بسبب انحرافهم عن الحق، وإيمانهم بالحبث والطاغوت، بعد أن استحوذ عليهم الشيطان، فأيدوا المشركين قولاً وعملاً، وسجدوا لأصنامهم، وزكّوا أعمالهم، فكان مآلهم أن أخزاهم الله، وطردهم من رحمته، بسبب أقوالهم وأفعالهم الشنيعة، ومن يطرده الله من رحمته أو يخذله، فلا ناصر له في الدنيا والآخرة، ولا شفيع له من عذاب الله.^(٤)

- رفضهم التحاكم إلى كتاب الله:

قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن نمسنا النار إلا أياماً معدودات، وغرهم في دينهم ما كتوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووقيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾^(٥) قال السدي: دعا النبي ﷺ إلى اليهود إلى الإسلام، فقال له النعمان بن أوفى: هلم يا محمد، نخاصمك إلى الأحبار، فقال رسول الله ﷺ: "بل إلى كتاب الله" فقال: بل إلى الأحبار، فأنزل الله تعالى هذه الآية.^(٦) وعن ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ، المنزاس -

(١) الصابوني، الصفوة (٢٥٨/١)، وطنطوي، بنو إسرائيل (ص ٢٤٢).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١٣/١).

(٣) قطب، الظلال (٦٨١/٢).

(٤) الصابوني، الصفوة (٢٥٨/١)، وطنطوي، بنو إسرائيل (ص ٢٤٢-٢٤٣).

(٥) سورة آل عمران: الآيات (٢٣-٢٥).

(٦) العك، خالد، تسهيل الوصول (ص ٦٨).

أي المكان الذي يدرسون فيه - على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله، فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد: على أي دين أنت يا محمداً؟ فقال "على ملة إبراهيم" قالوا: إن إبراهيم كان يهودياً، فقال رسول الله ﷺ: فهلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم" فأبى عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ^(١) وقيل: إن هذه الآية تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم اثنان. ^(٢) روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا: نحتمهما ونضربهما، فقال: لا تجنون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبد الله بن سلام، كذبتكم، فأتوا بالتوراة فأتوها إن كنتم صادقين، فوضع مدراسها، الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها، ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذا؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرجما، قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد، قال: فرأيت صاحبها يجنأ عليها بقيها الحجارة" ^(٣) فالذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم أحناء اليهود، وقد أوتوا نصيباً وافراً من التوراة. ^(٤) والآية الكريمة تشير إلى خلق من أخلاق اليهود لا ينفك عنهم، ألا وهو التولي والاعتراض، فهما دينهم، وقد أشار ابن كثير إلى أن الآية عامة في اليهود والنصارى. ^(٥) فيكون معنى الآيات الكريمة: أن الله تعالى ينكر على اليهود صنيعهم، ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيباً وافراً من التوراة، يُدعون إلى كتابهم الذي بين أيديهم - والذي يعتقدون صحته - ليحكم بينهم في

(١) المصدر السابق (ص ٦٨).

(٢) الصابوني، الصفوة (١/١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: "أتوا بالتوراة فأتوها إن كنتم صادقين" برقم (٤٥٥٦)، انظر: ابن حجر

العسقلاني، فتح الباري (٨/٢٨٣).

(٤) الزمخشري، الكشاف (١/٣٧٦).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٥٥).

خلافاتهم، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم، فلا يستجيبون لهذه الدعوة، بل يُعرض فريق منهم عن قبول حكم الله ثم يتولون بعد ذلك مع علمهم بوجوب الرجوع إلى التوراة والاستحاكم إليها، وأكد سبحانه توليهم بقوله: وهم معرضون، أي أنهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل. ^(١) وهذا في غاية ما يكون من نعمهم، والتتويه بذكرهم بالمخالفة والعناد. ^(٢) وهذا التولي، ورفض التحاكم إلى كتاب الله، والإعراض عن حكمه، سببه تسهيلهم على أنفسهم أمر الحساب، واعتقادهم النجاة من عذاب الله، لزعيمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تصيبهم إلا مدة يسيرة أربعين يوماً مدة عبادتهم للعجل، وعبر سبحانه عن الاعتقاد بالقول: دلالة على أن هذا الاعتقاد لا دليل عليه، وأنه مفترى مدلس، ومعنى قوله تعالى: **وغيرهم في دينهم ما كانوا يفترون** ^(٣) أي: ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم، من زعمهم أن النار لا تمسهم بنزوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم، ولم ينزل الله به سلطاناً. ^(٤) ومع أنه كذب وافتراء، إلا أنه رسخ في اعتقادهم، وتطاول الزمان وهم على هذا الباطل، حتى أنسوا به واطمأنوا إليه. ^(٥) قال سيد قطب (حقاً، إنه لا يجتمع في قلب واحد جنبة الاعتقاد ببقاء الله، والشعور بحقيقة هذا اللقاء، مع هذا التميع في تصور جزائه وعدله، وحقاً إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة، والحياء من الله، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة). ^(٦) ثم جاءت الآية التالية تحمل التهديد والوعيد لأولئك المعرضين عن حكم الله: **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل**

^(١) قطب، الظلال (٣٨٢/١).

^(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٦/١).

^(٣) سورة آل عمران: الآية ٢٤.

^(٤) للزمخشري، الكشاف (٣٧٧/١)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥٦/١)، والشوكاني، فتح القدير (٣٢٨/١).

^(٥) للباقعي، برهان الدين أبو الحسن، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥٠/٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

^(٦) قطب، الظلال (٣٨٣/١).

نفس ما كسبت وهم لا يظلمون^(١) والمعنى: كيف يصنع هؤلاء اليهود، أم كيف يكون حالهم، وقد افتروا على الله وكذبوا رُسله، وجاعوا بالعظائم، إنَّ الله تعالى سائلهم عن كل ذلك ومجازيهم به، وفي ذلك استعظام لما أعد لهم، وتهويل لهم، وأنهم يتعون فيما لا حيلة لهم في دفعه، وأن ما حنثوا به أنفسهم وسهّلوه عليها إنما هو تعللٌ بباطل وطمع فيما لا يكون.^(٢) وقال تعالى: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمناً بأقواهم ولم تؤمن قلوبهم، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك، يحرفون الكلم من بعد مواضعه، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحنثوا، ومن يرد الله فتنته قلن تمك له من الله شيئاً، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت، فإن جاعوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنَّ الله يحب المقسطين * وكيف يُحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله، ثم يتولّون من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين﴾^(٣) ذكر العلماء أكثر من قصة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر... الآية^(٤) ورجح الإمام المحقق ابن كثير الرواية التي تقول: إنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بتلوا كتب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من احصن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والإركاب على حمار مقلوبين، فلما وقعت الحادثة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا نتحاكم إليه فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك،

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٥.

(٢) للزمخشري، الكشاف (١/٣٧٧-٣٧٨).

(٣) سورة المائدة الآيات (٤١-٤٣).

(٤) انظر، السيوطي، لباب النقول (ص ١١٥ - فما بعدها).

وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.^(١) وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: مرَّ على النبي ﷺ بيهوديٍّ مُحَمَّمٍ مجلود، فدعاهم فقال: "هكذا تجدون حدَّ الزنا في كتابكم؟" فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هكذا تجدون حدَّ الزنا في كتابكم؟ فقال: لا والله، ولولا أنك نشدنتني بهذا لم أخبرك، نجد حدَّ الزنا في كتابنا بالرجم، ولكنه كثر في أشرفنا، فكنا إذا زنى الشريف تركناه، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحدَّ فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله: "يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر" إلى قوله: "إن أوتيتم هذا فخذوه" يقول: اتتوا محمداً ﷺ، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون"^(٢) (والحاصل من هذه الروايات: أن اليهود حكمت النبي ﷺ فحكم عليهم بمقتضى ما في التوراة)^(٣) وكان النبي ﷺ عالماً بما لم يغير منها، فلذلك دعاهم إليها، وإلى الحكم بها).^(٤) ومعنى قوله تعالى: "فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم" (أي: إن جاءوك يتحاكمون إليك فلا عليك ألا تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم).^(٥) ومن الواضح: أن القوم كانوا قد اصطلحوا على تغيير بعض الحدود في التوراة، لأنهم لم يريدوا أن يطبقوها على الشرفاء فيهم في مبدأ الأمر، ثم تهاونوا بالقياس إلى الجميع، وأحلوا محلها عقوبات أخرى من عقوبات التعازير، فلما وقعت منهم هذه الجرائم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨/٢).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الحدود باب: حد الزنا، فنظر، النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٢٠٩/١١).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٦/٦).

(٤) المصدر السابق (٣٤/٤).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٠/٢).

في عهد الرسول ﷺ تأمروا على أن يستفتوه فيها، فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيرية المخففة عملوا بها، وكانت هذه حجة لهم عند الله، إذ أفتاهم بها رسوله، وإن حكم فيها بمثل ما عندهم في التوراة لم يأخذوا بحكمه! فدستوا بعضهم يستفتيه... من هنا حكى الله عنهم قولهم: "إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا"^(١) ولم يكن تحاكم اليهود للنبي ﷺ إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم؛ كالجلد مكان الرجم ثم أمر الله تعالى نبيه إن حكم بينهم أن يحكم بالعدل والحق، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل، غير متأثر بأهوائهم لمسارعتهم في الكفر، ومؤامراتهم، ومناوراتهم، لأن الله يحب العادلين.^(٢) ويأتي التعقيب بعد ذلك بقوله تعالى: "وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين". وهذا استنهام للتعجب من حالهم، فهي جريمة مستكرة أن يحكموا رسول الله ﷺ فيحكم بشريعة الله، وعندهم التوراة فيها شريعة الله وحكمه، يرونه ولا يعملون به، فيطابق حكم رسول الله ﷺ ما عندهم في التوراة، مما جاء القرآن مصدقاً له ومهيماً عليه، ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون، سواء كان التولي بعدم التزام الحكم، أو بعدم الرضى به...^(٣) وهذا تعجب من الله تعالى لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إياه، بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني، ثم تركهم قبول ذلك الحكم، فعدلوا عما يعتقدونه حكماً حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً، طلباً للرخصة، فظهر بذلك جهلهم وعنادهم.^(٤) ثم نفت الآية الكريمة الإيمان عنهم، لرفضهم تحكيم شريعة الله، وعدم رضاهم بحكم النبي ﷺ الموافق لما في التوراة، والتي يدعون الإيمان بها، والعمل بما فيها فدعواهم كاذبة وباطلة: قال

(١) قطب، الظلال (١٩٢/٢).

(٢) المصدر السابق (١٩٣/٢).

(٣) المصدر السابق (١٩٤/٢ - ١٩٥).

(٤) الرازي، التفسير الكبير (٢٦٢/٤).

العلامة ابن جزّي: (وهذا إلزام لهم، لأن من خالف كتاب الله وبتلّه، فدعواه الإيمان باطلة).^(١)
وقد جاءت الآيات بعد ذلك بثلاثة أحكام للمعرضين عن تحكيم شرع الله:

الحكم الأول: جاء عقب ثنائه سبحانه وتعالى على التوراة التي أنزلها على نبيّه موسى ﷺ، فقال تعالى: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور" وكان أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى وعلماؤهم وعبادهم يحكمون بها، وهي أعظم الأمانات التي استودعها الله أحبارهم، وجعلهم شهداء عليها، إلا أنهم غيروا وبتلوا فيها، عقب ذلك جاء الحكم الرهيب المخيف على المعرضين عن تحكيم دين الله وشرعه، فقال عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾^(٢) وهذا هو الحكم الأول.

الحكم الثاني: جاء في نيل الآية الكريمة التي أخبر الله تعالى أنه شرع لليهود حكم القصاص، في جرائم القتل العمد، والجرح العمد، قال تعالى: "وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس" إلى قوله تعالى مبيناً الحكم الثاني للمعرضين عن تحكيم شرع الله، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾^(٣).

الحكم الثالث: جاء بعد الثناء على الإنجيل الذي أنزله الله على نبيّه عيسى ﷺ، وبعد أمره جلّ وعلا أتباع عيسى ﷺ أن يحكموا الإنجيل، وينفذوا ما أمرهم الله فيه، فقال تعالى: "وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم" إلى قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾^(٤) هذه هي الأحكام الثلاثة التي حكم الله بها على المعرضين عن تحكيم شرعه

^(١) ابن جزّي، للتسهيل (١/١٧٨).

^(٢) سورة المائدة: الآية ٤٤.

^(٣) سورة المائدة: الآية ٤٥.

^(٤) سورة المائدة: الآية ٤٦.

ودينه، وهي: الكفر، والظلم، والفسق. ^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن الله أنزل: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وأولئك هم الظالمون، وأولئك هم الفاسقون قال: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان في حيين دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم فكانت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا، وقهراً، فندسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه فندسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ، فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمره كله، وما أرادوا فأنزل الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا حَزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ** إلى قوله **"الفاسقون"** ففهم والله أنزل، وإياهم عنى الله عز وجل). ^(٢) وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآيات في اليهود. ^(٣) وقال ابن جرير الطبري: (وأولى الأحوال عندي بالصواب، قول من قال: نزلت في كفار أهل الكتاب؛ لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات نزلت فيهم). ^(٤) وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر كما قال

^(١) طهناز، عبد الحميد محمود، الحلال والحرام في سورة المائدة (ص ٧٣-٧٤)، دار القلم، دمشق، ودار العلوم والثقافة، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م).

^(٢) ابن كثير، تفسیر القرآن العظيم (٦٠/٢).

^(٣) ابن جرير، جامع البيان (٦/٢٥٣).

^(٤) المصدر السابق (٦/٢٥٧).

ابن عباس لأنه بجوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي. (١)

- جدالهم فيما حرّم عليهم من الأطعمة:

قال تعالى: ﴿كُلّ الطّعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قل فاتوا بالتوراة فاتلوا إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون * قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا عن الرد ما هو قال: "ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق به السحاب حيث شاء الله فقالوا فما هذا الصوت الذي نسمع قال زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر الله قالوا صدقت فأخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: اشتكى عرق النساء (٣) فلم يجد شيئاً يلاتمه إلا لحوم الإبل والبانها، فلذلك حرّمها، قالوا: صدقت. (٤) قيل: إنه نذر إن برأ منه ليرتكن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل والبانها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما أصاب يعقوب ﷺ عرق النساء وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل فحرّمها على نفسه). (٥) واختلف العلماء هل كان التحريم من يعقوب باجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى؟ (والصحيح الأول: لأن الله تعالى أضاف التحريم إليه بقوله تعالى: "إلا ما حرّم" وأن النبي إذا أذاه اجتهاده إلى شيء، كان ديناً يلزمنا اتباعه، وذهب كثير من المفسرين:

(١) المصدر السابق (٢٥٧/٦).

(٢) سورة آل عمران: الآيات (٩٣-٩٥).

(٣) في سفر التكوين من التوراة، الإصحاح الثاني والثلاثين: تأكيد لإصابة يعقوب بعرق النساء.

(٤) لأخرجه للترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الرد برقم: (٣١١٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب (٢٩٤/٥).

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٧/٤).

إلى أن معنى الآية: الردّ على اليهود في قولهم في كل ما حرّموه على أنفسهم من الأشياء: أنها محرمة عليهم بأمر الله في التوراة، فأكذبهم الله في هذه الآية، وأخبر أن جميع الطعام كان حلاً لهم إلا ما حرّم يعقوب على نفسه خاصة، ولم يرذ به ولده، فما استنوا هم به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، وليس في التوراة شيء من الزوائد التي يدعون أن الله حرّمها، قال السدي: إن الله تعالى حرّم ذلك عليهم في التوراة، عقوبةً لاستنابهم في تحريم شيء إنما فعله يعقوب خاصةً لنفسه،^(١) فذلك قوله تعالى: ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾^(٢) وواضح من خلال الآيات السابقة أن اليهود في المدينة النبوية بحثوا عن شيء يعترضون به على النبي ﷺ، حيث كانوا يتصيّدون كل حجة، وكل شبهة وكل حيلة، لينفذوا منها إلى الطعن في صحة الرسالة المحمدية، وإلى إشاعة البلبلة، والاضطراب، فلما قال القرآن إنه مصدق لما في التوراة، برزوا يقولون: ما بال القرآن يحلّ من الأطعمة ما حرّم على بني إسرائيل؟ وكما تنكر الروايات السابقة فقد وقع اختيارهم على لحوم الإبل والبانها، فأتوا النبي ﷺ، وقالوا: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل والبانها، لأنها محرمة عليه، فأنزل الله تعالى رداً عليهم: ﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل ﴾^(٣) الآية، لقد كانت جميع الأطعمة حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، إلا ما حرّم يعقوب ﷺ على نفسه؛ وهو لحوم الإبل والبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، فلما نزلت التوراة على موسى ﷺ؛ حرّم عليهم فيها ما حرّم إسرائيل على نفسه، وحرّم عليهم أيضاً فيها بعض الطيبات من المطاعم، بسبب ظلمهم وبغيهم، عقوبة لهم، وتشديداً عليهم.^(٤) وكانت هذه الطيبات حلالاً لبني إسرائيل قبل ذلك. يقول سيد قطب: (يردّهم

(١) يوسف كمال، التفسير الحضاري لسورة آل عمران (٦٨).

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٠.

(٣) قطب، للظلال (٤٣٣/١)، وطهماز، عبد الحميد محمود، للتوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران (ص ٨٨)، دار

القلم، دمشق، وندار للشامية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨٣/١)، وطهماز، للتوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران (ص ٨٩).

الله سبحانه إلى هذه الحقيقة لِيَتَبَيَّنَ أن الأصل في هذه المطاعم هو الحل، وأنها إنما حرمت عليهم لملازمات خاصة بهم، فإذا أحلها للمسلمين فهذا هو الأصل الذي لا يثير الاعتراض ولا الشك في صحة هذا القرآن، وهذه هي الشريعة الإلهية الأخيرة).^(١) فلما أنكر اليهود ذلك أمر الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ أن يتحداهم بكتابتهم التوراة، وأن يجعل بينه وبينهم حكماً ما أنزله الله عليهم لا ما أنزله عليه فقال: "قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين" حتى تعلموا صدق ما قصه الله في القرآن من أنه لم يُحرّم على بني إسرائيل شيء من قبل نزول التوراة إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه، وفي هذا من الإنصاف للخصوم ما لا يقاقر قدره، ولا يبلغ مداه.^(٢) وهذا من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، أن يتحداهم بكتابتهم وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، فماذا كانت نتيجة هذا التحدي: لقد بهت اليهود، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة استجابةً للتحدي، ونكصوا على أعقابهم خاسرين، ثم هدّهم الله تعالى بأن من يفترى منهم الكذب بعد إحضار التوراة، ويزعم أنه حرّم ذلك قبل نزول التوراة، فأولئك هم الظالمون الذين لا ينفقون للحق ولا يعملون به، وعقاب الظالم معروف، فيكفيهم أن يوصبوا بهذه الوصمة، ليتقرر نوع العذاب الذي ينتظرهم.^(٣) وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد كشفت هذا الانحراف من انحرافات اليهود، وبيّنت أن التشريع خصيصة من خصائص الألوهية، وليس للبشر دخل فيه، ثم بيّن الله تعالى لنبيّه ﷺ هذه الحقيقة: "قل صدق الله فتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين" أي: قل يا محمد، صدق الله فلم يكن ذلك في التوراة محرماً عليهم، وصدق الله في كل ما أوحى به إلى نبيّه، وفي كل ما أخبر به، فتركوا اليهودية، واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﷺ، حيث كان مسلماً حنيفاً، مائلاً عن الأديان الزائفة كلّها، وما كان من المشركين كما زعمتم، وفي ذلك تعريض باليهود

(١) قطب، الظلال (٤٣٤/١).

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٣٦١/١).

(٣) قطب، الظلال (٤٣٤/١)، وطهماز، التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران (ص ٨٩).

والنصارى، ورد عليهم في أقوالهم الباطلة التي نسبوها لإبراهيم عليه السلام.^(١) وقال تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم، وإنا لصادقون* فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾^(٢) الظفر: هو العظم الذي تحت الجلد، في منتهى أصابع الإنسان والحيوان، والمخالب، وهو يقابل الحافر والظلف، ويكون للإبل والسبع والكلب، والهر، والأرنب، ونحوها، فهذه محرمة على اليهود بنص شريعة موسى عليه السلام.^(٣) وفي التوراة في سفر التشية: (إلا هذه فلا تأكلوها مما يجتر وما يشق الظلف المنقسم: الجمل، والأرنب، والوبر، لأنها تجتر لكنها تشق ظلفاً فهي نجسة لكم).^(٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "في كل ذي ظفر": (هي ذوات الظلف كالإبل، والنعام، وما ليس بذي أصابع منفردة كالبيط والأوز).^(٥) قال الزمخشري: (وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم، فلما ظلموا حرم ذلك عليهم فعمّ التحريم كل ذي ظفر، بدليل قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا...﴾ الآية.^(٦) والشحوم: جمع شحم، وهو المادة الدهنية التي تكون مع اللحم في جسد الحيوان، وقد أباح الله لليهود أكل لحوم البقر والغنم، وحرم عليهم شحومهما، إلا ما كان في الظهر، أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم، والحوايا: جمع حوية وهي الأكياس الشحمية التي تحوي الأمعاء، والحوايا معطوفة على "ظهورهما" فالمقصود العطف على المباح لا على المحرم، أو اختلط بعظم: هو الشحم الذي يكون ملتقاً على عظم الحيوان من السمن، فهو معفو عنه لعسر تجريده

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٨/٤) والصابوني، صفوة التفسير (١/١٩٩).

(٢) سورة الأنعام: الأيتان (١٤٦-١٤٧).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥/١٤٢).

(٤) سفر التشية (٧/٨).

(٥) أبو حيان، البحر المحيط (٤/٦٧٦).

(٦) الزمخشري، الكشاف (٢/٧١).

عن عظمه. ^(١) وما عدا ذلك من الشحوم الخالصة في البقر والغنم، حرّمه الله على اليهود، ومنها الثروب: وهي الشحوم الخفيفة التي تغشى الكرش والأمعاء، وشحوم الكليتين، وكانت اليهود تقول: إنه حرّمه إسرائيل فنحن نحرّمه. ^(٢) وقد كان هذا التحريم مجازاة لليهود على ظلمهم، وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء، وأكل الربا، واستحلال أموال الناس بالباطل، وإنا لصادقون" أي وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد، من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرّمه. ^(٣) ففي هذه الآية تعريض بكذب من حرّم ما لم يحرّم الله، وتعريض بكذب اليهود، ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ إن كذبه اليهود، فيما جاء به من بيان التحريم أن يقول لهم متعجباً من حالهم: ربكم ذو رحمة واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم. ^(٤) وهذا كما تقول عند رؤية معصية عظيمة، ما أحلم الله تعالى! وأنت تريد ما أحلمه لإمهاله العاصي. ^(٥) ثم أعقب سبحانه وصفه بالرحمة بالوعيد الشديد، لئلا نغتر بسعة رحمته وإمهاله لهم، فإنه تعالى لا يردّ عذابه عن من اكتسبوا الذنوب، فهو مع رحمته ذو بأس شديد، وبذلك جمعت الآية بين الترغيب والترهيب، حتى لا يقنط المذنب من رحمة الله، ولا يغترّ العاصي بحلمه تعالى. ^(٦) فهل حافظ اليهود على محارم الله فلم يعتدوها، أم انتهكوها وضيعوها؟ إنها الثانية بلا ريب! قال رسول الله ﷺ: "قاتل الله اليهود حرّمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا أثمانها" ^(٧) ومعنى قاتلهم الله أي: لعنهم، وقتل بمعنى لعن. ^(٨) وعن عبد الله بن عباس رضي الله

^(١) ابن عسور، التحرير والتنوير (١٤٢/٥).

^(٢) للزمخشري، للكشاف (٧١/٢)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٥/٢).

^(٣) الطبري، جامع البيان (٧٧/٨).

^(٤) للصابوني، صفوة التفسير (٣٩٥/١).

^(٥) أبو حنّان البحر المحيط (٦٨٠/٤).

^(٦) للصابوني، صفوة التفسير (٣٩٥/١).

^(٧) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب البيوع، باب، لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ونكته، برقم ٢٢٢٤، انظر،

ابن حجر فتح الباري (٥٢١/٤).

^(٨) البخاري، انظر: ابن حجر، فتح الباري (٥٢١/٤).

عنهما أن رسول الله ﷺ كان جالساً عند الركن فرفع بصره إلى السماء فقال: " لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرّم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها، وإنّ الله إذا حرّم على قوم أكل شيء حرّم عليهم ثمنه"^(١).

(١) أخرجه الإمام أبو داود، في سننه في كتاب البيوع والإجازات، باب في ثمن الخمر والميتة، برقم (٣٤٨٨)، (٤٨٨/٣).

المبحث الرابع: انحرافات أهل الكتاب في الميدان العسكري .

تمهيد:

لقد عرض القرآن الكريم صوراً ومظاهر تكشف عن انحرافات اليهود العسكرية عبر مراحل تاريخهم المختلفة بدءاً من وجود موسى ﷺ بينهم ومروراً بملكهم الصالح طالوت، وانتهاءً باليهود المعاصرين للبعثة النبوية. والقرآن الكريم إذ يكشف لنا عن هذه الانحرافات في اليهود، فإنه يدمغهم بها ويسجلها عليهم في كل زمان ومكان، على أنها طبائع جبلوا عليها، فهي متأصلة فيهم لا تتفك عنهم ، حتى حينما كان أنبيأؤهم ورسلمهم بين ظهرانيهم وكان الله سبحانه معهم بتأييده ونصره، فكيف لا تظهر عليهم هذه الانحرافات بعد أن غيروا وبتلوا، وتخلت عنهم العناية الإلهية، بعد أن كتب الله عليهم الذلة والمسكنة أينما تقفوا.

وسنتناول في هذا المبحث جين اليهود وتقاعسهم عن الجهاد، بعد أن خارت عزائمهم وألغوا الذل والعبودية، وفي البداية نقول إن الروح المعنوية العالية والعزيمة القوية هي من أهم أسباب النصر في المعارك على الإطلاق، وأن الأمة التي تفقد هذا العنصر من عناصر القوة، هي أمة مهزومة لا محالة، وإن كانت كثيرة العدد عظيمة العدة، وقد كان بنو إسرائيل يملكون جماع وسائل القوة، ألا وهو وعد الله لهم بالنصر على أعدائهم، ووجود نبي الله بينهم، والله تعالى لا يخذل أنبياءه أبداً- ولكنه قد يمكّن الأعداء منهم ومن أتباعهم فقد قتل اليهود الأنبياء، وهزم المسلمون في أحد وكسرت رباعية النبي ﷺ ولم يكن ينقص بني إسرائيل آنذاك سوى عنصر الروح المعنوية العالية، والاستعداد للجهاد، والإيمان بحتمية النصر، وقد فقدوا هذا العنصر، فما كانوا أهلاً للنصر، بل كانوا أهلاً للهزيمة والعقوبة الإلهية، وهذا ما حدث بالفعل كما سنرى بعد قليل، وسنتناول في هذا المبحث ما يأتي: أمر الله لبني إسرائيل بدخول الأرض

المقدسة بقيادة كليمه موسى ﷺ، قصة طالوت والاحترافات العسكرية التي كشفتها الآيات في هذه القصة، انحرافات عسكرية أخرى أبانها سورة الحشر.

الأمر الرباني لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة بقيادة كليمه موسى ﷺ ونكوصهم على أعقابهم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ انكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين * يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أتعلم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإتكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون * قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإتها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾^(١). تحكي هذه الآيات بأسلوبها البليغ قصة معروفة في تاريخ بني إسرائيل، ملخصها : أن ذلك الجيل من بني إسرائيل الذين عاشوا أذلاء مضطهدين في مصر ، والذين بعث فيهم موسى ﷺ ليخلصهم من عبودية فرعون، وهو ما حصل بالفعل بعد أن نجى الله تعالى بني إسرائيل بقيادة كليمه موسى ﷺ من فرعون وجنوده وبعد أحداث كثيرة وقعت مع فرعون، بعدها سار بنو إسرائيل إلى حدود بلاد الشام، وعاشوا فترة في سيناء مع موسى ﷺ شاهدوا فيها من آيات الله ومعجزاته ما شاهدوا، وتذوقوا من نعم الله الكثيرة ما تذوقوا، ولكنهم قابلوا ذلك كله بالجحود والكفران والفساد، فارتكبوا مخالفات كثيرة، وعصوا موسى ﷺ وخرجوا عليه، مع كل هذا بقي ﷺ يبذل

^(١)سورة المائدة: الآيات (٢٠-٢٦).

جهده في تربيته وتهذيبهم وتقويمهم، استعداداً للخطوة القادمة، وهي الجهاد في سبيل الله، لتحرير الأرض المقدسة من القوم الكافرين، وتمكينهم منها ليعمروها بالإيمان، وبعد إعداد وتهينة طلب منهم موسى ﷺ الجهاد لدخول الأرض المقدسة، ولكنهم جنبوا وخافوا ونكصوا على أعقابهم، وأثروا الذل والقعود على الجهاد والعزة، وحاول موسى تثبيهم عن ذلك، ولكنهم تمردوا عليه وعصوا أمره، فتبرأ منهم ودعا عليهم، فعاقبهم الله بالتيه في صحراء سيناء أربعين سنة، وبذلك حرموا من شرف الجهاد والتمكين من دخول الأرض المقدسة (١) " بعد هذا التمهيد نعود لتفسير الآيات الكريمة: "وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم"..... إلى قوله تعالى "وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين" بدأ موسى ﷺ بالتمهيد لتكليف بني إسرائيل بالجهاد، وذلك بتذكيرهم بنعم الله عليهم، ليشكروا الله على تلك النعم، ويحافظوا عليها بتنفيذ أحكام الله، فإن عصوا وتمردوا فقد يزيل الله عنهم تلك النعم. (٢) ونلمح من كلمات موسى ﷺ إشفاقه من تردد قومه، وخوفه أن لا ينفذوا أمر الله بالجهاد، وتوقعه أن يتمردوا عليه ويخذلوه، يتوقع كل ذلك منهم: لأنه جربهم في مواطن كثيرة، فخالقوا أمر الله وعصوا أمر نبيه، لذا حق له أن يشفق، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البشريات، وأضخم المشجعات، وأشد التحذيرات (٣) وهنا يذكرهم موسى ﷺ بثلاث نعم أسبغها الله عليهم:

النعمة الأولى: " إذ جعل فيكم أنبياء " أي بعث فيكم أنبياء ورسلاً يهدونكم إلى الحق،

ويرشدونكم، ويبلغونكم شرع الله، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء، يدعون إلى الله، ويحذرون

(١) الخالدي، القصاص القرآني (٣/ ٢٦٦-٢٦٧).

* نشير هنا إلى لختلاف المفسرين في مدة تحريم دخول الأرض المقدسة الذي كتبه الله على بني إسرائيل هل كان مؤقتاً بأربعين سنة مدة التيه أم هو تحريم دائم. قال قتادة وعكرمة: بأن التحريم أبدي، وقال آخرون: هو تحريم لبدي على تلك الجيل الذي لم يكن يدخلها وقد رجح الإمام الطبري القول بأن التحريم محدد بأربعين سنة وأنه يعم جميع بني إسرائيل لا قولاً مخصوصين منهم. الطبري جامع البيان (١٨٢/٦-١٨٤).

(٢) المصدر السابق (٣/٢٦٩).

(٣) قطب، الظلال (٢/٨٦٩).

نقسمته، حتى ختموا بعيسى (١) ولم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء (٢) ووجود الأنبياء في أمة نعمة عظيمة، وفضل كبير، ورحمة مهداة، لأن الأمة تسعد بقيادتهم لها، وشتان بين أمة فيها نبي يقودها إلى الله وبين أمة ليس فيها نبي، فهي تتخبط في الضلال (٣).

النعمة الثانية: "وجعلكم ملوكاً" أي جعلكم أحراراً تملكون أمر أنفسكم، بعد أن كنتم أذلاء مضطهدين مستعبدين لفرعون وقومه، ونعمة الحرية من الفضائل العظمى، التي لا يقترها ويحافظ عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة، التي تأبى الظلم (٤) وهذا تمهيد لتمكينهم في الأرض، وليكون فيهم الملوك الذين يحكمون بالحق والعدل وهذا ما حصل عندما دخلوا الأرض المقدسة، وأقاموا فيها مملكتهم، فكان فيهم أنبياء ملكوا كداود وسليمان عليهما أفضل الصلاة والسلام (٥).

النعمة الثالثة: "وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين" يجوز أن يكون شيئاً واحداً مما خص الله به بني إسرائيل، ويجوز أن يكون مجموعة أشياء، إذا آتاهم الشريعة الواسعة الهدى، وأيدهم بالنصر، وساق إليهم رزقهم من المن والسلوى، وتولى تربية نفوسهم بوساطة رسله (٦). وهذه المن والنعمة لم يؤتها أحد من عالمي زمانهم، وفي هذا يقول الإمام ابن كثير: (يعني عالمي زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم) (٧). وهذه النعمة وغيرها مترابطة متكاملة، مبني بعضها على بعض، فجعل فيهم الأنبياء، وأنزل الشريعة عليهم، هداية لهم وتمكيناً، وهذا يقود إلى إنشاء المجتمع وإيجاد الأمة، وينتج عن

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦/٢).

(٢) البيضاوي، الشيرازي، ناصر الدين، أبو سعيد، عبد الله بن محمد، تفسير البيضاوي المسمى. قول التنزيل وأسرار التأويل (٣١٠/٢)، تحقيق: عبد القادر عطا المشا حسونة، دار الفكر، بيروت (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

(٣) الخالدي، القصص القرآني (٢٧١/٣).

(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٨٤).

(٥) الخالدي، القصص القرآني (٢٧٢/٣).

(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٦٢/٤).

(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧/٢).

ذلك الدولة والنظام، حيث الملوك الذين يحكمونهم ويسوسونهم، وهذا الفضل من الله لا يماثله فضل في هذه الدنيا.^(١) وهكذا كانت هذه المقالة في الآية السابقة توطئة لنفوسهم حتى تعزز، وتأخذ الأمر بدخول أرض الفلسطينيين الجبارين بقوة.^(٢) ثم أمرهم موسى ﷺ، بدخول الأرض المقدسة مرغباً ومرهباً لهم بقوله: "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تتردوا على أديباركم فتقلبوا خسرين" والأرض المقدسة فلسطين هي: الأرض المباركة المطهرة التي قدسها الله وطهرها، وبارك فيها، وبعث فيها الرسل والأنبياء وعلى رأسهم إبراهيم ﷺ.^(٣) وهي أرض بيت المقدس على الأرجح، سميت كذلك؛ لأنها كانت قرار الأنبياء ومساكن المؤمنين^(٤) قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: الأرض المقدسة هي: ما بين العريش والفرات، وقال قتادة: هي بلاد الشام.^(٥) وتشمل الآن سوريا، ولبنان، وفلسطين، والأردن.^(٦) ثم أضاف إلى المغريات السابقة لدخول الأرض المقدسة إغراءً جديداً فيه ضمان للنصر، وبشارة بالفوز، فقال: "التي كتب الله لكم" وللمفسرين أقوال في المراد من الكتابة أشهرها: فرض أي: معنى كتب الله لكم، أي أمركم بدخولها، وفرضه عليكم كما فرض عليكم الصلاة.^(٧) وقيل: كتب هنا بمعنى قضى وقدر.^(٨) وقد وعدهم الله الأرض المقدسة على لسان أبيهم يعقوب ﷺ.^(٩) لكن هذا القضاء مشروط بالإيمان، وطاعة الأنبياء، والجهاد في سبيل نصرته الحق، فإذا لم يكونوا كذلك، - ولم

(١) الخالدي، القصص القرآني (٢٧٣/٣).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٣/٦).

(٣) المصدر السابق (٨٣/٦).

(٤) البيضاوي، تفسير البيضاوي (٥٠٣/٣).

(٥) رضا، تفسير المنار (٣٢٥/٦).

(٦) الخالدي، القصص القرآني (٢٧٤/٣).

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٣/٦).

(٨) ابن جزّي، التسهيل (١٧٣/١)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (١٦٢/٤).

(٩) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧/٢).

يكونوا كذلك فعلاً - لم يتحقق لهم التمكين في الأرض المقدسة. ^(١) قال تعالى: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ ^(٢) فكتابة الأرض المقدسة لبني إسرائيل كتابة إيمانية، أي أنها مشروطة بالإيمان، وطاعة أمر الله، وليست أبدية كما يزعم اليهود، لأنها لم تُكتب لهم باعتبار جنسهم الإسرائيلي، بل كتبت لذلك الجيل المؤمن فلما كفروا فقدوا حقهم في الأرض المقدسة. ^(٣) ثم حنّهم موسى ﷺ من الارتداد على الأعقاب والنكوص عن الجهاد، ومخالفة أمره كي لا يبوعوا بالخسران أو الحرمان من دخول الأرض المقدسة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت هبة من الله لهم وحرّمها عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم. ^(٤) فالوعد بقوله تعالى "كتب الله لكم" مشروط بقيد الطاعة، فلمّا لم يوجد الشرط لا جرم لم يوجد المشروط. ^(٥) ومع كل هذا الترغيب في دخول الأرض المقدسة، والترهيب من التخاذل والنكوص عن الجهاد والمخالفة، ومع البشارة بأنهم منصورون، ومفتوح لهم، وأن تلك القرية لهم، فإن طبيعة بني إسرائيل الخاصة القائمة على الجبن، والتمرد، والعصيان تأبى إلا أن تجذبهم إليها! وتأبى نفوسهم الذليلة أن تتقدم خطوة واحدة نحو الأرض التي أمرهم نبيهم ﷺ بدخولها، بل أضافوا إلى ذلك الجبن والخوار، إمعاناً في العصيان الأدبار. ^(٦) فقالوا لنبيهم ومرشدهم: "يا موسى إن فيها قوماً جبارين ... إلى قوله فبنا داخلون" ! لقد جمع موسى لقومه بين الأمر والنهي، والبشارة والندارة، والترغيب، والترهيب، والتذكير بالنعم السالفة، فكيف قابل القوم ذلك؟ لقد قابلوه أقبح المقابلة، فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم: "يا

(١) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٩٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان (١٠٥-١٠٦).

(٣) الخالدي، القصص القرآني (٢٧٦/٣).

(٤) الرزقي، التفسير الكبير (٣٣٢/٤).

(٥) المصدر السابق (٣٣٢/٤).

(٦) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٩١).

موسى إن فيها قوماً جبّارين"، فلم يوقروا رسول الله وكليمه حتى نادوه باسمه، ولم يقولوا: نبي الله، وقالوا: "إن فيها قوماً جبّارين" ونسوا قدرة جبّار السماوات والأرض الذي يُذل الجبابرة لأهل طاعته، وكان خوفهم من أولئك الجبّارين^(١) التي نواصيهم بيد الله، أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه... ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة، فقالوا " وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها" فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد أهمها: تمهيد عنر العصيان بقولهم: (إن فيها قوماً جبّارين)! وتصريحهم بأنهم غير مطيعين الآن، ولا في المستقبل، ثم علّقوا دخولها بشرط خروج الجبّارين منها!^(٢) وفي هذه الأثناء ووسط هذا الجبن والخنوع، يقف رجلان من الذين اتصفوا بصفة التقوى؛ ممن يخشون الله ويخافونه، قد أنعم الله عليهما بنعمة الإيمان والثقة بنصر الله، قالوا لقومهما حائثهم على الجهاد، ومشجعهم على دخول الأرض المقدسة، قالوا لهم: إن العمالقة أجسام لا قلوب فيها فلا تخافوهم، وازحفوا إليهم، وواجهوهم بالقتال، وشنوا عليهم حرباً هجومية، فإذا فعلتم ذلك انتصرتم عليهم بإذن الله، وظفرتم بهم.^(٣) فإنهم قد ملثوا منكم رعباً ثم ارشدهم إلى ما يحقق النصر والغلبة لهم: وهو التوكل على الله.^(٤) فماذا كان موقف المجموع الإسرائيلي الجبان من نصائح الرجلين المجاهدين: لقد ازدادوا تمرداً وعصياناً وانحرافاً! وقالوا لموسى ﷺ مقولة فاجرة: "قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وريك فقتلنا إنا ها هنا قاعدون" فأكدوا في هذه الآية عدم دخولهم أو استعدادهم لدخول الأرض المقدسة بعدة مؤكدات: بقولهم "أبداً" وهو ظرف دال على التأييد وبهذا النفي المؤبد نفخوا ما قرروه وإنما دفعهم لذلك جنبهم وانحرافهم، وحبّهم للحياة الذليلة مع القعود، على

(١) نسوه هنا إلى أن كثيراً من المفسرين حشوا كتبهم بأوصاف للجبّارين، نقلاً عن الإسرائيليات المنكرة التي يستحي الإنسان من ذكرها فظنر: (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٨/٢)).

(٢) ابن القيم، إغاثة اللهفان (ص ٦٦٢).

(٣) الزمخشري، الكشّاف (١/٦٥٤).

(٤) ابن القيم، إغاثة اللهفان (ص ٦٦٣).

الحياة العزيزة مع الجهاد، ولما شعروا أنهم محرجون في الحث على الجهاد، تواقحوا على موسى ﷺ^(١) وقالوا: "فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون"^(٢) قال سيد قطب تعليقا على قولهم هذا: (هكذا في وقاحة العاجز الذي لا تكلفه وقاحة اللسان، إلا مذ اللسان، أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان ... فلا يريدون ملكاً، ولا عزاً، ولا أرضاً، إذا كان دونها لقاء الجبارين، هذه هي نهاية المطاف بموسى ﷺ، نهاية الجهد الجهد والسفر الطويل، واحتمال الرذالات، والانحرافات، والالتواءات من بني إسرائيل).^(٣) حنيئذ قال موسى ﷺ: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين". دعوة فيها الألم وفيها الالتجاء والاستسلام لله رب العالمين.^(٤) وفيها الاعتذار، والبراءة من مقالة السفهاء، يا رب لا أملك قومي، لا أملك أحداً أحمله على طاعتك، إلا أمر نفسي وأخي هارون، ولا أثق بغيرنا أن يطيعك في اليسر والعسر، والمنشط والمكره.^(٥) فأفصل بيننا، وبين الخارجين على طاعتك بحكمك العادل!^(٦) فماذا كانت النتيجة: استجاب الله دعاء موسى بأن أضلهم ظاهراً كما ضلوا باطناً، وعاقبهم في التيه أربعين سنة، قال تعالى: "فإنها محرمة عليهم أربعين سنة... قال الله تعالى لموسى ﷺ: إن الأرض المقدسة محرمة عليهم ممنوعون من دخولها مدة أربعين سنة، يتيهون

(١) الخالدي، القصص القرآني (٢٨٣/٣).

(٢) شتان بين موقف هؤلاء اليهود الجبناء وموقف صحابة رسول الله ﷺ، حين استشارهم ﷺ في قتال قريش قبيل معركة بدر، فقد روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن لكون صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: "اذهب أنت وربك فقاتلا" ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك! فرليت النبي ﷺ لشرق وجهه ومرة، يعني قوله). أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم.. إلى قوله تعالى: قال الله شديد العقاب" (الأأنفال: ٩-١٢). برقم (٣٩٥٢)، انظر، ابن حجر، فتح الباري (٣٦٤/٧).

(٣) قطب، سيد، الظلال (٨٧١-٨٧٠/٢).

(٤) المصدر لسابق (٨٧١ / ٢).

(٥) رضا، تفسير المنار (٢٣٥ / ٦).

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٩/٢).

في الأرض ولا يهتدون إلى الخروج منها، يقال: تاه بئيه تيهاً وتوهاً إذا تحير. ^(١) والتهيه: الصحراء التي ليس فيها علامة يُهتدى بها، فبئيه ويضل ويحترس سالكها. ^(٢) ثم ينهي الله تعالى موسى ﷺ عن الحزن عليهم، لأنهم فاسقون مستحقون للعقاب. ^(٣) وهكذا أسلمهم شؤم المعصية، وهم على أبواب الأرض المقدسة، إلى التيه في مجاهيل صحراء سيناء، مدة تكفي لموت ذلك الجيل الجبان المترهل، الذي لم تنفع معه كل الوسائل والحيل للارتقاء بهم، ولينشأ في هذه المدة جيل جديد من أبنائهم، يعيشون حياة الكرامة والحرية، ويذوقون شطف العيش وشدته وخشونته، وهم يقاسون عناء الصحراء، فيصلب عودهم، وتقوى نفوسهم، فيسارعون للجهاد والقتال. ^(٤) وهكذا كشفت الآيات الكريمة عن هذا الانحراف العسكري لدى هذا الجيل من بني إسرائيل، هذا الانحراف الذي تمثل في جبنهم وخوفهم من القتال والجهاد في سبيل الله، وقت أن أمرهم الله به، فاستحقوا بانحرافهم هذا غضب الله وعقابه، والهزيمة من دون قتال.

ونختم بما قاله الإمام ابن كثير معقّباً على هذه القصة حيث قال: (تضمنت هذه القصة تبريح اليهود، وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن الطاعة فيما أمرهم الله ورسوله به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالنتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه، وصفية من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال، والغرق له ولجنوده في اليمّ وهم ينظرون، لتقرّ به أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح

(١) القرطبي، للجامع لأحكام القرآن (٦/ ٨٥).

(٢) قيس، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، مادة تيه (١/ ٩١-٩٢).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٠).

(٤) الخالدي، القصص القرآني (٣/ ٢٩٠).

صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم بعمهون، وفي غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك نحن أبناء الله وأحباؤه، ففتح الله وجوههم التي مسح منها الخنازير والقروء، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات القود، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود).^(١)

الاحرفات العسكرية التي ظهرت في قصة طالوت

قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبناتنا * فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين * وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم * وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشرّبوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين * ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا واتصرونا على القوم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٠/٢ - ٤١).

الكافرين * فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴿^(١)﴾

تتحدث الآيات الكريمة عن قصة وقعت لبني إسرائيل بعد موسى ﷺ، وذلك إن بني إسرائيل قد هزموا أمام أعدائهم قوم جالوت، وتمكن أعداؤهم كذلك من أخذ بعض ما في أيديهم من الديار، وسلبوهم التابوت المقدس الذي ورثوه عن موسى وهارون (عليهما السلام)، وكان فيه بقية مما ترك آل موسى، وآل هارون وفيه سكينه من ربهم، وكان أقدس ما يملكون، ويبدو أن أعداءهم لما هزموهم في آخر معركة سلبوا منهم التابوت، فشق ذلك على بني إسرائيل ودفعهم للرغبة في القتال، فطلبوا من نبيهم أن يختار لهم من ملكاً ليقاتلوا معه أعداءهم، فاختر من بينهم طالوت ملكاً عليهم، بوحي من الله، وأراد الله تعالى أن يقم آية لملك طالوت، بأن يأتيهم بذلك التابوت تحمله الملائكة ليخضعوا لطالوت وليكونوا جنداً عنده. وهذه انحرافات ذات صلة بالشأن العسكري حيث جاءت في سياق الحديث عن الجهاد والقتال، ومن الجدير بالملاحظة هنا: أننا وإن كنا نسلط الضوء على الجانب المظلم من القصة، فلا يعني ذلك أنها لا تشمل الجانب الآخر المضيء، كلا فقد اشتملت على إيجابيات، وتكاد تكون هي الهدف الأسمى، والعبرة البارزة المنشودة من هذه القصة، حيث ختمت ببيان انتصار الفئة المؤمنة القليلة الثابتة على الحق على الكثرة الكافرة، أما الانحرافات التي أبانت عنها الآيات فهي:

الانحراف الأول: توليهم عن القتال بعد أن كتب عليهم، وهم الذين طلبوه من قبل، قال

تعالى: ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ أخبر الله تعالى

أنه لما فرض القتال على بني إسرائيل ورأوا الحقيقة، ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب، وأن

(١) سورة البقرة: الآيات من (٢٤٦ - ٢٥١).

نفوسهم قد ترهق، اضطربت عندها نياتهم، وفترت عزائمهم. ^(١) وهو ما توقعه نبيهم عندما سأله الملائكة ^(٢) منهم أن يختار لهم ملكاً من بينهم يجاهدون معه، فأجابهم نبيهم: "هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا"، بمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال، قال الإمام القرطبي معقياً على توليهم عن الجهاد: (وهذا شأن الأمم المتعممة، المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب كعت ^(٣) وانقادت لطبعها). ^(٤)

الانحراف الثاني: اعتراضهم على ملك طالوت وتمردهم على أمر نبيهم.

إن الاعتراض على القيادة دونما وجه حق، والتمرد عليها، وتفرق الكلمة، من أكبر عوامل الهزيمة والفشل وهذا ما حصل من بني إسرائيل، حينما أخبرهم نبيهم أن الله قد ملك عليهم طالوت، ليكونوا تحت أمرته في تدبير أمر الحرب، وليكون قائداً لهم، وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في مبحث سابق، وهذا الانحراف ما هو إلا بداية مسلسل من الانحرافات العسكرية التي أعقبته .

الانحراف الثالث: مخالفتهم أمر قائدهم طالوت، وعدم طاعته، وتم ذلك عبر مرحلتين من مراحل الحرب.

إن عدم طاعة القيادة عند الخروج للقتال أو أثناء المعركة، من شأنها أن تتبطل العزائم، وتضعف الهمم لدى الجند في قتال الأعداء، فهي من عوامل الهزيمة، خاصة إذا صدرت عن أكثرية الجند، فبعد إعداد طالوت لجيشه، وتعبئتهم للمعركة الفاصلة مع جالوت وجنده، وأثناء خروج طالوت بجيشه، مروا بنهر في طريقهم، وهو نهر الأردن (ابن كثير) فأراد طالوت أن

^(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٠/٣)

^(٢) للملائكة هم الأشراف من الناس كأنهم ملئوا شرفاً، قال للزجاج: سموا بذلك لأنهم مليونون بما يحتاج إليه منهم، وللملائكة اسم جمع كالقوم والرهط. (الشوكاني، فتح القدير (١/٢٦٤)

^(٣) كعت: بمعنى جنبت وضعفت: مجموعة من العلماء، المعجم الوسيط (٢/٧٩٠).

^(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٠/٣).

يرتبي جنده تربية جهادية، ويقوي إرادتهم تمهيداً لخوض غمار الحرب، فطلب منهم ألا يشربوا من النهر حتى الارتواء، وأجاز للواحد منهم إن يغترف غرفة بيده، يبل بها ريقه، ويطنفئ بها عطشه، وهي استثناء من النهي العام عن الشرب، يترك للجندي مجالاً للحركة، ولا يعلق عليه الأمر من جميع الجهات، وبعد هذا الأمر من حكمة طالوت، وموهبته القيادية . (١) قال تعالى: " قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده" وهنا يخبرهم طالوت أن الله هو الذي يمتحنهم ويختبرهم، بعدم الشرب من النهر، ليظهر الجندي المؤمن المطيع من العاصي المخالف، وهذا يدل على أن الله هو الذي أوحى لطالوت بهذا التكليف، ولكن لا ندري كيف لأنه لم يرد في ذلك نص صحيح، ونقف هنا قليلاً لنتساءل عن سرّ التعبير عن الشرب بالطعم، قال الإمام الراغب: (الطعم يتناول الغذاء، ويسمى ما يتناول: منه طعم وطعام وقد يستعمل في الشراب، كقوله: " فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني". وقال بعضهم: إنما قال: "ومن لم يطعمه" تنبيهاً أنه محظور عليه أن يتناول إلا غرفة مع طعام، كما أنه محظور عليه أن يشربه إلا غرفة، فإن الماء قد يطعم إذا كان مع شيء يمضغ، ولو قال ومن لم يشربه لكان يقتضي أن يجوز تناوله إذا كان في طعام فلما قال: "ومن لم يطعمه" بين أنه لا يجوز تناوله على كل حال إلا المستثنى وهو الغرفة باليد) (٢)

فماذا كانت نتيجة الاختبار الأول: "شربوا منه إلا قليلاً منهم"، لقد رسب أكثرهم في الامتحان، ففقدوا أحقيتهم في الجندية في الجيش المؤمن المجاهد، وعصوا الله وخالفوا أمره، ومن عصا الله وخالف أوامر القائد فلن يكون أهلاً للنصر، بل سيكون وبالاً على باقي الجيش، وسبباً في الهزيمة (٣) وهكذا تصرفت الأكرثية وفق طبيعة اليهود المعوجة، والمتميزة بالنقل والمخالفة،

(١) الخالدي، لتقصص القرآني (٣/٣٨٦).

(٢) الراغب، المفردات (ص٣٠٧).

(٣) الخالدي، لتقصص القرآني (٣/٣٨٨).

وعادت هذه الفئة الكثيرة وتركت الجيش، وبقيت معه القلة المؤمنة، واستمر طالوت بمن معه، ولم يجبن ولم يتراجع عن خوض المعركة، وبأيت هذه القلة القليلة تثبت، بل كان هذا هو الفرز الأول والتصفية الأولى للجيش، ثم تبع ذلك تصفية وفرز آخر، بعد مرحلة متقدمة، قال تعالى: "فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده..." لقد انقسمت هذه الفئة القليلة قبل خوض المعركة الفاصلة إلى قسمين: قسم نكص وجبن عن القتال والجهاد، حيث أصابهم الهلع ودب في قلوبهم الرعب، من كثرة عدد جيش جالوت وقالوا: "لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده"، وقسم ثبت، وصمم على الدخول في المعركة، وهم المؤمنون الصادقون، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وقالوا ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ﴾^(١) روى الإمام البخاري بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة^(٢) فماذا كانت النتيجة؟ لقد دخلت الفئة المؤمنة، القليلة بعددها وعدتها العظيمة بإيمانها، دخلت المعركة داعية الله أن يفرغ عليها صبراً، وأن يتبّت أقدامها وأن ينصرها على القوم الكافرين، فاستجاب الله دعائها، فانتصرت على أعدائها، رغم كثرة عددهم وعدتهم، وحسمت المعركة لصالح المؤمنين، بعد أن قتل داود جالوت. وهكذا كشفت لنا الآيات الكريمة عن عدد من الانحرافات العسكرية ارتكبها جمهور الجيش الإسرائيلي!

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٨٨ - فما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر برقم ٣٩٥٨. انظر: ابن حجر، فتح الباري (٧/ ٣٦٨ - ٣٦٩).

آية من سورة الحشر تكشف عن انحرافات اليهود العسكرية:

ونختم هذا المبحث بنكر بعض الانحرافات العسكرية التي كشفت عنها آية من سورة الحشر، وسجلتها على اليهود، ودمغتهم بها على مر العصور قال تعالى: ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة^(١) أو من وراء جدر^(٢) * بأسهم بينهم شديد * تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى * ذلك بأنهم قوم لا يعقلون^(٣) ﴾ تتحدث هذه الآية وغيرها من سورة الحشر عن وقعة بني النضير، في أوائل السنة الرابعة للهجرة، وهذه الآية التي نحن بصددنا عامة في اليهود، وليست خاصة ببني النضير؛ لأنها سجلت عليهم مجموعة انحرافات وصفات موجودة فيهم في كل زمان ومكان، وهذه الانحرافات العسكرية التي كشفتها الآية الكريمة هي :

قتالهم لأعدائهم من داخل قراهم وتجمعاتهم، وحصونهم وقلاعهم. وقوله تعالى: "جميعاً" يجوز أن يكون بمعنى كلهم فيكون للشمول، أي لا يقاتلكم اليهود، والمنافقون إلا في قرى محصنة، ويجوز أن يكون "جميعاً" بمعنى مجتمعين، أي لا يقاتلونكم جيوشاً كشأن جيوش المتحالفين، فإن ذلك قتال من لا يقعون في قراهم، وحصونهم، والمعنى على هذا: لا يقاتلونكم كلهم في حال من الأحوال، إلا في حال كونهم في قرى محصنة، أو من وراء جدر، وعلى الوجه الثاني في "جميعاً" الاستثناء يكون منقطعاً، لأن القتال في القرى، ومن وراء الجدر ليس من أحوال قتال الجيوش المتساندين.^(٤) وعلى كلا الاحتمالين، فالنص يفيد أنهم لا يقاتلون إلا متفرقين، كل فريق في قريتهم، وإلا خانقين مترسبين، ثم قال: لا يهاجمونكم، وإن هاجمكم فإنهم لا يبرزون إليكم، ولكنهم يدافعونكم في قرى محصنة، أو يقاتلونكم من وراء جدر، أي في

(١) محصنة: أي ممنوعة ممن يريد أخذها، بأسوار أو خنادق. ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٣/١٠٥).

(٢) جدر: مفرد جدار، وهو الحائط (الراغب، المفردات ص ٩٦).

(٣) سورة الحشر: الآية ١٤.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٣/١٠٥).

الحصون والمعازل، ومن وراء الأسوار، وهذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة، إذ ما حارب قوم في عقر دارهم إلا نلوا.^(١) إن سبب قتال اليهود في قراهم وحصونهم، هو خوفهم وجبنهم عن القتال والمواجهة. قال ابن كثير: (من جبنهم وهلعهم لا يقرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفاع عن أنفسهم ضرورة)^(٢) وقوله تعالى: "بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى". ومعنى قوله تعالى: "بأسهم بينهم شديد أي: أن عداوة بعضهم لبعض شديدة، قال السدي: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد."^(٣) وهذه العداوة والبغضاء فيما بينهم أكدتها آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(٤) كما أكد سبحانه وتعالى تفرقهم وبغضهم لبعضهم بعضاً، بقوله: "تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى"، فالناظر إليهم يحسبهم متحدين متفقين، وهذا في الحقيقة مظهر خارجي خادع، وسرعان ما ينكشف الستار، فيبدو من ورائه صدق خبر السماء في دنيا الواقع المنظور، وينكشف الحال عن نزاع داخل المعسكر الواحد، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء.^(٥) قال الزمخشري: "تحسبهم جميعاً" (مجتمعين نوي ألفة واتحاد "قلوبهم شتى" متفرقة لا ألفة بينها، يعني: أن بينهم إحناً وعداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم).^(٦) إن من الأخطاء العسكرية القاتلة والمدمرة وقت المعارك والحروب، تفرق الكلمة، واختلاف الصفوف، وهذا هو حال اليهود كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز.

(١) المصدر السابق (١٠٥/١).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٠/٤).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤/١٨).

(٤) سورة المائدة: الآية (٦٤).

(٥) قطب، للظلال (٣٥٢٩/٦).

(٦) الزمخشري، الكشاف (٥٠٧/٤).

الفصل الثالث: اتحرافات أهل الكتاب الأخلاقية.

المبحث الأول: الخيانة ونقض العهود والمواثيق.

المبحث الثاني: الحرص على الحياة.

المبحث الثالث: القتل وسفك الدماء.

المبحث الرابع: الفساد.

المبحث الخامس: تركيتهم لأنفسهم.

المبحث السادس: قسوة القلب والإصرار على الذنب.

المبحث السابع: منع النعمة عن الناس.

المبحث الثامن: الكيد.

الفصل الثالث

اتحرافات أهل الكتاب الأخلاقية

- تمهيد:

لقد امتدح الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ وأصحابه الكرام قبل ميلاده ﷺ ، وقبل وجود أمته، لما هم عليه من أخلاق فاضلة، وخصال حميدة، لم توجد في أمة من الأمم كما وجدت في الأمة الإسلامية، مبيناً لأهل الكتاب بعضاً من كريم هذه الأخلاق في التوراة والإنجيل، في معرض حضهم على الاقتداء بأصحاب هذه الأخلاق الفاضلة، والصفات الحميدة فقال تعالى: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾^(١) وفي المقابل بين الله تعالى لنا أنه ما من أمة من الأمم عندها من الأخلاق الفاسدة، والطباع المنحرفة مثل اليهود، ولأمر ما قرّن الله تعالى اليهود بالمشركين، فقال تعالى: ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾.^(٢)

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨٢.

المبحث الأول: الخيانة ونقض العهود والمواثيق.

إن الخيانة ونقض العهود من أبرز الصفات وأبينها في اليهود، لذا اخترت البدء بها، فالقرآن الكريم قد دمج اليهود ووسمهم بهذه الصفة، في كثير من الآيات التي سنتناولها في هذا المبحث، وكان نقض العهود والمواثيق يجري في دماء اليهود، وكأني بهم يربون أبناءهم على ذلك، ولا يكاد أحدٌ منهم يحفظ عهداً مع الله والناس إلا قلة قليلة، قال تعالى: ﴿أَوْ كَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) والعهود التي نبذها اليهود ونقضوها كثيرة منها: العهد بتصديق الأنبياء وعدم قتلهم، ومنها: ألا يعبدوا إلا الله، ومنها: الإيمان بمحمد ﷺ، ومنها: عدم إعانة المشركين، وما زالوا ينقضون عهودهم حتى يومنا هذا. ونبدأ بالآيات الواردة بهذا الشأن قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَنْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) في هاتين الآيتين يذكر الله تعالى بني إسرائيل بما جرى مع أسلافهم، لما أخذ الله تعالى عليهم العهد والميثاق، بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، فقد أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل الذين كانوا مع موسى ﷺ، ورفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلّة، ليقرّوا بما عاهدوا عليه، وبأخذوه بقوة وحزم وامتثال، قال السدي: لما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيه، فسقطوا سجداً، فسجدوا على شقّ ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا والله ما سجدة أحبّ إلى الله من سجدة كشف العذاب عنها، فهم

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٠.

(٢) سورة البقرة: الآيتان (٦٣-٦٤).

يسجدون كذلك. ^(١) وأمرهم الله سبحانه أن يأخذوا ما آتاهم وهي التوراة، فيقرؤوها ليحلوا حلالها ويحرموا حرامها، ويعملوا بما فيها بقوة، أي بطاعة وجدّ، فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة، فكشف الله عنهم العذاب، ولم يسقط الجبل عليهم. ^(٢) فكيف قابل اليهود ذلك؟ لقد ترك اليهود هذا الميثاق المؤكد العظيم ونقضوه، ولولا أن الله سبحانه تداركهم بفضلهم ورحمته، فتاب عليهم وأرسل إليهم النبيين ليجتدوا العهد فيهم، لولا ذلك لكانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، بسبب نقضهم العهد والميثاق. ^(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ^(٤) وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ^(٥) تتحدث هذه الآية عن اليهود حيث أخذ الله عليهم العهد في أمر محمد ﷺ فكتموه، وهي عامة في كل من علمه الله علماً. ^(٦) وفي ذلك توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوّهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تعالى تابعوه، ولكنهم كتموا ذلك، ورضوا عمّا وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة، وبئست البيعة بيعتهم. ^(٧) وهكذا نبذ القوم ميثاق الله كعادتهم وطرحوه ولم يعتنوا به. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا إِذْ مَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ^(٨) ومعنى هذه الآية: أن الله تعالى أخذ من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٤/١-١٠٥).

* نكر لي الدكتور ناصر الدين الشاعر، أستاذ مقارنة الأدبان بجامعة النجاح الوطنية أنه زار معبد اليهود عدة مرات ورآهم يسجدون على حاجبهم الأيسر وينظرون بشقهم الأيمن.

^(٢) للمرجع السابق (١٠٥/١).

^(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٤/١-١٠٥).

^(٤) والنبذ وراء الظهر: مثل في الطرح، وترك الاعتداد (الزمخشري، الكشاف (٤٧٨/١).

^(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

^(٦) ابن جزّي، للتسهيل (١٢٦/١).

^(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/١).

يقتلون^(١) ومعنى هذه الآية: أن الله تعالى أخذ من اليهود العهد المؤكد على الإيمان بالله ورُسُلَه فنقضوا العهد، وكفروا بالله وقتلوا رُسُلَه، ومن نجا منهم من القتل كذبوه وحاكوا ضده المؤامرات، وهذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذ الله تعالى عليهم وما اجترحوه من الجرائم العظام، من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم، وهؤلاء أخلاف أولئك، فغير بدع ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان، إذ ذاك شنشنة من أسلافهم!^(٢) وقد جمع اليهود في هذه الآية بين رذيلتين من أسوأ رذائلهم هما: نقض العهد مع الله، وقتلهم طائفة من الرُسُل، وتكذيبهم لطائفة أخرى منهم. وإنما جاء بـ "يقتلون" موضع "قتلوا" على حكاية الحالة الماضية، استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل، وتبهيهاً على أن ذلك ديدنهم ماضياً ومستقبلاً.^(٣) وقال تعالى: ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً،^(٤) وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم^(٥) وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل * فيما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح، إن الله يحبّ المحسنين * ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾^(٦) اختلف العلماء في كيفية بعث هؤلاء النقباء، فقيل: إن المراد بنقباء بني إسرائيل: قوم كبار من كل سبط،

(١) سورة المائدة: الآية ٧٠.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط (٣٢٥/٤).

(٣) البيضاوي، تفسير البيضاوي (٥٦١/٣).

(٤) النقيب: هو كبير القوم القائم بأمرهم، والذي ينقب عن مصالحهم. للقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٥/٦).

(٥) للتعزيز: هو النصر مع التعظيم. للراغب، المفردات (ص ٣٣٦).

(٦) سورة المائدة: الآيات (١٢-١٤).

أمر موسى ﷺ بني إسرائيل أن يختاروهم على حسب بطونهم، ليكونوا كُفلاء على قومهم في حثهم على الإيمان، والتقوى، وتنفيذ أمر نبيهم.^(١) وعليه يكون هؤلاء رؤساء جيوش، أو يكونون رواداً أو جواسيس.^(٢) وإنما اختار موسى ﷺ، اثني عشر نقيباً من بني إسرائيل بعدد بطونهم، ليكونوا رقباء عليهم، لأنهم قوم قد توالت عليهم السنون وهم تحت حكم فرعون وظلمه فانحلت إرادتهم، وخارت عزائمهم، وتزعزعت ثقتهم بأنفسهم، وضعف في نفوسهم الأثر بالفضائل، فكان لا بدّ لهم من منكر مستمر بينهم، يكفكف من أطماعهم إذا رغبوا، ويرفع من معنوياتهم إذا رهبوا، حتى تتربى إرادتهم، وتقوى عزائمهم.^(٣) ومعنى الآيات السالفة الذكر: لقد أخذ الله تعالى على بني إسرائيل العهود والمواثيق، بأن يعملوا بما في التوراة، وأمر موسى ﷺ بأن يأخذ اثني عشر نقيباً من قومه، من كل سبط نقيب، ليكون كفيلاً على قومه، في تنفيذ أوامر الله والوفاء بعهده. وقيل، لما استقرّ بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير إلى أريحاء - بأرض الشام - وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إني كتبت لكم داراً وقراراً، فجاهدوا من فيها فأني ناصركم، وأمر بأن يأخذ من كل سبط نقيباً، فاختر النقباء وسار بهم، فلما ننا من أرض كنعان بعث من يتجسس الأخبار، فرأوا قوماً أجسامهم عظيمة، ولهم قوة وشوكة، فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم، وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يرون، فنكثوا الميثاق، وتحدثوا إلاّ اثنين منهم.^(٤) مع أن الله تعالى وعدهم بنصره وتأبيده: "وقال الله إني معكم" إذا التزمتم ووفيتكم بعهدي وميثاقي، وقد تضمن هذا الميثاق خمسة أمور كلّفوا القيام بها وهي:

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٥/٦).

(٢) ابن عسور، التحرير والتبوير (١٤٠/٤).

(٣) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٠٣).

(٤) الزمخشري، الكشاف (٦٤٩/١).

١. إقام الصلاة: قال تعالى: "لئن أقمت الصلاة" اللام للقسم، أي وأقسم لكم يا بني إسرائيل لئن أدبتم ما فرضت عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة...^(١) والمقصود بإقامة الصلاة: ليس مجرد أدائها، وإنما إقامتها مستكملة شروطها وأركانها بركوعها وسجودها وخشوعها، بحيث تكون صلة حقيقية بين العبد والرب، وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الرباني، أمره بالمعروف، ناهية عن الفحشاء والمنكر.^(٢)
٢. وإيتاء الزكاة: لمستحقيها، تحقيقاً للتكافل الاجتماعي الذي على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن.^(٣)
٣. والإيمان برسُل الله جميعاً: دون تفريق بينهم فكلهم جاء من عند الله تعالى، وعدم الكفر بأحد منهم، لأن الكفر بأحدهم كفرٌ بهم جميعاً، وكفر بالله تعالى الذي بعثهم. "وعزرتموهم" أي نصرتموهم من أيدي العدو، ومنه التعزير، وهو التكيل والمنع من معاودة الفساد يقال: عزرت الرجل إذا حطته وكنته،^(٤) فتعزير الرسل: هو تصديقهم ونصرتهم ومنعهم من الأعداء.
٤. واقرضتم الله قرضاً حسناً: بالانفاق في سبيله وابتغاء مرضاته.^(٥) هذه هي بنود الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل وقد جاءت في جملة شرطية مؤكدة بالقسم، أما جواب القسم: فهو قوله تعالى: "لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار"^(٦). وقد تضمن هذا الجواب وعداً من الله تعالى، لبني إسرائيل إذا وفوا بشروط

(١) الدرر، إعراب القرآن (١٩٢/٢).

(٢) قطب، الظلال (٨٥٧/٢).

(٣) المرجع السابق (٨٥٧/٢).

(٤) الزمخشري، الكشاف (٦٤٩/١).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣/٢).

(٦) الظلال (٨٥٨/٢)، والدرر، إعراب القرآن الكريم (١٩٢/٢).

العهد والميثاق ويتضمن هذا الوعد: تكفير السيئات ، وغفران الذنوب أولاً، وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، أي: من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والتمر والعسل ثانياً. (١) ثم حذرهم الله تعالى بعد ذلك من نبذ عهده وميثاقه أو الكفر به، فقال تعالى: " فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل " أي: من كفر بعد هذا الميثاق وخالفه بعد عقده وتوكيده، أو جرده وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح، وعدل عن الهدى إلى الضلال. (٢) إن ذلك كان ميثاق الله مع نساء بني إسرائيل عن وراءهم، وقد ارتضوه جميعاً، فصار ميثاقاً مع كل فرد منهم، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم، فهل وفى بنو إسرائيل بهذا العهد وهل حفظوه والتمروا شروطه؟ الجواب: كل، فقد نقضوا ميثاقهم مع الله تعالى، وقتلوا أنبياءهم بغير حق، وتأمروا عليهم، وحرّفوا كتابهم التوراة، ونسوا شرائعها، فلم ينفذوها، ووقفوا موقف العدا والمكر والعدا من خاتم النبيين محمد ﷺ، وخانوه وخانوا مواليقهم معه، فباعوا بالطرد من هدى الله ورحمته، وقست قلوبهم، فلم تعد صالحة لاستقبال الهدى. (٣) وبسبب نقضهم لعهدهم مع الله استحقوا غضبه والطرد من رحمته، قال تعالى: " فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قلبية يحرفون الكلم عن مواضعه". وصدق الله، فهذه سمات يهود لا تفارقهم ... لعنة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا مكرراً إيداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعومة في الملمس عند الكيد والوقعية، فإن جفاف الملامح والسمات، ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة، إن

(١) القرطبي (٧٦/٦)، والظلال (٨٥٨/٢).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن للعظيم (٣٣/٢).

(٣) قطب، الظلال (٨٥٨/٢).

طابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه. ^(١) وقوله تعالى: 'ونسوا حظاً مما ذكروا به' أي: تركوا العمل به رغبةً عنه، وقال الحسن: تركوا عرى دينهم، ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. ^(٢) والنسيان: هو ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره. ^(٣) ونسيان اليهود لأوامر الله تعالى شامل لهذه الأنواع الثلاثة. أما قوله تعالى: 'ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين' فهو خطاب للنبي ﷺ، أي: لا تزال يا محمد تظهر على خيانة منهم، بنقض العهود وتدبير المكائد، فالغدر والخيانة عادتهم وعادة أسلافهم، إلا قليلاً منهم ممن أسلم، وهذا غاية الإنصاف. ^(٤) ثم أمر النبي ﷺ بالعتو عن أساءتهم. ^(٥) قال بعض السلف: ما عاملت من عصا الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. ^(٦) وقيل: المراد العفو عن مؤمنيتهم، وعدم مؤاخبتهم بما سلف منهم. ^(٧) وقيل: (إن المراد بهم: اليهود الذين بقوا على كفرهم، ولكنهم لم ينقضوا عهودهم). ^(٨) وعلى كل حال: فقد أمر النبي ﷺ بإجلائهم عن المدينة المنورة، لما لم يعد الصفح والعتو مجدياً معهم، ثم تم إجلاؤهم عن الجزيرة العربية كلها. ^(٩) وفي الآية الرابعة عشرة من سورة المائدة: بين لنا سبحانه وتعالى طرفاً من نقض النصارى للعهد والميثاق معه سبحانه وتعالى، فقال: 'ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم... ومعنى الآية: أن الله تعالى أخذ من الذين ادعوا

(١) المرجع السابق (٢/٨٥٨-٨٥٩).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٣).

(٣) الراسب، المفردات (ص ٤٩٣).

(٤) للزمخشري، الكشاف (١/٦٥٠)، وللعروبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/٧٧).

(٥) قطب، الظلال (٢/٨٦٠).

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٣).

(٧) الزمخشري، الكشاف (١/٦٥٠).

(٨) الرازي، للتفسير الكبير (٤/٣٢٥).

(٩) قطب، الظلال (٢/٨٦٠).

أنهم أنصار الله وسمّوا أنفسهم بذلك، أخذ منهم أيضاً كما أخذ على بني إسرائيل من قبلهم: العهد والميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد ﷺ. (١) وغيره من الرُّسُل وأخذ الله من النصارى الميثاق كذلك. (٢) ولما كان المقصود في هذه الآية نهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم في نصرته الله تعالى، ناسب ذلك أن يصدر الكلام بما يدل على أنهم لم ينصروا الله، ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصر، وما كان حاصل أمرهم إلاّ التفوّه بدعوى النصر، وقولها دون فعلها. (٣) (وفي قوله تعالى: "إنا نصارى" ولم يقل من النصارى: دليل على أنهم ابتدعوا النصرانية، وسمّوا بها). (٤) "فنسوا حظاً مما ذكرنا به" أي تركوا ما أمرنا به في الإنجيل من الإيمان بالأنبياء، ونقضوا الميثاق. (٥) فتركوا حظاً وافراً مما جاءهم به عيسى ﷺ، ثم بينت الآية الكريمة أن الله تعالى ألزم وألصق بين فرق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة، وقيل بينهم وبين اليهود. (٦) والإغراء: هو الإلصاق. (فأغرنا) أي: ألصقنا والزمناء، من غرى بالشئ إذا لزمه، ومنه الغراء الذي يلصق به. (٧) وحقبة الإغراء: هي حثّ أحد على فعل وتحسينه إليه، حتى لا يتوانى في تحصيله، فاستعير الإغراء لتكوين ملازمة العداوة والبغضاء في نفوسهم، والنصارى لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، وكل فرقة تمنع الأخرى من دخول معبدها). (٨) وقد حدثنا التاريخ أن العداة بين الأمم النصرانية مستحکم حيث حدثت حروب

(١) الصابوني، صفوة التفسير (٣٠٧/١).

(٢) الزمخشري، للكشاف (٦٥٠/١).

(٣) ابن المنير المالكي، الانتصاف بحاشية الكشاف (٦٥١/١).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٨/٦).

(٥) الصابوني، صفوة التفسير (٣٠٧/١).

(٦) الزمخشري، للكشاف (٦٥١/١).

(٧) المرجع السابق (٦٥١/١).

(٨) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣/٢).

طاحنة بين الشعوب الأوروبية والطوائف النصرانية، كان آخرها شمولاً الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، وإن العداوات الإقليمية بين الكنائس النصرانية على أشدها كما هو الحال في إيرلندا وغيرها. (١)

خيانة اليهود في المدينة المنورة زمن النبي ﷺ

ونختم هذا المبحث بذكر جانب من خيانة اليهود الذين كانوا يجاورون المسلمين في المدينة، وكيف عاملهم النبي ﷺ، كان الكفار مع النبي ﷺ بعد الهجرة على ثلاثة أقسام: قسم وادعهم ألا يحاربوه ولا يمالئوا عليه عدوه، وهم طوائف اليهود الثلاث: قريظة والنضير وقينقاع، وقسم حاربوه وناصروا له العداوة، كقريش وقسم تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره، كطوائف من العرب ... فكان أول من نقض العهد من اليهود قينقاع، فحاربهم في شوال فنزلوا على حكمه. (٢)

ويتلخص أمر بني قينقاع وكيفية نقضهم للعهد فيما رواه ابن هشام عن أبي عون: أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ هناك منهم، فجعلوا يريدها على كشف وجهها فأبى فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سواتها، فضحكوا منها، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، فسار إليهم النبي ﷺ بعد أن استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، فحاصرهم أشد الحصار، خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وكان اللواء بيد حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم

(١) عباس، د. فضل، وعباس، سناء، إعجاز القرآن (ص ١٨٨).

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٤١٩/٧).

رسول الله ﷺ^(١). أما بنو النضير: فقد كاشفوا المسلمين بالعداوة والغدر بعد وقعة أحد، مع أنهم كانوا مرتبطين بمعاهدة مع المسلمين، فأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرّاً، ويعملون ضد المسلمين، وصبر النبي ﷺ حتى ازدادوا جرأة وجسارة، وقاموا بتدبير مؤامرة تهدف إلى القضاء على رسول الله ﷺ، وذلك حين خرج إليهم في نفرٍ من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمير، وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك، فجلس النبي ﷺ إلى جنب جدار لهم، انتظراً لوفائهم بما عاهدوا، وكان معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه، وخلا اليهود بعضهم إلى بعض يتأمرون على قتل النبي ﷺ، قالوا أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقبها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقام عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تغلوا، فوالله ليخبرن بما همتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم، فنزل جبريل من عند الله وأخبر رسول الله ﷺ بما هموا به، فنهض ﷺ مسرعاً وتبعه أصحابه، وما لبث رسول الله ﷺ أن أرسل محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: "أخرجوا من المدينة ولا تساكوني بها، وقد أمهلتكم عشراً، فمن وجد بعد ذلك بها ضربت عنقه"^(٢) فتجهز القوم للرحيل، لكن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي حنهم على البقاء في ديارهم وقتال المسلمين، ووعدهم أن ينصرهم، وقال لهم: اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون حصونكم فيموتون دونكم، فعادت لليهود تقنهم بأنفسهم وقرروا البقاء والمناورة، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بذلك، فسار إليهم رسول الله ﷺ وأعطى

(١) ابن كثير، أبو الفداء. إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية (٣/٤) مكتبة المعارف، بيروت.

(٢) ابن سعد، محمد بن منيع الهشمي، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، (٥٧/٢- فما بعدها) للزهراء للاعلام العربي، القاهرة (الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م)، وكجك، مروان، تهذيب سيرة ابن كثير، (ص٣٣٨- فما بعدها)، والمباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم (ص٢١٧)، دار الفكر، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م).

لواءه علي بن أبي طالب، وضرب عليهم الحصار خمس عشرة ليلة، وقيل ست ليال، فقذف الله في قلوبهم الرعب وتهينوا للاستسلام، وطلبوا الرحيل عن المدينة، ولهم ما حملت الإبل إلا السلاح، فأنزلهم رسول الله ﷺ على ذلك، وخرّبوا بيوتهم بأيديهم، ورحلوا إلى خيبر والشام، وكانت أموالهم وأرضهم وديارهم فيئناً للمسلمين، يضعها رسول الله ﷺ حيث شاء، وكان ذلك في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، وفيهم نزلت سورة الحشر. (١)

نقض يهود بني قريظة للعهد:

لقد كان غدر بني قريظة ونقضهم للعهد مع المسلمين، أشد وأقسى من نقض بني قينقاع، وبني النضير، ذلك أنّ بني قريظة نقضوا العهد في ساعة العسرة، بينما كان المسلمون محاصرين داخل المدينة، يواجهون أشد الحملات عليهم من الأحزاب بقيادة أبي سفيان، وحيي بن أخطب وعيينة بن حصن، ومما يجدر ذكره، أن قريظة كانت أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظهم كفراً، كما أنّ نقضهم للعهد قد تكرر أكثر من مرة، فقد ساعدوا قريشاً في معركة بدر فأمدوها بالسلاح، واتفقوا مع الأحزاب على سحق المسلمين واستئصال شأفتهم، وباشروا الاعتداء على المسلمين إذ قام شاس بن قيس بقيادة عشرة من اليهود للاعتداء على المسلمين وذراريهم، فتصدى لهم المسلمون، فولّوا مدبرين، لذلك كله فقد جرى عليهم من العقاب ما لم يجز على إخوانهم. (٢) فبعد أن انكفأ الأحزاب عن المدينة مدحورين لم ينالوا شيئاً، تفرّغ رسول الله ﷺ لتأديب يهود بني قريظة، ففي اليوم الذي رجع فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال: أوضعت السلاح، والله إنّ الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض بمن معك إلى

(١) كجك، مروان، تهذيب سيرة ابن كثير (ص ٣٣٩)، والمباركفوري، الرحيق المختوم (ص ٢١٧).

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد النمشقي، فقه السيرة، (ص ١٢٦) تحقيق: عمر الفرماوي، مكتبة الإيمان، للقاهرة، (الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م) وأبو فارس، محمد عبد القادر، السيرة النبوية (ص ٤٦٥)، دار الفرقان، الأردن، (الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل عليه السلام في كوكبة من الملائكة، ورسول الله ﷺ على إثره ومعه ثلاثة آلاف مقاتل، وضرب عليهم الحصار، فلما اشتد ذلك عليهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فجعل النبي ﷺ أمرهم إلى سعد بن معاذ يحكم فيهم، ورضي بنو قريظة بسعد حكماً، ظانين أنه سيتهاون معهم قائلين له: أحسن في مواليك، فقال سعد: لقد أن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، ثم حكم فيهم أن يقتل الرجال، وتُسبى الذرية فقال رسول الله ﷺ لسعد: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات" وكانت وقعة بني قريظة في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، وأنزل الله فيهم آيات من سورة الأحزاب، وهكذا تم استئصال أقاعي الغدر والخيانة من المدينة المنورة، ثم من جزيرة العرب بأكملها. ^(١) وفي ختام هذا المبحث نقول: إن صفة الغدر والخيانة لم تفارق اليهود يوماً كما صرح بذلك القرآن الكريم: ﴿أَوْ كَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٢) وواقعهم التاريخي - قديماً وحديثاً - يشهد بغدرهم وخيانتهم ونقضهم العهود. إن اليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ الله تعالى الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا! وكم عاهدوا رسول الله ﷺ فلم يفوا! ^(٣) "الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون". ^(٤)

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى (٢/٧٤ - فما بعدها).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٠.

(٣) الزمخشري، الكشاف (١/١٩٧).

(٤) سورة الأنفال: الآية ٥٦.

المبحث الثاني: الحرص على الحياة

من القبائح التي جُبِلَ عليها اليهود، واتسموا بها في كل زمان ومكان: صفة التهالك على الحياة، والحرص على الدنيا مهما كانت، ومهما اتسمت به من ذلّ وهوان، والحقيقة أنّ الناس جميعاً قديماً وحديثاً يحبون الدنيا، إلا أن حبّ اليهود ملفت للنظر وقد أدى بهم ذلك إلى استمراء الذل، والجبن عن الجهاد، والنكوص والتخاذل في مواطن الشرف. والأمة التي هذا هو حالها، لن تفرّق بين الحياة العزيزة الكريمة والحياة الذليلة، وقد كشفت آيات الذكر الحكيم هذه الرذيلة من رذائلهم العجيبة. قال تعالى: ﴿ ولتجنّتهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾^(١) في هذه الآية يقسم الله تعالى بقوله: "ولتجنّتهم" فاللام: للقسم والنون للتوكيد، والتقدير: لتجنّ يا محمد ﷺ اليهود أشدّ الناس حباً وتهالكاً وحرصاً على الحياة، والحرص: هو أشدّ الطلب. ^(٢) فهم أحرص على الحياة من باقي البشر على وجه الأرض، وتكثير كلمة (حياة) لبيان أنها حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة. ^(٣) كما أن التكثير يفيد العموم أي: أيّ حياة! فاليهود يحبّون الحياة ويكرهون الموت، وليس ذلك عندما يكونون متمتعين بالطمأنينة والعافية فقط، بل هم كذلك: حتى ولو زالت عنها كل أسباب الطمأنينة والراحة والعزة، ولو كانت حياة ذليلة. ^(٤) واليهود أحرص على الحياة حتى من المشركين الذين لا يؤمنون ببعث ولا نشور، ويعتسبرون نعيمهم الأكبر وجنتهم هذه الدنيا الفانية! وفي ذلك توبيخ عظيم، لأنّ الذين أشركوا لا

(١) سورة البقرة: الآية ٩٦.

(٢) الخازن، علاء الدين، علي بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، المشهور بتفسير الخازن (٦١/١) دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

(٣) لزمخشري، للكشّاف (١/١٩٣).

(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٧٨).

يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد، لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقرّ بالجزاء: كان حقيقاً بأعظم التوبيخ).^(١) ولكن ما هو سبب حبّ اليهود الزائد للحياة، أو تهالكهم عليها وكراهيتهم للموت؟ السبب: هو علمهم بحالهم وأنهم صانرون إلى النار لا محالة!^(٢) ثم بيّن سبحانه وتعالى مظهراً من مظاهر حرصهم على الحياة، فقال تعالى: "يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة" أي: يتمنى أحدهم لو أنه يعيش دهوراً كثيرة، ليس من عادة الناس أن يحبّوا بلوغها لأنها تؤدي بهم إلى أرذل العمر وسوء العيش، فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان مغالاتهم في التهاكك على الدنيا، ولتحقيق عموم النوعية في الحياة المنكرة، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم على الحياة - مهما اشتد - فلن يصل بهم إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام أو يزيد، فهذه الجملة من الآية الكريمة لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل حتى هذه السنّ المتطاولة، التي لا هناء فيها ولا راحة، والتي استعاذ من بلوغها المؤمنون.^(٣) ثم بيّن سبحانه ما ينتظرهم من عذاب، وأنّ تعميرهم الطويل لن ينجيهم أو يبعدهم من عذاب الله.^(٤) وجاء التعبير عن ذلك بقوله تعالى: "وما هو بمزحزحه من العذاب" والزحزحة: هي الإبعاد والتتحية، يقال زحزحته أي: باعدته، فترحزح أي تتخى وتباعد.^(٥) وفي قوله تعالى: "والله بصير بما يعملون" تهديد وتوبيخ لهم، لأنّ القدير سبحانه وتعالى إذا علم بما يجترحه الذي يعصيه، وأعلمه بأنه علم منه ذلك، علم أن العقاب نازل به لا محالة.^(٦) وبذلك تكون هذه الآية الكريمة قد كشفت هذه الرذيلة من رذائل اليهود، وكذبتهم في دعواهم أن الدار

(١) للزمخشري، للكشّاف (١/١٩٤).

(٢) المصدر السابق (١/١٩٤).

(٣) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٨٠).

(٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٩).

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٥).

(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١/٦١٩).

الأخرة خالصة لهم من دون الناس، ولو كانوا صادقين في ادعائهم هذا لرحبوا وفرحوا بالانتقال إليها، ولكنهم لا يحبون الموت، بل يقرون منه ويحرصون كل الحرص على أي حياة مهما كانت! وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنِ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَتَاهُ مَلَائِكَتُهُ ثُمَّ تَرْتَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(١) في هذه الآيات الكريمة إشارة إلى أنانية اليهود حيث إنهم يريدون احتكار ولاية الله لهم كجنس مفضل ومختار على سائر الأجناس، وهذا لا يمكن أن يصحح أو أن يتم لأن الله هو رب العالمين، وليس رب اليهود وحدهم، ثم يتحداهم الله أن يتمنوا الموت لأنهم إن كانوا أولياء الله وأحباءه من دون الناس، فلن يخيفهم الموت إذن، لأن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لقد تحداهم الله بذلك إظهاراً لكذبهم، فاليهود أبعد الناس عن تمني الموت، وأكثرهم حرصاً على الحياة، ولقد علل القرآن عدم تمنّيهم الموت بأنهم يعرفون أنفسهم أنهم عاصون لله، مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها عذاب جهنم، وهذا الموت سيحلّ بهم، كما سيحلّ بكل حيّ على وجه الأرض، ثم يرجعون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بكفرهم ومعاصيهم التي اجترحوها، فيجازيهم عليها الجزاء الأوفى!^(٢)

(١) سورة الجمعة: الآيات (٦-٨).

(٢) طبرارة، عفيف. عبد الفتاح، روح القرآن الكريم، تفسير جزء قد سمع (ص ٩٦). دار العلم للملايين، بيروت، لبنان (طبعة ١٩٩٦م).

المبحث الثالث: القتل وسفك الدماء

رذيلة أخرى من رذائل اليهود وهي من أشنع رذائلهم وأبشعها، إنها القتل وسفك الدماء، وأول من سفكوا دمه هم أنبياء الله ورُسُلُه (عليهم الصلاة والسلام)، إن الشرائع السماوية كلها تحرم قتل الناس بغير حق، ومنها الشريعة التي أنزلها الله تعالى لبني إسرائيل على السنة رُسُلُه وأنبيائه، والتوراة التي أنزلها الله على تعالى على موسى ﷺ تبين حرمة هذه الجريمة ومدى خطورتها وبشاعتها، قال تعالى: ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءتهم رُسُلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لعمرفون ﴾^(١) وقد أنزل الله تعالى على موسى الألواح ومنها الوصايا العشر^(٢)، ومما جاء فيها:

١. أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية.
٢. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً لا منحوتاً ولا صورة ... لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ ... واصنع إحساناً إلى ألوف من محبتي وحافظي وصاياي.
٣. لا تتطّق باسم الربّ إلهك باطلاً، لأن الربّ لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً.
٤. انكر يوم السبت لتقتسه.
٥. أكرم أباك وأمك ليطول عمرك.
٦. لا تقتل.
٧. لا تزن.

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٢) فتاح، د. عرفان عبد الحميد، اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية (ص ٣٠)، دار البيارق بيروت، ودار عترة، عمان.

٨. لا تسرق.

٩. لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠. لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره،

ولا شيء مما لقريبك. (١)

فهل التزم اليهود بهذه الوصايا؟ كلا! لقد خالفوا هذه الوصايا وبنوها وراء ظهورهم، ونقضوا عهدهم وميثاقهم مع الله، كما هو حالهم دائماً وهذه الرذيلة التي اقترفتها - وما زالت تفترفها - السيد اليهودية الأثيمة طالبت صفوة الخلق من أنبياء الله ورسله، قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٢) والأعجب من ذلك: أن اليهود دوتوا سفكهم لدماء البشر، في توراتهم المحرفة، ولفقوا الأباطيل لأنبيائهم، فوصفوهم بارتكاب المجازر بحق الإنسانية. (٣)

وهناك سفر في التوراة المحرفة، نستطيع أن نسميه سفر المجازر، تسمية التوراة سفر يشوع، (٤) ويشوع هو (يوشع بن نون) فتى موسى، وأحد أنبياء بني إسرائيل، (٥) لكن التوراة

(١) سفر التثنية (١٧-١/٢٠).

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٧.

(٣) البار. د. محمد علي، المنخل لدراسة التوراة والمعهد والتقديم (ص ٣٢٥).

(٤) انظر: الكتاب المقدس، سفر يشوع، الإصحاح الثامن (١٩-٢٩).

(٥) ورد ذلك في مسند أحمد حيث صرح بأن فتى موسى ﷺ هو يوشع بن نون في الحديث الذي أخرجه بسنده عن أبي بن كعب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: "لئن موسى رسول الله نكر للناس يوماً، حتى إذا فاضت للعيون، وركت القلوب، وكى فأذركه رجل، فقال: يا رسول الله، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال لا: قال: فعتب عليه، إذ لم يرؤ للعلم إلى الله، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً أعلم منك. قال: أي رب، وأين؟ قال: مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ. قال: أي رب، لجعل لي علماً أعلم ذلك به - قال لي عمرو: وقال: حيث يفارقك الحوت. وقال يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح - فأخذ حوتاً فعمله في مِثْلٍ، قال لفتاه: لا لكفك إلا أن تخبرني حيث يفارقك الحوت. قال: ما كلفتني كثيراً، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهِ ﴾ يوشع بن نون - قال: فينا هو في ظل صنخرة في مكان نزيان، إذ تضرب الحوت وموسى نائم، قال فتاه: لا لوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتضرب الحوت حتى نخل البحر، فمسك الله عليه جرية للبحر، حتى كان لثره في حجر - فقال لي عمرو: وكان لثره في حجر، وحلق إبهاميه والثنتين تليانها - لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال: قد قطع الله عنك النصب فأخبره، فرجعا فوجدنا خضراً - على طنبسة خضراء -

المحرقة تقترى عليه الكذب، كما افترت من قبل على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم من الأنبياء (عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين). ويبتدئ سفر يشوع من الإصحاح الأول، بوعد من الرب بإعطائهم أرض الشعوب القاطنة في فلسطين والأردن ولبنان وسوريا ... ثم أوامر الرب بإقامة المذابح المتتالية...^(١) وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم كشفت هذه الرذيلة من رذائل اليهود، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى

= على كيد البحر. قال سعيد بن جبيرة. مُسَجِّي ثوبه! قد جعل طَرَقَه تحت رجليه، وطره تحت راسه - فسَمَّ عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: فما شأنك؟ قال: جئت لتعلمني مما عَلَّمْتَ رُشْدًا. قال لما يكفيك أن أنباء التوراة بيدك وأن الوحي يأتيك، يا موسى، إن لي علمًا لا ينبغي أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي أن أعلمه. فجاء طائرًا، فأخذ بمنقاره، فقال: والله ما علمي وعلمك في علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر. حتى إذا ركبا في السفينة - وجدنا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل - عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح - فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم، لا يحملونه بأجر - فخرقها، ووثد فيها وتدا، قال موسى: لخرقتها لتعرق أهلها لقد جنت شيئاً إبراً - قال مجاهد: نكراً - قال: ألم لقل: إنك لن تستطيع معي صبراً - وكانت الأولى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً - قال: لا تؤلخني بما نصبت، ولا ترمقني من أمرٍ عسراً. فلحقياً غلاماً قتلته - قال يعلى بن مسلم: قال سعيد بن جبيرة: وجدا غلامنا يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً كان ظريفاً، فأضجمه، ثم ذبحه بالسكين -، قال: قتلت نضاً زكية لم تعمل بالحنث؟ فانطلقا، فوجدا جدراً يريد أن ينقض، فأقامه - قال سعيد بيده هكذا، ورفع يده، فاستقام. قال يعلى: فحسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده، فاستقام - قال: لو شئت لاتخذت عليه أجراً - قال - قال سعيد: لأجرأ ناكله - أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢١١١٩)، (٥٤/٣٥-٥٦). لما كون يوشع بن نون نبياً فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: " غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما بين، ولا آخر قد بنى بنياناً ولما يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو منتظر ولأدما، قال: فغزا فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأموره وأنا مأموره، اللهم حبسها عليّ شيئاً، فحبست عليه حتى فتح الله عليه قال: فجمعوا ما غنموا فأهلبت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك مبايعته، قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول أنتم غللتم، قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعه في المال وهو بالصعيد، فأهلبت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطبيها لنا. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، باب: تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، قال الإمام النووي: ويقال: إن الذي حبست عليه الشمس يوشع بن نون. لنظر: النووي، صحيح مسلم بشرح النووي (٥١/١٢-٥). وبهذه المناسبة نقول: إن كل من ينكر نبي الله يوشع بن نون بسوء مرتد عن الإسلام لقوله تعالى: ﴿ ومن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦] وقوله: ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥].

(١) لنظر: الكتاب المقتبس، سفر يشوع الإصحاح الأول (١- فما بعدها).

أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴿^(١)﴾ ففي هذه الآية الكريمة يوبخ الله تعالى اليهود، فالهمزة في قوله تعالى: "أفكلما" للتعجب والتوبيخ. ^(٢) حيث يوبخهم الله تعالى على استكبارهم عن الإيمان، وتكذيبهم طائفة من الرُّسُل وقتلهم لطائفة أخرى!

قال الزمخشري: (فإن قلت: هلا قيل: وفريقاً قُتلتُم؟ قلت: هو على وجهين: أن تراد الحال الماضية، لأن الأمر فطبيع، فأريد استحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب، أو أن يراد: وفريقاً تقتلونهم بعد، لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ، لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسمتم له الشاة). ^(٣)

وقد قال النبي ﷺ عند موته: "وما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخبير، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري" ^(٤) من ذلك السم ^(٥) وذلك أن امرأة يهودية - تدعى زينب - أتت النبي ﷺ بشاة مصلية مسمومة، فأكل منها هو وبشر بن البراء بن معرور، فمات منها بشر. ^(٦) وقال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم* أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من

(١) سورة البقرة: الآية ٨٧.

(٢) الزمخشري، للكشاف (١/١٨٩).

(٣) المصدر السابق (١/١٨٩).

(٤) قال أبو عبيد: (الأبهر هو عرق مستبطن الصلب، والقلب متصل به، فإذا انقطع لم يكن معه حياة). أبو عبيد، للقاسم بن سلام الهروي، كتاب غريب الحديث، (١/٢٠٥) تحقيق: حسين محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) وقال ابن الأثير: (الأبهر: عرق في الظهر، وهما لهران، وقيل: هما الأكلان اللذان في الزراعين، وقيل: الأبهر عرق منشؤه الرأس ويمتد إلى القدم، وله شرايين تتصل بأكثر الأطراف والبدن). (ابن الأثير، مجد الدين أبو السماعات المبارك بن محمد للجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، (١/١٨) تحقيق: طاهر أحمد الزلوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، وقوله تعالى: ﴿تلك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠] برقم: ٤٤٢٨، نظر: ابن حجر، فتح البازي (١٦٥/٨).

(٦) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد، للكاف الشاف في تخريج أحاديث للكشاف (ص ١٩) دار إحياء التراث العربي، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

ناصرين ﴿^(١) لقد جمع اليهود في هذه الآية بين رذيلتين كفرهم بأيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقد يقول قائل: لم وصفهم الله تعالى بقتلهم الأنبياء، مع أنهم ما قتلوا جميع الأنبياء، إنما قتلوا بعضهم. والجواب عن ذلك: أن اليهود قد استهانوا بمقام النبوة، ومقام الدعوة إلى الحق، فاعتدوا ذلك الاعتداء الشنيع على بعض الأنبياء، ومن فعل ذلك مع بعضهم فقد اعتدى على مقام النبوة جميعاً، وكأنما قتل جميع الأنبياء. ^(٢) فهو كما قال سبحانه وتعالى في حق بني إسرائيل: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ ^(٣) وفي هذه الآية تفرغ وتوبيخ من الله تعالى لبني إسرائيل على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها. ^(٤) ومع علم اليهود بهذه المبالغة العظيمة فقد أقدموا على قتل الأنبياء والرسل، وذلك يدل على قساوة قلوبهم، ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى. ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ - لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه - كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة، مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود. ^(٥)

وقد نص القرآن الكريم على أن اليهود قتلوا الأنبياء بغير حق، مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق في أي حال من الأحوال، وإنما جاء بهذا القيد: للتسجيل عليهم أن قتلهم الأنبياء كان

(١) سورة آل عمران: الأيتان (٢١-٢٢).

(٢) طنطلوي، بنو إسرائيل (ص ٤٢٥).

(٣) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧/٢).

(٥) الرازي، التفسير الكبير (٣٤٣/٤).

دون وجه حق في شريعتهم، حيث نهت شريعتهم عن القتل، فهذا القيد من باب الاحتجاج عليهم، بما نهت عنه شريعتهم، لتخليد مذمتهم في كل زمان ومكان^(١).

قال الزمخشري: (فإن قلت: قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حق، فما فائدة ذكره؟ قلت معناه: أنهم قتلوه بغير الحق عندهم، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوه، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم، لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم).^(٢) فلماذا إذن جاء التذكير في قوله تعالى: 'بغير حق'؟ قال العلامة أبو زهرة: (وذكر سبحانه كلمة الحق بصيغة التذكير فقال: 'بغير حق' لعموم النفي، بحيث يتناول الحق الثابت، والحق المزعوم، والحق الموهوم، أي: لم يكونوا معذورين بأي نوع من أنواع العذر في هذا الاعتداء، فلم يعتقدوا أنه الحق، ولم يزعموه، ولم يتوهموه، بل فعلوا ما فعلوا وهم يعلمون أنهم على الباطل، فكان فعلهم إجراماً في باعته، وإجراماً في حقيقته، وأبلغ إجرام في موضوعه).^(٣) لقد قتل اليهود أنبياء الله لأنهم أمرهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر، فاستعظم اليهود ذلك، واستكبروا على الحق واستكفوا عن اتباعه، ولم يقتل اليهود أنبياء الله ورسله فحسب، بل قتلوا الذين يأمرهم بالقسط من اتباع الأنبياء، والدعاة إلى دين الله!^(٤) والواقع يشهد أن اليهود وأعدائهم يتربصون بالدعاة إلى دين الله عز وجل في كل زمان ومكان، يتربصونهم بالقتل والسجن... وقد توعد الله تعالى اليهود بالعذاب الأليم لأنهم يكفرون بآياته ويقتلون أنبياءه والدعاة إلى دينه! سأل أبو عبيدة عامر بن الجراح رسول الله ﷺ عن أشد الناس عذاباً يوم

(١) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٢٥ - ص ٤٢٦).

(٢) الزمخشري، للكشاف (١/١٧٤).

(٣) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٢٦).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤/٣١).

القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: "رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف ونهى عن منكر" (١) وإن الآيات الكريمة في سورة البقرة بينت قصة البقرة التي قصها الله تعالى علينا في أطول سورة من سور القرآن الكريم والتي سميت باسمها، وكشفت لنا الغاية التي من أجلها أمروا بذبح البقرة، فقال تعالى: ﴿وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلمكم تعقلون ﴿ (٢) وانكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً، فاختلستم وتخاصمتم في قاتلها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه، وينسبها لغيره، والله عز وجل مظهر ما تخفونه من أمر القاتل والمقتول لا محالة، وقد بين الله تعالى لنبيه موسى الطريقة التي يتم بها كشف القاتل، وهي ضرب القتل بأي جزء من أجزاء البقرة، فضربوه ببعضها، فأحياه الله تعالى وأخبر عن قاتله، ثم مات بعد ذلك، ويمثل هذا الإحياء للقتيل أمام أبصار القوم، يحيي الله الموتى من قبورهم للحساب والجزاء يوم القيامة، ويريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا، وتعلموا أن الله على كل شيء قدير. (٣) هذا، وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم في قوله تعالى: "وإذ قتلتم" مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة في مجموعها، وتكافلها كالشخص الواحد. كما أسند القتل إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوي، لأنهم من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل. وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب للتببيه على أن الخلف قد سار على طريقة السلف في الانحراف والضلال. (٤)

وملخص هذه القصة كما جاء في تفسير ابن كثير: أن رجلاً من بني إسرائيل كان عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على

(١) أخرجه البزار في كشف الأستار برقم (٣٣/٤) والطبراني، وابن أبي حاتم، والثعلبي، والبيهقي في تفسيره (٢٢١/١) نظراً: ابن حجر للسقلائي، لكاف الشاف (٣٧٦/١).

(٢) سورة البقرة: الأيتان (٧٢-٧٣).

(٣) للزمخشري، للكشاف (١٨٠/١-١٨١) والصابوني، صفوة للتفسير (٥٩/١).

(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٢٨).

باب رجل منهم، ثم أصبح يدّعيه عليهم، حتى تسلّحوا وركب بعضهم على بعض، فقال نوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضنا بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى ﷺ فنكروا ذلك له فقال: "إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة" قال: ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شدّوا فشدد الله عليهم ... كما ورد في الآيات، فذبحوها وما كادوا يفعلون، وضربوا القتيل ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ قال: هذا وأشار إلى ابن أخيه، ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً، فلم يورث قاتل بعده. ^(١) قال صاحب الكشاف: (فإن قلت: فما للقصة لم تقصّ على ترتيبيها، وكان حقّها أن يقمّ ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها، فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قصّ من قصص بني إسرائيل إنما قصّ تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها، ولما جدّد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدثين، فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك. والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرّمة، وما يتبعه من الآيات العظيمة). ^(٢) ولكن ما الحكمة من كشف هذه الحادثة على وجه التحديد، مع أن القتل كثير في بني إسرائيل؟ أجاب عن ذلك العلامة ابن عاشور: (وإنما تعلّقت إرادة الله بكشف حال قاتلي هذا القتيل، مع أن دمه ليس بأول دم ظل في الأمم، إكراماً لموسى ﷺ أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم، وبمراى منه ومسمع، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفال موسى، ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله تعالى هذا الدم في أمة لضعف يقينها برسولها، وكان ذلك مما يزيدهم شكاً في صدقه، فينقلبوا كافرين، فكان إظهار هذا الدم كرامة لموسى، ورحمة بالأمة لئلا تضل!) ^(٣) ومع

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٠٨).

^(٢) الزمخشري، الكشاف (١/١٨٢).

^(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١/٥٦١).

ذلك كله، فقد منح الله تعالى هؤلاء المجرمين عدّة فرصٍ ليرجعوا عن غيِّهم وضلالهم، ويتوبوا من معاصيهم، فاغترّوا بإمهال الله لهم، وحسبوا أنه لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء أو تكذيب الرُّسُل، فتمادوا في غيِّهم وفسادهم، وعموا عن اتباع الهدى، وصمّوا عن سماع الحق، فاستحقوا عذاب جهنم، قال تعالى: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون* وحسبوا ألا تكون فتنة فعصوا وصمّوا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصمّوا كثيرًا منهم، والله بصير بما يعملون﴾.^(١)

(١) سورة المائدة: الأيتان (٧٠-٧١).

المبحث الرابع: الفساد.

دمغت آيات القرآن الكريم لليهود بالفساد والإفساد في الأرض حتى لكانهما كلمة واحدة وأخبرنا الباري عز وجل عن سعي اليهود الحثيث للإفساد في الأرض، وعند النظر في تاريخ اليهود على مدار التاريخ نجد أن الفساد^(١) ملازم لهم باستمرار فاليهود فاسدون أولاً ومفسدون ثانياً، ومعلوم أن كل فاسد مفسد بالضرورة، وأن كل مفسد للأخرين فاسد في نفسه، قبل إفساد الآخرين. قال تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين﴾^(٢) بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة سنة من سننه الماضية في اليهود، وهي: أنهم كلما عقدوا أسباباً يكيدون بها رسول الله ﷺ والمسلمين معه وكلما أبرموا أموراً يحاربون بها رسول الله ﷺ أبطلها الله تعالى وردّ كيدهم في نحورهم، وحقّ مكرهم السيئ بهم.^(٣) ومعنى قوله تعالى: "ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين" (أي) أن سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته.^(٤) ويدلّ التعبير بالفعل المضارع "يسعون" على التجنّد والاستمرار، أي: أن فسادهم مستمر ومتجدّد، ومن مظاهر إفسادهم في الأرض: تحريف التوراة وحشوها بالردائل والأكاذيب ورميهم كبار الأنبياء بالكذب والبهتان! ومن مظاهر إفسادهم كذلك قتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم الذين يأمرون بالقسط من الناس، ونقضهم العهود والمواثيق، وشيوع الفواحش والردائل فيهم ونشرها، وترويجها بين شعوب الأرض، ويتجلى إفساد اليهود، ويبلغ ذروته في الأرض مرتين، أخبرنا الله تعالى بهما

(١) والفساد هو: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه لو كثيراً، ويضاده الصلاح، للراغب، المفردات (ص ٣٨١).

(٢) سورة المائدة: الآية (٦٤).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧٦/٢).

(٤) المصدر السابق (٧٦/٢).

في سورة الإسراء قال تعالى: ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين، وتعلن علواً كبيراً* فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديد فجالسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً* ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً* إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوعوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علواً تتيبراً* عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ (١) قبل أن نشرع في تفسير الآيات، لا بد من بيان معاني بعض الكلمات الواردة فيها : "وقضينا إلى بني إسرائيل" أي: أعلمناهم وأخبرناهم ففرغنا إليهم منه. (٢) فهذا قضاء بالإعلام والفصل في الحكم، أي أعلمناهم وأوحينا إليهم حياً جزماً. (٣) وتعدي (قضينا) بحرف (إلى) : لتضمين قضينا معنى أبلغنا، أي قضينا وأنهينا. (٤) فقضينا بمعنى: حكمنا، وأصل القضاء: الإحكام للشيء والفراغ منه. (٥) "والكتاب": هو التوراة. (٦) وقال القرطبي: هو اللوح المحفوظ. (٧) "جالسوا" أي: طاقوا بين الديار يطلبونهم، ويقتلونهم ذاهبين وجائنين (٨) وقيل جاسوا: بمعنى عاثوا وقتلوا. (٩) "ليسوعوا وجوهكم" أي: ليجعلوها بادية آثار المساءة عليها والكآبة فيها. (١٠) "ليتبروا" أي: ليدمروا ويهلكوا. (١١)

(١) سورة الإسراء: الآيات (٤-٨).

(٢) الطبري، جامع البيان (١/٥٠٩).

(٣) الراغب، المفردات (ص٤٠٧).

(٤) ابن عاشور، التحرير والتوير (٧/٢٨).

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٤١).

(٦) الطبري، جامع البيان (١٥/٢١).

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٤١).

(٨) الطبري، جامع البيان (١٥/٢٨).

(٩) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٤٣).

(١٠) الزمخشري، للكشاف (٢/٦٠٨).

(١١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٤٧).

ومعنى الآيات الكريمة: لقد أوحينا إلى بني إسرائيل في الكتاب وهو التوراة - وقيل اللوح المحفوظ - وحياً جازماً مؤكداً، وأعلمناهم فيه بما سيقع منهم من الإفساد الكبير في الأرض مرتين، ورُبُّ قائل يقول: وما فائدة أن يخبر الله تعالى بني إسرائيل بأنهم يفسدون في الأرض مرتين وأنه يعاقبهم بسببهما؟ والجواب عن ذلك: أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً، وإنما يحاسبهم على ما يكون منهم، ويعفو عن كثير، وأن رحمته تتسع للمفسدين إذا تابوا ورجعوا، وفائدة أخرى: تنبيه العقلاء في جميع الأمم أن يحذروا موقعة المعاصي، ويحذروا أممهم من نلك، لأن المعاصي تؤدي إلى هلاك الأمم. (١) وقد اختلف المفسرون قديماً وحديثاً في هاتين الإفسادتين، فذهب معظم المفسرين القدامى إلى أن الإفسادتين وقعتا على أرض فلسطين قبل بعثة رسول الله محمد ﷺ ورغم اتفاقهم على هذا، إلا أنهم اختلفوا في تحديد زمن كل منهما، والأقوام الذين حاربهم وأزالوا إفسادهم.

وخلاصة ما قاله الإمام الطبري في الإفسادتين:

أن إفسادهم الأول: كان يقتلهم نبي الله زكريا ﷺ، وأن الذي سلطه الله تعالى عليهم: هو بختنصر (نبوخذ نصر) البابلي.

وأن إفسادهم الثاني: كان يقتلهم نبي الله يحيى ﷺ، وأن الذي سلطه الله عليهم هذه المرة هو خردوس ملك بابل. (٢)

وأخرج في ذلك أكثر من رواية، نذكر منها ما أخرجه بسنده عن ابن عباس وابن مسعود: أن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة: "تفسدن في الأرض مرتين" فكان أول الفسادين قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط وكان يدعى "صحابين" فبعث الجنود وكانت

(١) طنطلوي، بنو إسرائيل (ص ٦٥٧ - ص ٦٥٨).

(٢) الطبري، جامع البيان (٤١/١٥ - ٤٢).

أساورته من أهل فارس، فهم أولوا بأس شديد، فتحصنت بنو إسرائيل، وخرج فيهم بختنصر يتيماً مسكيناً إنما خرج يستطعم وتلطّف حتى دخل المدينة، فأتى مجالسهم فسمعهم يقولون: لو يعلم عدونا ما قذف في قلوبنا من الرعب بنفوسنا ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حتى سمع ذلك منهم وأشدت القيام على الجيش، فرجعوا وذلك قوله: "فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديد فجالسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً" ثم إن بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط، فأصابوا منهم واستتقنوا ما في أيديهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾^(١) وأخرج ابن جرير كذلك عن ابن زيد قوله: (كان إفسادهم في الأرض مرتين قتلهم زكريا ويحيى عليهما السلام، وسلط عليهم سابور ذا الأكتاف، ملكاً من ملوك فارس من قتل زكريا، وسلط عليهم بختنصر من قتل يحيى)^(٢) إلا أن هذه الأقوال لا يساعد عليها لفظ القرآن ولا الحقائق التاريخية، وذلك أنه ليس بين قتل زكريا ويحيى عليهما السلام - إلا زمن يسير لا يتسع لأن يكون الإفساد تكرر منهم فيه والذي لا يتحقق معه رد الكرة لهم على أعدائهم بعد الإفساد الأول، كما أن بختنصر وسابور يسبقان قتل زكريا ويحيى عليهما السلام بحوالي ست قرون، وزكريا ﷺ كما أخبرنا القرآن الكريم كان معاصراً أو مقارباً لعصر عيسى ﷺ. وذكر ابن جرير أن الله سلط عليهم بعد الإفساد الأول جالوت وجنوده، فجالسوا خلال الديار وضرب عليهم الذل والخراج، ثم عانت لهم الكرة على أعدائهم، بعد أن بعث الله لهم طالوت ملكاً، وقتل داود جالوت.^(٣) وفي الإفساد الأخيرة: سلط الله عليهم بختنصر فتبرما علواً تنبيراً، وقد أخذ بهذا الرأي من العلماء المعاصرين: شيخ الأزهر الحالي، وأيده بالأدلة.^(٤)

(١) للطبري، جامع البيان (٢١/١٥-٢٢).

(٢) للمرجع السابق (٢٢/١٥).

(٣) للطبري، جامع البيان (٢٨/١٥).

(٤) لنظر: طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٦٦٥-٦٦٥ فما بعدها).

وذهب كثير من العلماء المعاصرين إلى ما ذهب إليه العلماء السابقون من أن الإفسادتين وقعتا قبل الإسلام، إلا أن بعض العلماء المعاصرين يرى أن هذين الإفسادين لم يكونا قبل البعثة، وإنما حدثا في الإسلام، وأن المرة الأولى كانت على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه، حينما جاسوا خلال ديار اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة المنورة، ثم أخرجوا بعد ذلك منها، بل ومن جزيرة العرب بأكملها، وأن المرة الأخيرة هي التي نحن فيها الآن، والمتمثلة في قيام دولة إسرائيل وعلو اليهود هذه الأيام، وتعاليمهم في الأرض المقدسة وممن قال بذلك: عبد المعز عبد الستار،^(١) والدكتور صلاح الخالدي في كتابه (حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية)* وقد استدل هذا الفريق من العلماء على أن إفساد اليهود الأول كان في المدينة المنورة: بالواقع الذي كان يعيشه اليهود آنذاك: حيث إفسادهم العقائدي، فكانوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن عزيزاً ابن الله، وأن الجنة مقصورة عليهم، وغير ذلك، وإفسادهم الأخلاقي: فقد عملوا على إفساد أخلاق العرب من حولهم، وإفسادهم الاجتماعي، حيث عملوا على تفكيك وإضعاف صلات العرب الاجتماعية، بإذكاء العصبية الجاهلية والنعرات القبلية بينهم، وإفسادهم العلمي، حيث روجوا لإسرائيلياتهم، ونشروها بين العرب بما فيها من خرافات وأكاذيب، وإفسادهم السياسي، حيث حرصوا على ربط القبائل العربية بهم في صورة أخلاف - بعد أن نشروا بينها الخلاف والنزاع - فكانت كل قبيلة عربية متحالفة مع قبيلة يهودية، وإفسادهم الاقتصادي: حيث كانوا يسيطرون على سوق الاقتصاد والمال عند العرب، فكان سوق الذهب في المدينة المنورة بيدهم وأرهبوا العرب بالقروض الربوية الباهظة، وموجز القول: إن اليهود قد أفسدوا كل مظاهر الحياة العربية في المدينة المنورة قبل البعثة.^(٢) أما بعد البعثة النبوية، فإفسادهم بين واضح حيث

(١) المصدر السابق (ص ٦٧٢).

* مع إجلالنا لهؤلاء العلماء إلا أن كلامهم فيه تمحل زائد فالقرآن الكريم لم يتدخل في هذا النوع من المغيبيات.

(٢) للخالدي، حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية (ص ١٦٢).

كانوا حربياً على الإسلام وأهله منذ بزغ فجر الإسلام، وناصبوا نبيّه العدا، وقاموا بعدة محاولات لاغتياله. إذن: لقد كان إفساد اليهود الأول، مقروناً بالعلو الكبير في المدينة وما حولها من خيبر وفدك وتيماء، والله تعالى أعلم. ^(١) فجاء نبي الإسلام محمد ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم فأزالوا هذا الإفساد من المدينة المنورة، وطهروا جزيرة العرب بأكملها من الوجود اليهودي. أما إفسادهم الثاني فهو الذي نعيشه اليوم، والمتمثل في قيام دولة إسرائيل وعلوها في الأرض، ولو وقفنا نندبّر الآيات الكريمة التي تحدثت عن إفسادهم الثاني لوجدناها تنطبق تماماً على واقع اليهود اليوم، على نحو ما يأتي:

التعبير بحرف "ثم" الدال على التراخي، أي أنّ إفسادهم الثاني متأخر ومتأخر عن إفسادهم الأول، وبين الإفسادين كما نرى فترة زمنية تقارب أربعة عشر قرناً. ^(٢)

قوله تعالى: "ثم رددنا لكم الكرة عليهم" الخطاب هنا لليهود أي: أنّ الله تعالى يعيد لليهود في إفسادهم الثاني القوة والسلطان على المؤمنين، الذين حاربوهم من قبل وأزالوا إفسادهم، ومن خلال التاريخ نجد أنه لم تكن لليهود كرةً على الأقباط السابقين الذين حاربوهم قبل الإسلام وتمروا كيانتهم، فالمقصود إذن المسلمون والله تعالى أعلم. ^(٣)

قوله تعالى: "وأمددناكم بأموال وبنين" حددت هذه الجملة الكريمة مظاهر قوة اليهود وهي ليست ذاتية كما توحي بذلك كلمة أمددناكم، وإنما هي مستمدة من الآخرين، وهذا الإمداد يتم بوسيلتين عظيمتين هما: المال والبنون، وهذا بيّن واضح في إمداد الدول الغربية والشرقية على حدٍ سواء لليهود بالمال، والبنين المتمثل في الجاليات اليهودية المنتابفة. ^(٤)

^(١) الخالدي، حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية (ص ١٦٤).

^(٢) المصدر السابق (ص ١٧٢).

^(٣) المصدر السابق (ص ١٧٢ - ص ١٧٣).

^(٤) المصدر السابق (ص ١٧٣).

وقوله تعالى: ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جننا بكم نفياً ﴾^(١) أي منضمّاً بعضكم إلى

بعض، يقال: لففت الشيء لفاءً، وجاعوا ومن لف لفهم أي من انضم إليهم، واللفيف من الناس: المجتمعون من قبائل شتى.^(٢)

ومعنى الآية الكريمة: إذا حان وقت إفسادكم الثاني جمعناكم من بعد تستكم في الأرض، ولا يخفى على أحد في هذا الزمان تسارع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على شكل موجاتٍ من المهاجرين اليهود من دول العالم.^(٣)

قوله تعالى: "وجعلناكم أكثر نفيراً" النفير: جمع نفر، يقال: استنفرَ القوم فنفروا معه، وأنفروه أي: نصرّوه ومثّوه، والاستنفار: الاستجداد والاستتصار، قال الزجاج: وجعلناكم أكثر نفيراً أي أكثر منهم نصّاراً.^(٤) واليهود الآن هم الأكثر نفيراً، والأكثر أعواناً، ومساعدين ومساندين والأكثر مؤيدين في دول العالم.^(٥)

(١) سورة الإسراء: الآية ١٠٤.

(٢) الراغب، المفردات (ص ٤٥٥).

(٣) الخالدي، حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية (ص ١٧٦).

(٤) ابن منظور: لسان العرب مادة نفر (٣٣١/١٤-٣٣٢).

(٥) للخالدي، حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية (ص ١٧٧).

المبحث الخامس: تزكية النفس

قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً ﴾ انظر كيف يفترون على الله الكذب، وكفى به إثماً مبيناً^(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت اليهود يفتنون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب، فأنزل الله: " ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم."^(٢)

إبطال دعوى اليهود تزكيتهم لأنفسهم في الآية السابقة بما يلي:

بقوله تعالى: " ألم تر " وهذا استفهام يراد به تعجب لرسول الله من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان.^(٣) وبقوله تعالى: " بل الله يزكي من يشاء " : فلا قيمة لتزكيتهم أنفسهم فإن التزكية تكون بالعمل الصالح لا بالادعاء.^(٤) وبقوله تعالى: " ولا يظلمون فتيلاً " والفتيل هو الخيط الذي يكون في شق النواة.^(٥) وسمي فتيلاً لكونه على هيئة الفتيل، وقيل: هو ما تفتله بين أصابعك من خيط أو وسخ، ويضرب به المثل في الشيء الحقيقير.^(٦) وبقوله تعالى: " انظر كيف يفترون على الله الكذب " : وهذا تشبيه من الله تعالى لنبيه ﷺ على أن ما ارتكبه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب هما: اتصافهم بما هم متصفون بنقيضه، واقتراؤهم على الله سبحانه ! والتصريح بالكذب مع أن الاقتراء لا يكون إلا كذباً، للمبالغة في تقييح حالهم.

(١) سورة النساء: الأيتان (٤٩ - ٥٠).

(٢) السيوطي، لباب للنقول (ص ٨٦).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (١٤٨/٢).

(٤) للزحيلي، وهبة، التفسير المنير (١١١/٥).

(٥) اليزيدي، أبو عبد الرحمن عبد الله بن يحيى بن المبارك غريب القرآن وتفسيره (ص ١٢٠) تحقيق محمد سليم الحاج،

دار للكتب العلمية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).

(٦) الراغب، المفردات (ص ٣٧٣).

وبقوله تعالى: "وكفى به إثماً مبيناً" أي: بافترائهم من حيث هو افتراء عليه سبحانه،

والمعنى: كفى ذلك وحده في كونهم أشدّ إثماً من كفار أنبياء، أو في استحقاقهم لأشدّ العقوبات. (١)

مظاهر تركية أهل الكتاب لأنفسهم:

دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه: يكشف القرآن الكريم عن مزاعم أهل الكتاب الباطلة،

ثم يكر عليها بالدحض والإبطال، ومن هذه المزاعم قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه، وفي ذلك

يقول الله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل

أنتم بشرٌ ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله ملك السموات والأرض وما بينهما

وإليه المصير﴾ (٢) عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ: نعمان بن قصي وبحر ابن عمر

وشاس بن عدي، فكلّموه وكلمهم، ودعاهم إلى الله، وحذّروهم نعمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد

نحن أبناء الله وأحباؤه، كقوله النصارى، فأنزل الله: "وقالت اليهود والنصارى" الآية. (٣)

ومعنى الآية الكريمة: وقالت طائفة اليهود الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار،

وقالت طائفة النصارى كذلك: نحن أبناء الله وأحباؤه، فلنا من الفضل والمنزلة والتكريم ما ليس

لغيرنا من بني البشر، فأكذبهم الله تعالى، وأمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم: إن كنتم كما

تزعمون أبناء الله وأحباؤه فلماذا يعذبكم بذنوبكم، وأنتم مقرّون أنكم ستعذبون على ذنوبكم

وخطاياكم؟ فلستم إذن أحباؤه، بل أنتم بشر كسائر البشر الذين خلقهم الله، لا فضل لكم ولا مزية

على غيركم، يغفر لمن يشاء من عباده ويعذب من يشاء، فهو صاحب التصرف المطلق، له ملك

السموات والأرض وما بينهما، وإليه مصير الخلائق جميعاً، فيجازي الذين أسأوا بما عملوا،

ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، وليس له من خلقه بنون ولا بنات، وميزان تقاضل البشر عنده:

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (١٤٩/٢).

(٢) سورة المائدة: الآية ١٨.

(٣) السيوطي، لباب النقول (ص ١١٣).

هو التقوى والعمل الصالح، فخير لكم يا أهل الكتاب أن تكفوا عن هذه الدعوى الباطلة، وأن تتبعوا دينه، وتؤمنوا برسوله، لتكونوا من المفلحين.^(١) لكن هل البتة التي ادعاها اليهود والنصارى هي البتة الحقيقية أم لا؟

ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالبتة في قولهم: "نحن أبناء الله وأحباؤه" هي البتة الحقيقية، قال السدي: زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى إلى إسرائيل ﷺ، أن ولدك بكري من الولد، فادعى اليهود أنهم منتسبون إلى أنبياء الله وهم بنوه، وله بهم عناية خاصة وأن الله تعالى يحبهم، ونقلوا هذا الكلام عن كتابهم، فحملوه على غير تأويله ثم حرّفوه! وقد ردّ عليهم من أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن الإنجيل: أن عيسى ﷺ قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم يعني: ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البتة ما ادعوا في عيسى ﷺ، وإنما أراد من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه.^(٢) وذهب بعض المفسرين: إلى أن المراد بالبتة: الاتباع في المنهج والمذهب،^(٣) وعلى الرغم من اختلاف المفسرين في المراد بالبتة، إلا أنهم متفقون على إن المقصود من قول اليهود والنصارى: هو ادعاؤهم أنهم يرون لأنفسهم فضلاً على سائر البشر، وأن لهم صلة بالله تزيد عن صلة غيرهم به، وأنهم وحدهم هم أهل القرب منه.^(٤) والتلمود يؤكد هذا المعنى عند اليهود، فالإسرائيلي في التلمود أفضل من الملائكة عند الله، فإذا ضرب أمي - أي غير يهودي - يهودياً فكأنه ضرب العزة الإلهية، لأن اليهودي جزء من الله، ويعتقد اليهود أن الفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود وباقي

(١) السيوطي، لباب النقول (ص ١١٣).

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٧٨ - ص ٥٧٩).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٣٤)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦/١٨٠).

(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٧٩).

(٥) المرجع السابق (ص ٥٧٩).

الشعوب، ذلك أن النظفة التي خلقت منها بقية الشعوب الخارجين على الديانة اليهودية هي نظفة حصان! ^(١) وأياً كانت طبيعة هذه الآبوة التي ادعاها أهل الكتاب، فهي خلط بين الألوهية والعبودية، وانحراف عقدي، بل هي فساد الحياة كلها، بناءً على هذا الانحراف. ^(٢) هذا، وقد أبطل القرآن الكريم هذه الدعوى بطريقتين:

الأولى: قوله تعالى: "قل فلم يعذبكم بذنوبكم" أي: الأولى: قوله تعالى: "قل فلم يعذبكم بذنوبكم" أي قل لهم يا محمد ﷺ لو صح أنكم أبناء الله وأحباؤه كما ترعمون لا يعذبكم، لأن المحب لا يعذب حبيبه، والأب لا يعذب أبناءه، ولو كنتم أبناء الله لكنتم من جنس الأب، لا تذبون ولا تغفلون القبائح التي تستوجبون عليها العقاب؟، ولو كنتم أحباءه لما عصيته؛ لأن المحب لا يعصي من أحبه كما قيل: (إن المحب لمن يحب مطيع). ^(٣)

ولكن واقع اليهود والنصارى خلاف ذلك، قد عذبهم الله تعالى بسبب ذنوبهم، القتل والأسر والمسوخ، وفي كتبكم - معشر يهود - التي بأيديكم أنكم تعذبون في الآخرة على ما تقرّفون من الإثم في الدنيا، واليهود مقرّون بذلك، فقد حكى القرآن الكريم عنهم زعمهم أنهم يعذبون في النار أياماً معدودات، قال تعالى: "وقالوا لن نمسنا النار إلا أياماً معدودة"، كما أن النصارى يقرّون أن الله تعالى يجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته. ^(٤) فهم على هذا لا يخلون من أحد وجهين: إما أن يقولوا هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذن أبناءه، ولا أحباءه لأنّ الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم تقرّون بعذابه، فهذا دليل على كذبكم، أو يقولوا: هو لا يعذبنا

^(١) مظهر، سليمان، قصة الديانات (ص ٣٦٨). مكتبة مدبولي، القاهرة، (الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).

^(٢) قطب، للظلال (٨٦٦/٢).

^(٣) الزمخشري، الكشاف (٦٥٢/١)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (١٥٦/٤).

^(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٨٠).

وبذا يكذبون ما في كتبهم وما جاءت به رسلمهم، وبالتالي يبيحون المعاصي، وهم معترفون بعذاب العصاة منهم، ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم. (١)

الطريقة الثانية في إبطال دعواهم قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ (٢)، فليس الأمر إذن كما زعمتم، بل الحق أنكم بشر كسائر من خلق الله فينالكم ما ينال سائر البشر، فإن آمنتم وعملتكم الأعمال الصالحة، نلتم ثواب الله وجنته، وإن كفرتم بالله وجددتكم نعمته عليكم نالكم عقابه، فميزان التفاضل عنده سبحانه هو التقوى والعمل الصالح ليس إلا. (٣) وهذا تقرير لبطلان ادعاء البتوة، فهم بشر ممن خلق، وتقرير لعادل الله، وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد على مشيئته التي تقرر الغفران بأسبابه، وتقرر العذاب بأسبابه، لا بسبب بتوة أو صلة شخصية. (٤) ثم ختمت الآية ردها على أهل الكتاب: ببيان أن الله تعالى هو المالك لما في السماوات والأرض، وما بينهما، وهو صاحب التصرف المطلق في ملكه بمقتضى علمه وحكمته، وجميع البشر له، لا نسب بينه وبين أحد منهم، ثم يصيرون إليه يوم القيامة، فيحاسبهم على أعمالهم، قال تعالى: "وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ". وبذلك تكون الآية قد فنّدت مزاعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأرست قاعدة عامة لجميع البشر هي: أن مقياس التفاضل عنده سبحانه هو التقوى والعمل الصالح. (٥)

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٨٠/٦).

(٢) سورة المائدة: الآية ١٨.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٥٧/٤)، وطنطاري، بنو إسرائيل (ص ٥٨٠).

(٤) قطب، الظلال (٨٦٧/٢).

(٥) طنطاري، بنو إسرائيل (ص ٥٨٠).

دعواهم أن نذوبهم مغفورة:

زعم اليهود أنهم ارتكبوا من موبقات، ومهما فعلوا من ذنوب، ومهما استحلوا من حرام، فإن ذنوبهم مغفورة؛ لأنهم شعب الله المختار وهم أبناؤه وأحباؤه الأخيار... (١) قال تعالى:

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا، وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ (٢) إن اليهود، ورثوا كتاب الله (أي التوراة) فقرعوه وعلموه، لكنهم خالفوا حكمه، وأتوا محارمه مع دراستهم له، وفي ذلك توبيخ وتقريع لهم. (٣) والخلف: بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجميع فيه سواء، والخلف بفتح اللام: البدل، ولداً كان أو غريباً، وقال ابن الأعرابي: "الخلف" بالفتح، الصالح، وبالحرز المطالح، قال لبيد: (ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجد الأجر) ومنه قيل للردىء من الكلام: خلف، ومنه المثل السائر: "سكت ألفاً ونطق خلفاً" فخلف، بسكون اللام تستعمل في النذم وهذا هو المشهور، ويفتح اللام للمدح؛ وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر أحياناً. (٤) والعرض: بالتحريك، متاع الدنيا وحطامها، والعرض بسكون الراء: ما خالف الثمين الدراهم والدنانير من متاع الدنيا وأثاثها. (٥) قال الزمخشري: ("يأخذون عرض هذا الأدنى" أي: حطام هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها، وفي قوله: "هذا الأدنى" تخسيس وتحقير، والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب لأنه عاجل قريب، وأما من دنو الحال وسقوطها وقلتها، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام، على تحريف الكلم للتسهيل

١- المصدر السابق (ص ٥٨٦).

٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٩.

٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/٧).

٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٧/٧ - ١٩٨).

٥) ابن منظور، لسان العرب، مادة عرض (١٤٠/٩).

على العامة).^(١) ومعنى الآية: أنه خلف من بعد أولئك القوم - أي اليهود - الذين قطعهم الله في الأرض أمماً، خلف طالح سيئ ورثوا التوراة، فقرأوها وتعلموها، وعلّموا أحكامها من حلال وحرام، وأمر ونهى، ولكنهم لم يتأثروا بهذه الأحكام، ولم يعملوا بها بل خالفوها، فاستحلوا الحرام وأكلوا السحت، وقبلوا الرشوة، فهم يتهافون على حطام الدنيا الفانية ومتاعها الحقيق، ويقولون وهم مقارفون لهذه المعاصي مصرّون عليها: سيغفر الله لناذنوبنا، لأننا من نسل أنبيائه، ونحن أبناءه وأحباؤه... ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.^(٢) وقوله تعالى: "وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه" أي: لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينههم شيء عن ذلك كلما عرض لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يباليون حلالاً كان أو حراماً.^(٣) وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشى.^(٤)

كيف ردّ القرآن الكريم مقولة اليهود "أن ذنوبهم مغفورة" !

قال تعالى: "لم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه" والمعنى: أن الله تعالى قد أخذ على هؤلاء اليهود المتقولين عليه، أخذ عليهم العهد والميثاق في التوراة، ألا يتألّوا ولا يحتالوا على النصوص، وألا يخبروا عن الله إلا حقاً وصدقاً، وألا يخالفوا أمره وألا ينقضوا عهده، فلم تخالط تعاليم هذا الكتاب شغاف قلوبهم، فما بالهم بعد ذلك يفترون على الله الكذب، ويقولون "سيغفر لنا"، وهم مصرّون على معاصيهم، ومتهافون على

(١) الزمخشري، الكشاف (١٦٤/٢).

(٢) طنطوي، بنو إسرائيل (ص ٥٨٧).

(٣) ابن كثير، تفسیر القرآن العظيم (٢/٢٦٠).

(٤) المصدر السابق (٢/٢٦٠).

أغراض الدنيا الحقيرة، ثم يبررون لأنفسهم ذلك بالنقول على الله، وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقاً ولمن يقلعون عن المعصية فعلاً، وليس هذا حالهم، فهم يعودون إلى المعاصي كلما رأوا عرضاً من أعراض الدنيا، بعد أن درسوا هذا الكتاب (التوراة) وعرفوا ما فيه. ^(١) ثم ختمت الآية ببيان ما أعدّه الله في الآخرة للمؤمنين، الذين يتعففون عن أكل أموال الناس بالباطل، أو النقول على الله تعالى: " والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون". والمعنى: أن الدار الآخرة وما فيها من نعيم مقيم، خير من حطام هذه الدنيا، الذي رضيّه هؤلاء اليهود وأثروه على ما عند الله، أفلا تعقلون أيها اليهود، يا من تقولتم على الله بغير علم، ولعل الطمع في متاع الحياة الدنيا هو الذي جعلهم يتقولون على الله بغير علم، ويقبلون الرشوة والمال الحرام دون تعفف، ويبيعون دينهم بدنياهم. ^(٢) المراد من الآية: توبيخ أولئك الورثة على بتهم القول بالمغفرة مع إصرارهم على ما هم عليه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم وبخوا على إيجابهم على الله تعالى غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها، ثم لا يتوبون منها، وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمني على الله الأمانى، من هنا قيل: إن القوم ذموا بأكلهم أموال الناس بالباطل، وابتاعهم أنفسهم هواها وتمنيهم على الله سبحانه الأمانى، ووبخوا على افترائهم على الله في الأحكام التي غيروها. ^(٣)

دعواهم أن الهدى في اتباع سبيلهم !

قال تعالى: ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان

من المشركين ﴾ ^(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ابن صوريا للنبي ﷺ: ما الهدى

^(١) قطب، الظلال (٣/١٣٨٧).

^(٢) طنطلوي، بنو إسرائيل (ص ٥٨٨).

^(٣) الألويسي، روح المعاني (٦/١٤٣).

^(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٥.

إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد! وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله فيهم: "وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا"! لقد بلغ الغرور باليهود والنصارى مبلغاً عظيماً، حين ظنّ اليهود أن من لم يكن يهودياً، ولم يتبع ملة اليهود، فليس بمهتد، وهو بعيد عن الحق والصواب، وحين ظنّ النصارى أن من لم يتبع ملتهم فهو بعيد عن الهدى والصواب، فحصر كل فريق منهم الهدى في دينه. ^(١) لقد قال اليهود للمسلمين: اتركوا دينكم واتبعوا ديننا، تهتدوا وتصيبوا طريق الحق والصواب، وقالت النصارى مثل ذلك. ^(٢) و (أو) للتبويب، أي: وقالت اليهود كونوا يهوداً تهتدوا، وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا. ^(٣) وإنما جمع الله قول الفريقين: ثقة بفهم السامع ومعرفته بأن كل طائفة منهم تكفر الأخرى، وتعتبر أنها على باطل، قال تعالى: "وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء" ^(٤) هذا أولاً.

وثانياً: ليوجه نبيه ﷺ بالردّ عليهم بكلمة واحدة تبطل دعواهم السابقة من أصلها: "قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين" أي: قل لهم يا محمد ﷺ، بل نرجع جميعاً نحن وأنتم إلى ملة إبراهيم أبينا وأبيكم. ^(٥) أصل ملة الإسلام وصاحب العهد مع ربه، وما كان إبراهيم من المشركين، بينما أنتم - الذين تنتسبون إليه - تشركون. ^(٦) وقد تضمن هذا القول: إبطال ما ادّعه كل من اليهود والنصارى، لأن حرف (بل) يؤتى به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة، والجملة السابقة هنا هي قول أهل الكتاب: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، فجاءت (بل) بعد ذلك لتنتفي هذا القول، ولتثبت أن الهداية إنما هي في اتباع ما كان

^(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١/٧٣٦).

^(٢) طنطولي، بنو إسرائيل (ص ٥٥٦).

^(٣) البيضاوي، تفسير البيضاوي (١/٤٠٩).

^(٤) سورة البقرة: الآية ١١٣.

^(٥) البيضاوي، تفسير البيضاوي (١/٤٠٩)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٩٥).

^(٦) قطب، الظلال (١/١١٧).

عليه إبراهيم ، وفي اتباع من سار على نهجه، وهو محمد ﷺ وصحابته الكرام. (١) وفي الآية أيضاً: دعوة لليهود والنصارى إلى اتباع ملة إبراهيم، لاستقامتها ولبعدها عن الشرك، وفي ذلك تعريض بمِلتي اليهود والنصارى، بأنهما ملتين غير مستقيمتين وبأن دعواهم اتباع ملة إبراهيم ليست صحيحة، لأنهم أشركوا بالله وافتروا عليه الكذب، وهم يعلمون. (٢)

وفي معنى الآية السابقة قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ ۗ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٣) عن ابن عباس قال: "إن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يحبون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، وأيسوا أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى﴾" (٤) والخطاب في الآية السابقة للرسول ﷺ ، والأمر لأُمَّته، وأفراد الملة في قوله تعالى: "حتى تتبع ملتهم" لأن الكفر كله ملة واحدة! (٥)

قولهم: ليس علينا في الأميين سبيل!

ومن مزاعم اليهود الفاسدة وأقاويلهم الباطلة أنه: لا إثم ولا حرج عليهم في انتهاكهم حرمان الآخرين، أو ظلمهم وأكل أموالهم، وقد حكى القرآن الكريم مقولتهم هذه، ثم فندها وحضها... قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِتْمَانِهِ بدينار يؤده إليك ومنهم من إن تآمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل

(١) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٥٧).

(٢) المصدر السابق (ص ٥٥٧).

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

(٤) للسيوطي، لباب للنقول (ص ٢٥).

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٦٣).

ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون* بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين^(١) عن ابن عباس قال: أودع رجل من قريش عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي درهم ذهباً، فأداه إليه وأودع رجل آخر فنحاص بن عازوراء ديناراً واحداً فخانه وجده،^(٢) وعلى هذا فالمراد بالآية هم اليهود.^(٣) وعن الحسن إن هناك من قال: إنها نزلت في اليهود والنصارى.^(٤) وقيل: إن المأمونين على الكثير: هم النصارى لغلبة الأمانة عليهم، والخائنين في القليل: هم اليهود، لغلبة الخيانة عليهم.^(٥) وهذا مما يؤكد أن مقولة (ليس علينا في الأمين سبيل) صادرة عن اليهود وحدثهم، فهذه بالذات صفة اليهود، فهم الذين يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة، فالأمانة بين اليهودي واليهودي، أما غير اليهود - ويسمونهم الأمميين.^(٦) وتسميهم التوراة "الجويميم" فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم أو استحلال حرمتهم، أو غشهم وخداعهم، أو التدنيس عليهم أو استغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيصة ولا فعل نميم.^(٧) وقيل إن اليهود كانوا قد استدانوا من الأعراب أموالاً، فلما أسلم أصحاب هذه الأموال، وذهبوا يطلبون مالهم، قالت اليهود: ليس لكم علينا شيء، لأنكم تركتم دينكم، فسقط عنا دينكم، وادعوا أن هذا حكم التوراة، فأكذبهم الله بقوله: "بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين"^(٨)

(١) سورة آل عمران: الآية (٧٥-٧٦).

(٢) للزمخشري، للكشاف (٤٠١/١)، وللرازي، للتفسير الكبير (٢٦٢/٣).

(٣) للثعالبي، عبد الرحمن بن مخلوف، للجواهر الحسان في تفسير القرآن الكريم، الشهير بتفسير الثعالبي (٢٦٥/١) تحقيق: الإنديسي الحسني، أبي محمد الغماري، دار الكتب العلمية (الطبعة الأولى ١١٤٦هـ - ١٩٩٦م).

(٤) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣٠٤/٢) دار الكتب العلمية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م).

(٥) للزمخشري، للكشاف (٤٠١/١).

(٦) قطب، الظلال (٤١٧/١).

(٧) المصدر السابق (٤١٧/١).

(٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٦/٤).

وتوراتهم المحرفة طاغحة بهذه المباحات، فهي تبيح لليهودي مثلاً الزنا بامرأة الأجنبي (غير اليهودي) وأكل ماله دون حرج.

ومعنى الآية الكريمة: أن من أهل الكتاب يا محمد ﷺ من إن تأمنه على الكثير والنفيس من الأموال فإنه يؤده إليك عند طلبه، كاملاً غير منقوص، ومنهم فريق آخر إن تأمنه على القليل الحقيق فإنه يجده ويستحلّه لنفسه! وقد جعل القنطار والدينار هنا مثليين للكثرة والقلة، والمقصود: ما يفيد الفحوى: من أداء الأمانة فيما هو دون القنطار، ووقوع الخيانة فيما دون الدينار. ^(١) فمنهم من هو في غاية الأمانة، بحيث لو ائتمنته على الأموال الكثيرة لأدّاها إليك، ومنهم من هو في غاية الخيانة، بحيث لو ائتمنته على الأموال القليلة لأنكرها عليك، ولم يؤدها إليك إلا بكثرة مطالبته. ^(٢) وقد يقول قائل: ما وجه إخبار الله نبيه ﷺ بذلك، أي انقسام أهل الكتاب إلى أمين وخائن، مع العلم أن عامة الناس كذلك، منهم المؤدي أمانته، ومنهم الخائن لها؟ ويجيب عن ذلك الإمام ابن جرير فيقول: (إن الله عز وجل أراد بإخباره المؤمنين خبرهم هذا، تحذيرهم من أن يأتئوهم على أموالهم، وتخويفهم من الاغترار بهم، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين). ^(٣) وسبب جحود هذا الفريق منهم لأموال الناس واستحلالها لأنفسهم: هو قولهم: ليس علينا في الأميين سبيل" أي: لا إثم علينا ولا مؤاخذه في ذلك. ^(٤) والسبيل: هو الحجة الملزمة، وأصله الطريق، ومن ثم أطلق على الحجة باعتبارها طريقاً ووسيلة، للإلزام وتحمل التبعات. ^(٥) لقد ردّ القرآن عليهم فيما زعموه من أنه ليس عليهم في الأميين سبيل، وكانوا

^(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٨٦/٣).

^(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٩٠).

^(٣) الطبري، جامع البيان (٣/٣١٦).

^(٤) الأفساري، أبو يحيى، زكريا، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص ٦٩) تحقيق: محمد علي الصابوني، عالم الكتب، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

^(٥) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٩٠).

يدعون أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فبيّن أن هذه الدعوى كذب وافتراء على الله: 'ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون'. والعجيب أن يزعم هؤلاء اليهود أن إلههم ودينهم يأمرانهم بهذه الخيانة، وهم يعلمون أن هذا كذب، وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة سحتاً وبهتاناً، وآلاً يرعوا معهم عهداً ولا نمة، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تنم، ولكنها يهود، يهود التي اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديناً وديناً. (١) ثم إن ادعاءهم وجود هذا الحكم في التوراة كذب وافتراء، اللهم إلا إذا قصدوا بذلك التوراة التي حرفوها. (٢) وأكد الله تعالى كذبهم بقوله: 'بلى من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين' بلى: إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأمين، أي: بلى عليهم سبيل في الأمين. (٣) ومعنى الآية: بل الحق أن عليكم سبيل في استحلالكم أموال الناس، وأنكم معذبون بسبب ذلك، ومثابون إن آمنتم بالله ورسوله، ووفيتم بعهودكم مع الله ومع الناس. (٤) يقول الشيخ محمد رشيد رضا: (إن ورود الجواب بهذه العبارة، أفادنا قاعدة عامة من قواعد الدين، وهي: أن الوفاء بالعهود واتقاء سائر المعاصي، هو الذي يقرب العبد من ربه، ويجعله أهلاً لمحبتة، لا كونه من شعب كذا، ومن هذه القاعدة يعلم خطأ اليهود في زعمهم أنه ليس عليهم في الأمين سبيل، وفيه تعريض بأن أصحاب هذا الرأي ليسوا من أهل التقوى؛ التي هي الركن الركين لكل دين قويم). (٥) ومن مظاهر تركية أهل الكتاب لأنفسهم قولهم: 'إن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهدده، أم تقولون على الله ما لا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به

(١) قطب، الظلال (٤١٧/١).

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٩١).

(٣) الزمخشري، للكشاف (٤٠٢/١).

(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٥٩٢).

(٥) رضا، تفسير المنار (٣٤١/٣).

خطيبته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿^(١) وقال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن نمسنا النار إلا أياماً معدودات، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾. ^(٢)

^(١) سورة البقرة: الأيتان (٨٠-٨١).
^(٢) سورة آل عمران: الأيتان (٢٣-٢٤).

المبحث السادس: قسوة القلب والإصرار على الذنب.

إن من أعظم المصائب التي قد يبئلى بها الإنسان قسوة قلبه وانغلاقه أمام الحق، فيصبح صاحب هذا القلب مريضاً بداء مزمن، له أعراض كثيرة منها رفض الحق وعدم قبوله، والإصرار على الذنوب والمعاصي، واستمرارها، إلى ما هنالك من هذه الأعراض الخبيثة، ومن كان هذا حاله، فرحمة الله ومغفرته عنه بعيدة؛ لأن من شروط قبول توبة العبد وغفران ذنبه: ندم القلب، وعدم الإصرار على الذنب، يقول الله تعالى مادحاً أولئك التائبين: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على فتلوا وهم يعلمون* أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ (١) ويقول الله تعالى مادحاً المؤمنين أصحاب القلوب الرقيقة: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ (٢) وإذا كان هذا الداء مصيبة إذا حل بفردٍ من الناس، فكيف إذا اتصفت به أمة من الأمم؟! نعم لقد أصيبت الأمة الغضوب عليها بهذا الداء، فذمهم الله على هذا الخلق السيئ بقوله: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرقون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: جعلنا قلوبهم غليظة نابية عن الإيمان والتوفيق لطاعة الله فهي تدل على تمكن صفة القسوة فيها (٤) وقاسية: هنا مأخوذة

(١) سورة آل عمران: الآيتان (١٣٥-١٣٦).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٣.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٧/٦) وطلنطوي، بنو إسرائيل (ص ٤٠٦).

من القسوة وهي غلظ القلب وصلابته وشدته وبيسه، وقيل المعنى: جعلنا قلوبهم ليست بخالصة الإيمان، بل فيها كفر ونفاق، كالدراهم القسيّة، التي يخالط فضتها غش من نحاس أو غيره.^(١) قال ابن جرير: (وأولى التأويلين في ذلك بالصواب: تأويل من تأوله فعيلة من القسوة، كما قيل: نفس زكية وزاكية، امرأة شاهدة وشهيدة، لأنّ الله جل ثناؤه وصف القوم بنقضهم ميثاقهم وكفرهم به، ولم يصفهم بشيء من الإيمان، فتكون قلوبهم موصوفة بأن إيمانهم يخالطه كفر، كالدراهم القسيّة التي يخالط فضتها غش).^(٢) لكنّ قسوة القلوب هذه وإن اتصف بها اليهود بصفة خاصة وتميّزوا بها، إلاّ أن الله تعالى وصف النصارى أيضاً بقسوة قلوبهم، وبأن هذا الداء انتشر فيهم بعدما تطاول عليهم الزمن، فقال تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾^(٣) "والأمد": هو الغاية؟، من مكان أو زمان، والمراد به هنا: المدّة التي أوصوا بأن يحافظوا على اتباع شرائعهم فيها، المغيّاة بمجيء الرسول ﷺ المبشر في الشرائع.^(٤) وقال تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرته قال أقررتم وأخذتم علىّ ذلکم إصري قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾^(٥) لقد نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال الموثقة

^(١) ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد، حجة القراءات (٢٢٤/١)، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، (الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م). والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٦/٦).

^(٢) الطبري، جامع البيان (١٥٥/٦).

^(٣) سورة الحديد: الآية ١٦.

^(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٩٢/٣).

^(٥) سورة آل عمران: الآية ٨١.

وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فبعد ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيده، وكثير منهم فاسقون في أعمالهم، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة. ^(١) وقسوة قلوب أهل الكتاب جاءت عقاباً لهم من الله تعالى على تحريفهم وتبديلهم للتوراة والإنجيل، ونقضهم العهد مع الله بعد ما رأوا الآيات البينات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فِيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ^(٢) وفي هذه الآية الكريمة إخبار من الله تعالى عن جفاء اليهود وقسوة قلوبهم، بحيث لم يعد يؤثر فيها وعظ ولا تنكير، فبعض هذه القلوب في صلابته كصلابة الحجارة، وبعضها أقسى من الحجارة، لأن من الحجارة ما تلين ويشقق فتخرج منه الأنهار، ومن الحجارة ما يتصدع إسفاقاً وخوفاً من عظمة الله، ومنها ما يتفتت ويتردى من رؤوس الجبال من خشية الله، فالحجارة تلين وتخضع، وقلوب هؤلاء لا تلين ولا تخضع، والعجب العجاب من هذه القلوب: أن تصير غليظة ويابسة بعدما رأت الآيات البينات الباهرات!! ^(٣)

نماذج من قسوة قلوب اليهود!

النموذج الأول: رفع الطور فوقهم!

الطور: اسم الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى ﷺ ونودي فيه. ^(٤) وقال ابن عباس

(رضي الله عنهما): الطور هو الجبل الذي أنزلت عليه التوراة، وكانت بنو إسرائيل أسفل منه. ^(٥)

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣١٠).

^(٢) سورة البقرة: الآية ٧٤.

^(٣) الصابوني، صفوة التفسير (٨/١).

^(٤) الحموي، باقوت، معجم البلدان (٣/٣٠٠).

^(٥) الطبري، جامع البيان (١/٣٢٥).

وتعتبر قصة رفع الطور على بني إسرائيل الذين كانوا مع موسى ﷺ من أمهات قصصهم. (١)
قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خِذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خِذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِنَسْمَا بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيْمَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ويرى الإمام البيضاوي فائدة لتكرير القصة هنا: هي التنبية على أن طريقتهم مع محمد ﷺ نفس طريقة أسلافهم مع موسى ﷺ ، وفي ذلك إلزام لهم بعمل أسلافهم، بناءً على أن الفرع يتبع أصله، والولد نسخة عن أبيه. (٤) وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ نُنَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خِذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٥) النسق: هو نزع الشيء وقلعه ورفع، ولهذا قيل للمرأة الكبيرة: ناتق، لأنها ترمي بأولادها رمياً. (٦) فمعنى قوله تعالى: "وَإِذْ نُنَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ" أي: زعزعا فاستخرجناه من مكانه، وكل شيء قلعه فرميت به فقد ننتقه، وقيل: ننتقناه أي: رفعناه. (٧) "بقوة": بجد واجتهاد وإخلاص وطاعة، في تأدية ما أمركم به وافترضه عليكم. (٨) وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه (٩). لكن ما الهدف من رفع الطور فوق بني إسرائيل؟ والجواب: لقد أظهر الله لهم هذه الآية تخويفاً لهم ليقرّوا بما عوهدوا عليه، وبأخذوه بقوة وحزم وامتنال، ولتكون معجزة لموسى ﷺ تصديقاً له فيما

(١) ابن عثور، التحرير والتنوير (١٦٤/٥).

(٢) سورة البقرة: الآية ٦٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٩٣.

(٤) البيضاوي، تفسير البيضاوي (٣٣-٣٣١/٢).

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

(٦) الطبري، جامع البيان (١١٠/٩)، الرابع، المفردات (ص ٤٨٤).

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٩٦/١).

(٨) الطبري، جامع البيان (٣٢٦/١)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٩٧/١).

(٩) الزمخشري، الكشاف (١٦٥/٢).

سيبلغهم عن الله من أحكام التوراة. ^(١) وبناءً على ذلك نتساءل: هل كان رفع الطور قبل الميثاق أم بعده؟ والصحيح أن أخذ الميثاق عليهم كان قبل رفع الجبل فوقهم، على ما جاء ترتيب النظم، ورفع الجبل كان لإشهادهم آية من آيات الله، تقوي إيمانهم بأن التوراة منزلة من عند الله، وقوة الإيمان من شأنها أن تدفع إلى العمل بما في الكتاب المنزل، بجد وعزم واجتهاد. ^(٢) روى ابن جرير عن الحسن البصري أنه قال: لما نظروا إلى الجبل خروا كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من أن يسقط عليه فلذلك ليس في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون هذه السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة. ^(٣) ومعنى الآية الكريمة: وانكر يا محمد ﷺ إذ اقتلعتنا الجبل (الطور) فوق رؤوس بني إسرائيل، كأنه غمام من الظلام، وعلّموا أنه ساقط عليهم، وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم من فرائض وألزامناكم من أحكام بجد واجتهاد وإخلاص في الأداء، من غير تقصير ولا توان، وانكروا ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم، وما فيه من وعدٍ ووعيدٍ شديد، كي تتقوا ربكم فتخافوا عقابه. ^(٤) فهل أخذ القوم بهذه الأحكام والتزموها بعدما رفع الله الطور فوق رؤوسهم كالظلة؟ لقد قبلوا هذه الأحكام ثم خالفوها، ولهذا قالوا: "سمعنا وعصينا" ^(٥) قال سيد قطب: (إنهم قالوا سمعنا، ولم يقولوا عصينا، ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا؟ إنه التصوير الحي للواقع الصامت، كأنه واقع ناطق، لقد قالوا بأقواهم: سمعنا وقالوا بأعمالهم: عصينا، والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالة، وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق ... وهذا التصوير الحي للواقع

^(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٠٤)، وابن عسور، التحرير والتنوير (٥/١٦٥).

^(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٣٧٩).

^(٣) الطبري، جامع البيان (٩/١٠٩).

^(٤) المصدر السابق (٩/١٠٨). وللزمخري، للكشاف (٢/١٦٥).

^(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٦).

يومي إلى مبدأ كلي من مبادئ الإسلام: إنه لا قيمة لقول بلا عمل، إن العمل هو المعتبر، أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة، وهي مناط الحكم والتقدير^(١).

النموذج الثاني: رفضهم دخول القرية سجداً

هذا نموذج آخر من نماذج قسوة قلوب اليهود، وإصرارهم على ذنوبهم حيث قابلوا نعمة من أجل نعم الله عليهم، ألا وهي نعمة النصر والتمكين قابلوها بالرفض والاستهزاء! قال تعالى: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين* فبذل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾^(٢) وقال أيضاً ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم، سنزيد المحسنين* فبذل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾^(٣) القرية: بفتح القاف هي مصر الجامع.^(٤) وهي البلدة المشتملة على المساكن المبنية من حجارة.^(٥) والمراد بالقرية في هذه الآية: بيت المقدس على الراجح من أقوال المفسرين.^(٦) وكان ذلك لما خرجوا من التيه - في صحراء سيناء - بعد أربعين سنة مع موسى ﷺ، وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حُبست لهم الشمس يومئذ قليلاً، حتى أمكن الفتح.^(٧) والـرغد: الواسع من العيش الهنيء الطيب، يقال: أرغد فلان، إذا أصاب واسعاً من

(١) قطب، الظلال (٩١/١).

(٢) سورة البقرة: الآيتان (٥٨-٥٩).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (١٦١-١٦٢).

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة قري (١٤٧/١١).

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥١٤/١).

(٦) الطبري، جامع البيان (٢٩٩/١).

(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٨/١).

العيش الهنيء، وأرغد القوم: حصلوا في رغدٍ من العيش. ^(١) والحطة مصدر، المراد به: طلب حطّ الذنوب والخطايا. ^(٢) وسُجِّدًا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: سجِّدًا أي ركعًا، وأصل السجود الاتحناء لمن سجد له معظماً بذلك. ^(٣) وقيل المراد بالسجود: الخضوع، لتعذّر حمله على حقيقته. ^(٤) وقال ابن كثير: (سجِّدًا أي: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلادهم عليهم، وانقاذهم من التيه والضلال، والباب: هو باب البلد). ^(٥) وقال ابن جرير: (هو باب حطة من بيت المقدس). ^(٦) رجزاً: الرجز في لغة العرب: العذاب، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كل شيء في كتاب الله الرجز: يعنى به العذاب. ^(٧) فقد أخبرنا الله تعالى أنه أنزل على الذين ظلموا رجزاً من السماء، وجائز أن يكون ذلك طاعوناً، وجائز أن يكون غيره، ولا دلالة في ظاهر القرآن ولا في أثر عن الرسول ﷺ ثابت يبيّن أي ذلك كان، فالصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال عز وجل: فأنزلنا عليهم رجزاً من السماء بفسقهم ^(٨) ومعنى الأيتين الكريمتين: وانكروا يا بني إسرائيل من أجل الاعتاظ والاعتبار، وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التيه، وقلنا لهم كلوا من خيراتها أكلاً هنيئاً طيباً ذا سعة، وقلنا لهم ادخلوا من بابها راكعين، شكراً لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة، داعين الله ومتوسلين إليه سبحانه بأن يحطّ عنكم ذنوبكم، فإذا فعلتم ذلك وهو يسير عليكم، غفرنا لكم ذنوبكم، وكفرنا عنكم سيئاتكم، وزنا المحسن منكم خيراً جزاء إحسانه. ^(٩)

^(١) الطبري، جامع البيان (٢٢٩/١).

^(٢) المصدر السابق (٣٠٠/١).

^(٣) المصدر السابق (٢٩٩/١).

^(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٨/١).

^(٥) المصدر السابق (٩٨/١).

^(٦) الطبري، جامع البيان (٢٩٩/١).

^(٧) المصدر السابق (٣٠٦/١).

^(٨) المصدر السابق (٣٠٦/١).

^(٩) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٣٧١).

فكيف قابل اليهود هذه النعمة، وهذه الأوامر الربانية؟ لقد قابلوا النعمة بالجحود، والأوامر بالاستهزاء والتبديل! فبذل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون" روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة" فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا، وقالوا حطة حبة في شعرة".^(١) قال الزمخشري: ("فبدل الذين ظلموا قولاً" أي: وضعوا مكان حطة "قولاً" غيرها، يعني: أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به، فلم يمتثلوا أمر الله، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه - وهو لفظ الحطة - فجاءوا بلفظ آخر، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به، لم يؤاخذوا به، كما لو قالوا مكان حطة: نستغفرك ونتوب إليك، أو اللهم اعف عنا، وما أشبه ذلك، وقيل: قالوا مكان حطة: حنطة).^(٢) وحاصل ما ذكره المفسرون وما دلّ عليه السياق: أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم - من قبل أستاههم - رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا حطة أي: احطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزأوا فقالوا حنطة في شعيرة! وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه نفسهم، وهو خروجهم عن طاعته).^(٣) وهكذا كشفت لنا هذه الآيات الكريمة رذيلة جديدة من رذائل اليهود الكثيرة ألا وهي قسوة قلوبهم، وإصرارهم على ذنوبهم، حيث منّ الله عليهم بدخول الأرض المقدّسة فاتحين، وأمرهم أن يدخلوها راكعين خاضعين، شاكرين لله نعمة النصر، وأن يتوسّلوا إلى الله أن يغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم، فدخلوها وهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، باب "وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً، وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين" برقم ٤٤٧٩، انظر، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (٢٠٨/٨).

(٢) الزمخشري، الكشاف (١٧١/١-١٧٢).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٩٩/١).

يزحفون على استاهم عناداً واستكباراً قائلين في استهزاء، حبة في شعيرة، وجدوا نعمة الله عليهم فاستحقوا غضبه وعذابه.^(١)

النموذج الثالث: قولهم قلوبنا غُف

قال تعالى: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غُف، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾^(٢) قرأ بعضهم "غُف" بتخفيف اللام وسكونها، وهي قراءة عامة الأمصار وروي عن أبي عمرو أنه قرأ "غُف" بضم اللام.^(٣) فأما من قرأ غُف بتخفيف اللام وسكونها، فهو جمع أغلف، وهو الذي في غلاف وغطاء، كما يقال للرجل الذي لم يختن أغلف، والمرأة غلفاء، وكقولهم للسيف وهو في غلافه سيف أغلف، وقوس غلفاء، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾^(٤) والمعنى على هذه القراءة: أن اليهود قالوا إن قلوبهم خلقت مغشاة بأغطية، لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه.^(٥) وأما من قرأ غُف بتحريك اللام وضمها، فهو جمع غلاف، كما أن جمع كتاب كُتِب، فيكون المعنى على هذه القراءة: أن اليهود زعموا أن قلوبهم أوعية للعلم، قد حوته وحصلته، فهم مستغنون بما عندهم من العلم، عما جاء به محمد ﷺ.^(٦) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: "وقالوا قلوبنا غُف" أي: مملوءة علماً، لا تحتاج إلى محمد ﷺ ولا غيره.^(٧)

(١) المصدر السابق (١/٩٨-٩٩).

(٢) سورة النساء: الآية ١٥٥.

(٣) التميمي، السبغادي، أبو بكر، أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات (١/١٦٤) تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، (الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ) والطبري، جامع البيان (١/٤٠٦).

(٤) سورة فصلت: الآية ٥.

(٥) النسفي، أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود ت ٧١٠، مدرك التنزيل، وحقائق التأويل (١/٥٦)، دار الكتب العلمية، (الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

(٦) الطبري، جامع البيان (١/٤٠٧)، والنسفي، مدرك التنزيل (١/٥٧).

(٧) الطبري، جامع البيان (١/٤٠٧).

إبطال القرآن الكريم لدعوى اليهود أن قلوبهم غُف:

لقد ردّ الله سبحانه على اليهود دعواهم هذه، مبيناً أن قلوبهم مخلوقة على الفطرة كسائر البشر، وإنما طردهم الله بكفرهم وزيغهم. ^(١) قال تعالى: "بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً" فقد تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان، وقلة الإيمان. ^(٢) قال البغوي: ("إلا قليلاً" يعني: ممن كذب الرسل لا من طبع على قلبه، لأنّ من طبع الله على قلبه لا يؤمن أبداً، وأراد بالقليل: عبد الله بن سلام وأصحابه). ^(٣) والطبع: هو الختم، وذلك بحجب النور عنها بسبب كفرهم وجحودهم. ^(٤) قال سيّد قطب: (وقلوبهم ليست مغلقة بطبعها، إنما كفرهم جرّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان، ولا تتنوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان إلا قليلاً، ممن لم يستحق بفعله أن يطبع الله على قلبه، أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه، وهم قلة قليلة من اليهود، كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن سعيه، وأسد بن عبيد الله...). ^(٥)

^(١) النسفي، مدارك التنزيل (٥٧/١).

^(٢) لين كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٣/١).

^(٣) البغوي، تفسير البغوي، (٤٩٦/١).

^(٤) كشك، عبد الحميد، في رحاب التفسير (١٠٤٣/٦)، المكتب المصري الحديث.

^(٥) قطب، الظلال (٨٠/٢).

المبحث السابع: منع النعمة عن الناس

ويندرج تحت هذا الخلق النميم: البخل والحسد، لأن البخل يمنع نعمة نفسه عن غيره، والحاسد يريد أن يمنع نعمة الله تعالى عن عباده، ومن هنا أجمع العقلاء على أن البخل والحسد هما أقبح الأخلاق النميمية، لأن مدار الإسلام على أمرين هما: تعظيم أمر الله تعالى، والشفقة على عباده.

البخل: البخل ضد الكرم والجود. ^(١) وهو: إمساك المتقنيات عمّن لا يحقّ حبسها عنه، يقال: بخل فهو باخل، كالرحيم من الراحم، وأمّا البخل، فهو الذي يكثر فيه البخل. ^(٢) وفي الحديث: "الولد مبخله مجبنة" ^(٣) أي مظنة للبخل، لأنه يحمل أبويه على البخل، ويدعوها إليه. ^(٤) والبخل ضربان: بخل الإنسان بما عند نفسه، وبخله بما عند غيره، وهو أكثرها نمأً، كما قال تعالى: "الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل". ^(٥) وقال الجرجاني: البخل هو المنع من مال نفسه، والشح هو البخل من مال غيره. ^(٦) وقيل إنّ الفرق بين البخل والشح: أن البخل هو الامتناع من إخراج ما حصل عندك، والشح: هو الحرص على تحصيل ما ليس عندك، وقيل: الشح هو البخل مع الحرص. ^(٧) قال تعالى: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ ^(٨) نزلت هذه الآية في اليهود حين

^(١) ابن منظور، لسان العرب مادة بخل (٣٣٢/١).

^(٢) الراغب، المفردات (ص ٤٨).

^(٣) رواه ابن ماجة في سننه، باب برّ الولد والإحسان إلى البنات، برقم (٣٦٦٦) (١٢٠٩/٢).

^(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة بخل (٣٣٢/١).

^(٥) الراغب، المفردات (ص ٤٨).

^(٦) الجرجاني، علي بن محمد بن علي، للتعريفات (٦٢/١) تحقيق إبراهيم الأبياري، دار للكتاب العربي، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ).

^(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٦/٥).

^(٨) سورة النساء: الآية ٣٧.

كتموا صفة محمد ﷺ، ولم يبينوها للناس، وهم يجدونها مكتوبة عندهم في كتبهم. (١) عن ابن عباس قال: كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحري بن عمرو، وحبي بن أخطب، ورفاعة بن زيد التابوت، يأتون رجالاً من الأنصار يتصحون لهم فيقولون: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر من ذهابه، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله فيهم: "الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، إلى قوله "وكان الله بهم عليماً". (٢) وعن قتادة قال: هم أعداء الله أهل الكتاب غلوا بحق الله عليهم، وكتموا الإسلام ومحمداً ﷺ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. (٣) وقد جمع الإمام ابن كثير بين الروايات السابقة، فقال: (لا شك أن الآية محتملة لبخل اليهود، بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ، ولذلك قال تعالى: "وأعدنا للكافرين عذاباً أليماً". والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً فيه دخولاً بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء، وكذلك الآية التي بعدها، وهي قوله: "الذين ينفقون أموالهم رياء الناس". (٤) وواضح أن الآية السابقة نزلت في اليهود ووصفتهم بالبخل بنوعيه، حيث بخل علماءهم بما عندهم من العلم، أن يعلموه للناس فكتموه، ومما كتموا من العلم: صفة النبي ﷺ الواردة في التوراة، وقد تحدثنا فيما مضى عن هذا الموضوع، وبخلوا كذلك بما عندهم من المال، بل وأرادوا أن ينقلوا هذا المرض إلى غيرهم من الناس، فتراهم يحثون أصحاب رسول الله ﷺ على عدم النفقة في سبيل الله، مما يدل على أن هذا المرض قد استقل فيهم. ولقد أعد الله لهم لقاء هذا المرض الخبيث الذي كسبوه بأيديهم: أعد لهم عذاباً مهيناً: "وأعدنا لهم عذاباً

(١) الصابوني، صفوة التفسير (٢٥٢/١).

(٢) السيوطي، لباب للنقول (ص ٨٣).

(٣) الأكوبي روح المعاني (٤٥/٤).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٩٦/١).

مهيئاً أي: عذاباً يهيئهم كما أهانوا نعم الله بالبخل والإخفاء.^(١) ثم وبخهم الله تعالى ونمهم على عملهم هذا فقال: "وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً" وقال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ إِذْ لَا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾^(٢) عن ابن عباس قال: كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة: حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وأبو رافع والربع بن أبي الحقيق وأبو عامر وهودة بن قيس، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش، قالوا: هؤلاء أحبار يهود أهل العلم بالكتب الأولى، فسالوهم أدينكم خير أم دين محمد، فسالوهم فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه، وممن اتبعه، فأنزل الله: "لم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب" إلى قوله: "ملكاً عظيماً"^(٣) والنقير: نقرة في ظهر النواة.^(٤) يضرب به المثل في الشيء الطفيف، والنقير أيضاً خشب ينقر وينبذ فيه.^(٥) وقال أبو العالية: سألت ابن عباس عن النقير فوضع طرف الإبهام على باطن السبابة ثم رفعهما وقال: هذا النقير.^(٦) وذكر الإمام الفخر الرازي في الملك ثلاثة أقوال:

الأول: أن اليهود كانوا يقولون نحن أولى بالملك والنبوة، فكيف نتبع العرب؟

الثاني: أن اليهود كانوا يزعمون أن الملك يعود إليهم في آخر الزمان حين يخرج من اليهود من يجدد ملكهم ودولتهم، ويدعو إلى دينهم، فبينت الآية كذبهم.

الثالث: أن الملك المراد به هنا: هو التملك، بمعنى أنهم إنما يقدرّون على دفع نبوتك لو كان التملك إليهم، ولبخلوا بالنقير والقطمير، فكيف يقدرّون على النفي والإثبات؟ وقال أبو بكر

(١) الألويسي، روح المعاني (٤/٤٤).

(٢) سورة النساء: الآية ٥٣.

(٣) السيوطي، لباب النقول (ص ٨٧).

(٤) الليزدي، غريب القرآن وتفسيره (ص ١٢٠).

(٥) الراغب، المفردات (ص ٥٠٥).

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٦٢).

الأصم: كانوا أصحاب بساتين وأموال، وكانوا في عزّة ومنعة، ثم كانوا يبخلون على الفقراء بأقل القليل، فنزلت الآية. ^(١) والاستفهام الوارد في الآية إنكاري، جاء لإبطال قول اليهود نحن أولى بالملك والنبوة، فكيف نتبع العرب، وتكذيب لهم في زعمهم أن الملك يعود إليهم في آخر الزمان فيخرج من اليهود من يجنّد ملكهم ودولتهم، ويدعو إلى دينهم، وإنّ حرف جواب، وجزاء الشرط مقتر .. والمعنى ليس لهم من الملك شيء البتة، ولو كان لهم من الملك نصيب لتسبب ذلك في أنهم لا يعطون أحداً من الناس قدر ما يملأ النقيير... ، وهذا بيان لعدم استحقاقهم للملك بل لاستحقاقهم الحرمان منه. ^(٢) فإذا بخلوا بالنقيير وهم ملوك، فما بالك لو كانوا فقراء أذلاء؟ ^(٣) وهكذا كشفت الآية الكريمة ما هم مطبوعون عليه من حبّ الذات، وحب المادة، والغرور الكانِب، والشح، فلا يعطون الناس مقدار النقيير، والملك يحتاج إلى الترفع عن كل ذلك، وإلى كسب الأعوان بالبذل والسخاء وقضاء حوائج الآخرين، والسمو عن الماديات وحبّ الناس. ^(٤) ولعل من أسباب بخل اليهود: أنانيتهم وحبهم للمال الذي لا حدود له، لدرجة أن أنانيتهم سوغت وصورت لهم أن العالم كله بما فيه ملك لهم، وأن عليهم متى حلوا في أي دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة، وأن يجمعوا أموالها بأي طريقة، فإن المال هو معبود اليهود قديماً وحديثاً

الحسد: الحسد: تمنى زوال النعمة عن مستحق لها، وربما كان مع تلك سعي في إزالتها. ^(٥)

^(١) الرازي، التفسير الكبير (١٠٣/٤).

^(٢) الجلوي، محمد بن عمر نووي، مراح ليبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢٠٢/١)، دار للكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

^(٣) البيضاوي، تفسير البيضاوي (٢٠٢/٢).

^(٤) الزحيلي، التفسير المنير (١١١/٥-١١٢).

^(٥) الراغب، المفردات (ص ١٢٥).

ويقال: ظلم ذي النعمة بتمني زوالها عنه، وصيرورتها إلى الحاسد.^(١) والحسد: منوم وصاحبه مغموم، ويقابله الغبطة وهي محمودة، وقيل: المؤمن يغبط، والمنافق يحسد. قال تعالى في ذم الحسد: ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾^(٢) وقال: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾^(٣) ومن الملفت للانتباه: أن هذا الخلق الذميمة لم يصف به القرآن الكريم جماعة أو أمة بشكل مخصوص سوى اليهود، مما يدل على أن هذا الخلق متأصل فيهم. وقال تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً* فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً﴾^(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أهل الكتاب: زعم محمد أنه أوتي ما أوتي في تواضع، وله تسع نسوة، وليس همه إلا النكاح فأبي ملك أفضل من هذا؟ فأنزل الله: "أم يحسدون الناس" الآية.^(٥) والراجح أن المقصود بالآية هم اليهود.^(٦) لأن سياق الآيات يتحدث عنهم أما الفضل الذي حسد اليهود الناس عليه، فاختلف العلماء في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الفضل هو النبوة والكرامة الحاصلة بسببها في الدين والدنيا.^(٧) فعن

ابن عباس ومجاهد وغيرهما: حسدوه على النبوة، وأصحابه على الإيمان به، وقال قتادة: الناس: العرب، حسدتهم اليهود على النبوة، وقال الضحاك: حسدت اليهود قريشاً، لأن النبوة

(١) السنائي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف (١/٢٧٨)، تحقيق: الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ودار الفكر، (الطبعة الأولى ١٤١٠هـ).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

(٣) سورة الفلق: الآية ٥.

(٤) سورة النساء: الآيتان (٥٤-٥٥).

(٥) الطبري، جامع البيان (٥/١٣٩).

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٦٢)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٥١٣).

(٧) الرازي، التفسير الكبير (٤/١٠٤-١٠٥).

فيهم. (١) واللام في الناس للعهد، والإشارة إلى رسول الله ﷺ والمؤمنين معه، وحمله على الجنسين إذاناً بحيازتهم للكلمات البشرية قاطبة، فكانهم هم الناس لا غير. (٢)

القول الثاني: أنهم حسدوا سيدنا محمداً ﷺ على أنه كان له من الزوجات تسع قال الرازي معقياً على القولين السابقين: (إعلم أن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة، فكما كانت فضيلة الإنسان أتم وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم، ومعلوم أن النبوة أعظم المناصب في الدين، ثم إنه تعالى أعطاها لمحمد ﷺ، وضم إليها أنه جعله كل يوم أقوى دولة، وأعظم شوكة، وأكثر أنصاراً وأعواناً، وكل ذلك مما يوجب الحسد العظيم، فأما كثرة النساء، فهو كالأمر الحقيق لجميع ما أنعم الله تعالى به عليه ودخل هذا أيضاً تحتها، فأما على سبيل القصر عليه فبعيد). (٣) ومعنى هاتين الآيتين الكريمتين أي: حسد هؤلاء اليهود رسول الله ﷺ على ما رزقه الله من نعمة النبوة العظيمة، وحسدوا أتباعه المؤمنين على ما رزقهم الله من نعمة الإيمان به، وما آتاهم الله من النصر والغلبة، والعز والتقدم يوماً بعد يوم، إن هذا الحسد لهو أمر في غاية القبح وهو خبيث، ويبدو أن هذا الداء قد استفحل فيهم، وانتشر فيما بينهم، لدرجة أنهم يحسدون بعضهم بعضاً، فقد جعل الله تعالى في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة، وأنزل عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة، وكان من هؤلاء الأنبياء ملوكاً كداود وسليمان عليهما السلام، فماذا كان موقف اليهود تجاه هذه النعم؟ إن منهم من آمن بهذا الإنعام وبهذا الإيتاء، ومنهم من كفر به وأعرض عنه، بل وسعى في صد الناس عنه، وهؤلاء الرسل من جنسهم، أي من بني إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ﷺ ولست من بني

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٢/٥).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (١٥٠/٢).

(٣) الرازي، للتصوير الكبير (١٠٤/٤-١٠٥).

إسرائيل. (١) ويحتمل أن يكون معنى قوله تعالى: "فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه": أن من اليهود من آمن بمحمد ﷺ وهم قلة، ومنهم من صد عنه وهم كثرة. (٢) وبعد أن كشفت آيات القرآن الكريم عن هذه الرذيلة من رذائل اليهود، أبطلتها وفندتها على النحو التالي:

١. مجيء الهمة في (أم) لإنكار ما بدر منهم من حسد واستباحه، أي أن حسد المذکور في غاية القبح والبطلان!

٢. علل هذا الإنكار والاستباح، وألزمهم بما هو مسلم عندهم، وحسم مادة حسد المذکور واستبعادهم، المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتي من الفضل، وذلك ببيان هذا الاستحقاق له بطريق الوراثة كبراً عن كبر، وإجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الانتفات، لإظهار كمال العناية بالأمر.

فقد بين سبحانه وتعالى أنه قد أعطى هذه النعمة من قبل لآل إبراهيم، الذين هم أسلاف محمد ﷺ أو أبناء أعمامه، بل وآتاهم الله ملكاً عظيماً، فكيف يستبعدون نبوته ﷺ ويحسدونه على إيتائها؟! وقد كرر الإتياء لما يقتضيه مقام التفضيل، مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة، فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن بما أوتي آل إبراهيم، ومنهم من أعرض عنه. (٣) وحول هذا المعنى يقول الإمام الرازي: (إعلم أن الكتاب إشارة إلى ظواهر الشريعة، والحكمة إشارة إلى أسرار الحقيقة، وذلك هو كمال العلم، وأمّا الملك العظيم فهو كمال القدرة، وقد ثبت أن الكمالات الحقيقية ليست إلا العلم والقدرة، فهذا الكلام تنبيه على أنه سبحانه آتاهم أقصى ما يليق بالإنسان من الكمالات، ولما لم يكن ذلك مستبعداً فيهم، فإنه يكون مستبعداً في

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٥٤/١) وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١٣/١ - ٥١٤).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥١٤/١)، والصابوني، صفة للتفسير (٢٥٨/١).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (١٥٠/٢ - ١٥١).

حقّ محمد ﷺ).^(١) ويقول سيّد قطب: (إنه لمن ألام الحسد أن يُحسد ذو النعمة الموهوب بالنعمة، فهذا هو الشر الأصيل العميق، شر اليهود المتميز العميق).^(٢) ولقد كان حسد اليهود للنبي ﷺ سبباً لكفرهم به، وقد أكدت هذا المعنى أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين* بنسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذاب مهين﴾.^(٣)

ومعنى الآية: ولما جاء اليهود محمدًا ﷺ ومعهم القرآن العظيم، الذي أنزل عليه مصدقاً لما في التوراة يؤيدها ويوافقها في أصول الدين، وفيما يختص ببعثة النبي ﷺ ونعته، وكانوا قبل مجيئه يستصرون به على أعدائهم ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة، فلما بعث النبي المرتقب جحدوا نيوته، وكذبوا بالكتاب الذي معه، فلعنة الله على الكافرين، بنس الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم، ألا وهو كفرهم بالقرآن المنزل من عند الله على نبيه ﷺ، وكفرهم هذا كان بسبب الحقد الذي استولى على نفوسهم، والحسد الذي ملأ قلوبهم، كراهة أن ينزل وحى الله على رجل من العرب وليس من اليهود، والله تعالى يختص بفضله من يشاء، ويصطفى من عباده من يشاء، ولقد عاد اليهود - بسبب كفرهم وحسدهم - بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم، ولهم عذاب شديد ومهين ومذل لقاء كفرهم، الذي سببه التكبر والحسد، فقولوا بالإهانة والصغار.^(٤) ومن الجدير بالملاحظة هنا: أن

(١) الرزقي، التفسير الكبير (١٠٥/٤).

(٢) قطب، الظلال (٦٨٣/٢).

(٣) سورة البقرة: الآيتان (٨٩-٩٠).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٤/١-١٢٥)، وطنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٤١).

الحسد مسمى بغياً، والبغي هو الظلم، فعند الحسد ظلماً، لأن الظلم معناه المعاملة التي تبعد عن الحق وتجافيه، ومعنى الحسد: تمنى زوال النعمة عن الآخرين، والظالم والحاسد قد جانب كل منهما الحق فيما جنى، والحاسد لن يناله نفع من زوال نعمة المحسود، كما أنه لن يصيبه ضرر من بقائها، وما دام الأمر كذلك: فالحاسد ظالم للمحسود بتمنى زوال النعمة عنه. (١) وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ (٢) ففي هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه سبب اختلاف اليهود والنصارى بشأن رسالة الإسلام، وكفرهم بهذا الدين - وهو الدين الحق - من بعد ما ظهر لهم صحة هذا الدين، وصدق نبيه ﷺ بالحجج الباهرات والآيات النيرات، يبين سبحانه أن سبب كفرهم هو حسدهم لمن أنزل عليه القرآن، وتكبرهم وحبهم للرئاسة. (٣) مما أدى إلى شقائهم في الدنيا والآخرة، كما كان حسد إبليس لآدم سبباً لكفره وخروجه من الجنة! لقد ظن اليهود أن النبوة مقصورة عليهم ومحصورة في نرية إسحاق، لا يستحقها أبناء إسماعيل، فخاب ظنهم وخسروا خسراً مبيهاً، حيث لم ينتفعوا بنعمة النبوة، بل جحدوها وكفروا بها، والله الأمر من قبل ومن بعد، بيده الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء وينزل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت في نفر من اليهود، قالوا للمسلمين بعد وقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما

(١) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٤٣).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٣) الزمخشري، الكشاف (١/٣٧٤)، والصابوني، صفوة التفسير (١/٦٨).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم! وعن الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه: أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من المدينة حين قدمها رسول الله ﷺ، يؤذون النبي ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى نبيّه بالصبر على ذلك والعفو عنهم، وفيهم نزلت "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَدْعُوهُمُ إِلَى الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِحُسْنِهِمْ لَكُمْ، وَيَغْضَبُهُمْ لِدِينِكُمْ، مِنْ بَعْدِ أَنْ ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ الدِّينُ الْحَقُّ، فَلَا تَهْتَمُوا، وَتَرَفَعُوا عَنْ مَقَابِلَةِ هَذَا الْحَقِّ بِمِثْلِهِ، لِأَنَّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، فَأَعْرَضُوا عَنْ أَذَاهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ." (١) وكشفت هذه الآية عن لون من ألوان الشرور عند أهل الكتاب، وهو تمنيههم ارتداد المؤمنين عن دينهم إلى الكفر، وإنما أسند التمني للكثير منهم، إنصافاً للقلة المؤمنة منهم، التي لم ترتض ذلك. (٢) ومبالغة في نهمهم قال تعالى: "مَنْ بَعْدَ إِيْمَاتِكُمْ"، وفيه إشعار بأن ما تمنوه بعيد المنال، لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال منه إلى الكفر. (٣) ولتصوير مدى حقد هذه الكثرة من أهل الكتاب على المؤمنين، جاء قوله تعالى: "مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" أي: من بعد ما عرفوا صدق محمد ﷺ، وأنه جاء بدين التوحيد، لأنهم قرأوا ذلك في كتبهم، وخاصة أحبارهم ورهبانهم، الذين عرفوا نعت محمد ﷺ في التوراة والإنجيل. ولكن ما الذي حملهم على تمنى ذلك للمؤمنين؟ إنه الحسد الذي استولى على نفوسهم، وهو العلة الوحيدة التي حملتهم على

(١) العك، خالد عبد الرحمن، تسهيل الوصول (ص ٢٩).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٥٣).

(٣) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٤٧).

(٤) المصدر السابق (ص ٤٤٨).

تمنى انتقال المسلمين من الإيمان إلى الكفر، وقوله تعالى: "من عند أنفسهم": يدل على أن تمنيهم أن يرتد المسلمون عن دينهم من عند أنفسهم، ومن قبيل شهوراتهم، لا أنهم أمروا به في كتبهم، ولا من قبيل التدين أو الميل مع الحق، فقد تمنوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق، فكيف يكون تمنيهم من قبل الحق؟!^(١) كما أن الجملة الكريمة: "حسداً من عند أنفسهم" تدل على أن أهل الكتاب يعتقدون صحة دين الإسلام، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين، إلا إذا عرف صحة هذا الدين، وأنه طريق النجاة والصلاح.^(٢) ويرى الشيخ محمد رشيد رضا أن أهل الكتاب في هذه الآية: هم اليهود، لأن الله تعالى لم يسند الحسد إلى غيرهم، ولأنهم قد سلب منهم الملك يتمنون عودته إليهم، وقد كبر عليهم أن تسبقهم العرب إلى ذلك، ولم يكن النصراني يومئذ يحسدون المسلمين، لأنهم متمتعون بملك واسع (ولا مشركو العرب)، لأنهم ما كانوا يظنون أن النبوة التي قام بها واحد منهم حق، ولا أنها تستتبع ملكاً فإن من ظهر له حقيقة الدعوة صار مسلماً، وأما اليهود فإنه لم يؤمن ممن ظهرت له حقيقة دعوة الإسلام إلا نفر قليل، ومنع الحسد باقي الرؤساء أن يؤمنوا، وتبعهم العامة تقليداً لهم، وقلما يمنع الناس من اتباع الحق بعد ظهوره لهم مثل الحسد والكبر، فالحسود يؤثر هلاك نفسه على انقيادها لمن يحسده، لأن الحسد يفسد الطباع.^(٣)

(١) الزمخشري، للكشاف (٢٠٢/١).

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٤٤٨).

(٣) رضا، تفسير المنار (١٦١/١).

المبحث الثامن : الكيد -

لقد سلك اليهود في كيدهم للإسلام كل وسيلة خبيثة وأسلوب دنيء، وقد كشف القرآن الكريم عن هذه الوسائل والأساليب ليتقها المسلمون، فيرتدّ كيدهم إلى نحورهم، وسأتى على ذكر هذه الأساليب إجمالاً، قبل الحديث عنها تفصيلاً، منوهاً إلى أن بعض هذه الأساليب والوسائل سبق أن تحدثنا عنه في ثنايا هذه الرسالة، لذا سأقتصر في هذا المبحث على مسالك الكيد التي لم تبحث سابقاً وهي:

- تحالفهم مع المشركين والمنافقين ضدّ المسلمين.
- محاولتهم ردّ المسلمين عن دينهم.
- تعنتهم في الأسئلة بقصد إحراج الرسول ﷺ .
- استهزاؤهم بالدين وشعائره .^(١)

الكيد: هو الخبث والمكر والاحتتيال^(٢). قال تعالى: "أم يريدون كيداً"^(٣) وقد يكون

مزموماً أو ممدوحاً، وإن كان يستعمل في المزموم أكثر.^(٤)

- السبيل التي سلكها اليهود في الكيد للإسلام والمسلمين:

أولاً: تحالفهم مع المشركين والمنافقين ضد المسلمين:

إن من أساليب اليهود في محاربة الدعوة الإسلامية: تحالفهم مع أعداء المسلمين في

الداخل من منافقين، ومع أعدائهم في الخارج من كفرة ومشركين، والهدف الذي يجمع هذا

^(١) طنطولي، بنو إسرائيل (ص ١٤٩ - ص ١٥٠).

^(٢) ابن منظور، اللسان، مادة كيد (١٢/١٩٩ - فما بعدها).

^(٣) سورة الطور: الآية ٤٢.

^(٤) الراغب، المفردات (ص ٤٤٥).

التحالف: هو القضاء على الدعوة الإسلامية وأعدائها. قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾. (١) أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) قال: لما حاربت بنو قينقاع تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي ابن سلول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف من الخزرج، وله من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي، فحالفهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ من حلف الكفار وولائهم، قال: ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت القصة في المائة: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ الآية (٢) لقد ابتدأت الآية الكريمة بنداء الله تعالى للمؤمنين ونهيمهم عن موالة اليهود والنصارى، أي طلب النصره منهم. (٣) أو الركون إليهم، أو الثقة بمودتهم، أو التحالف معهم. (٤) قال الزمخشري: (لا تتخذوهم أولياء تتصرونهم وتستصرونهم، وتؤاخذونهم وتصافونهم، وتعاشرونهم معاشره المؤمنين). (٥) لقد نهى الله تعالى المؤمنين عن موالة الكافرين في غير آية، وسبب النهي عن هذه الموالة: هو حق اليهود والنصارى على الإسلام، ومحاربتهم في السر والعلن، فهم يرمون الإسلام عن قوس واحدة، وليس سبب النهي مخالفتهم لنا في الدين فحسب، فاشه تعالى لم ينه المسلمين عن الإحسان إلى من لم يقاتلهم في الدين ولم يخرجهم من ديارهم، فليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع

(١) سورة المائدة: الآيتان (٥١-٥٢).

(٢) السيوطي، لباب النقول (ص ١١٧).

(٣) انظر: الراغب، المفردات (ص ٥٤٧)، وابن منظور، اللسان (٤٠١/١٥).

(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٢٣٦).

(٥) الزمخشري، الكشاف (٦٧٦/١).

المسلم، وليس للمسلم ولاء إلا لله ولرسوله وللمؤمنين. (١) فمن وإلى اليهود والنصارى من المسلمين، أو استنصر بهم مع علمه بعداوتهم للمسلمين، فهو من جملتهم، وحكمه حكمهم... "ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين". قال الإمام ابن جرير: (إن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولاً أحداً إلا وهو به وبدينه راضٍ، وإذا رضي دينه، فقد عادى من خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه). (٢) وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله. (٣) وبعد أن حذرت الآية الأولى من موالات اليهود والنصارى، جاءت الآية الثانية تصوّر لنا حالة من حالات المنافقين، ومسارعتهم في موالات اليهود ليكيدوا للمسلمين: "فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم". ومما ورد في ذلك: أن أول قبيلة من اليهود نقضت العهد مع المسلمين في المدينة، هي قبيلة بنو قينقاع، فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن سلول يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقبّل له رسول الله ﷺ وأرسلني، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظلاماً، ثم قال: ويحك أرسلني قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة! إني امرؤ أخشى الدوائر، فقال له رسول الله ﷺ: هم لك. (٤) هذا هو دين المنافقين - كعبد الله بن أبي بن سلول - ممن ضعف الإيمان في قلوبهم، المسارعة والاجتهاد في موالات اليهود ومناصرتهم على المسلمين! ولقد احتج ابن سلول على ولاته لهم واستمساكه بحلفه لهم، بأنه رجل يخشى الدوائر،

(١) قطب، الظلال (٢/٩١٤).

(٢) الطبري، جامع البيان (٦/٢٧٧).

(٣) الزمخشري، للكشاف (١/٦٧٦).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٩).

فيظفر اليهود بالمسلمين فلا يدوم الأمر لمحمد ﷺ، أو يدور الدهر عليهم فيأتيهم،^(١) بالشدائد والمصائب، فالمنافقون يحتمون بأعوانهم اليهود في الملمات والأزمات، وفي المقابل يقدّمون لهم كل عون في حربهم ضد المسلمين، فردّ الله تعالى على المنافقين مغلّداً معاذيرهم الباطلة ومتوعداً إيّاهم بقوله: "فحسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين". أي: لعلّ الله تعالى أن يأتي بالقضاء والفصل، فينصر المسلمين على أعدائهم، أو بأمر من عنده يقطع دابر اليهود، فيصير المنافقون نادمين على بغضهم للمؤمنين، ومناصرتهم لليهود، وشكّهم في أن تكون العاقبة لأتباع النبي ﷺ الصادقين، ولقد صدّق الله وعده، فأذلّ اليهود وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم، وفضح المنافقين وأخزاهم.^(٢)

ثانياً محاولتهم ردّ المسلمين عن دينهم.

ومن مسالك اليهود في كيد الإسلام والمسلمين كذلك محاولتهم ردّ المسلمين عن دينهم عن طريق الخداع والمراوغة، وذلك بالدخول في الإسلام لزمن يسير ثم الخروج منه، بهدف فتنة المسلمين عن دينهم، وإحداث البلبلة والفوضى في المجتمع الإسلامي، قال تعالى حاكياً عن هذه الرذيلة: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، قل إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجّوكم عند ربكم، قل إنّ الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم ﴿^(٣) روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الصيف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض، تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤١/٦).

(٢) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٢٣٨).

(٣) سورة آل عمران: الآيات من (٧٢-٧٤).

نصنع، فيرجعون عن دينهم، فأنزل الله فيهم: "يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل" إلى قوله: "والله واسع عليم".^(١) وقال الحسن والسدي: تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر، قال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم، وقالوا: إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين. ^(٢) وهذه الروايات التي وردت في أسباب نزول هذه الآيات، تدور حول نفس المعنى، ألا وهو الكشف عن طريقة شيطانية خبيثة، لصرف المسلمين عن دينهم، ولا شك أن هذه الطريقة من أقوى الطرق التي تفتق عنها تدبيرهم الشيطاني، لأن إعلان الكفر بالإسلام بعد التظاهر بالإيمان به، من شأنه أن يدخل الشك إلى القلوب، ويوقع ضعاف العقول والإيمان في حيرة واضطراب، خاصة وأن العرب قوم أميون، ومنهم من كان يظن أن اليهود أعرف منهم في مسائل العقيدة والدين، وأنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص في تعاليمه! ^(٣) هذا النوع الذي تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام مبني على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه هذا هرقل ملك الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤون النبي ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل في الإسلام؟ فقال أبو سفيان: لا، وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية، ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام، لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على بواطنه وخوافيه،

(١) السيوطي، لباب النقول (ص ٦٢).

(٢) الواحدي، لسباب النزول (ص ٩٤).

(٣) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٢١٥).

إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب. (١)

حيث قالت جماعة من اليهود أظهروا الإيمان بدين محمد ﷺ نفاقاً أول النهار، فإذا جاء آخر النهار فارجعوا إلى دينكم اليهودية، لعل المؤمنين بهذا الدين يدخل في نفوسهم الشك من فعلكم، فسيرتدوا عن الإسلام إلى الكفر! وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار وأن يصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقیصة وعيب في دين المسلمين. (٢) وفي قوله تعالى "لعلهم يرجعون": إعجاز وإخبار عن الغيب الذي كانوا يضمرونه، وإحباط لما دبروه من حيلة، وردع لهم عن الإقدام إلى مثله، لأن الله تعالى فضحهم وكشف سترهم، وخيب مسعاهم. (٣) وقوله تعالى: "ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم": هذا من تامة كلام اليهود، فهم يتناهون فيما بينهم ويقولون لبعضهم لا تصدقوا أو تظهروا سرکم، وما عندكم من العلم بصدق هذا النبي ﷺ "إلا لمن تبع دينكم" لئلا يكون ما عندكم إن اطلع عليه المسلمون حجة لهم، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم. (٤) وهذا لون من ألوان عنصرية اليهود وأنانيتهم. وقال تعالى: "أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم، أو يحاجوكم عند ربكم" يقول اليهود بعضهم لبعض: لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم، وانظروا فيمن ادعى النبوة، فإن كان متبعا لدينكم فصدقوه، وإلا فكذبوه، ولا تقرّوا ولا تعترفوا لأحد بالنبوة، إلا إذا كان على دينكم، خشية أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم، أو تكون الحجة عليكم، فإن أقررتم بنبوة محمد ﷺ ولم تتبعوا دينه، كانت له الحجة عليكم يوم القيامة عند ربكم، ولعل غرضهم من ذلك نفي النبوة عن محمد ﷺ (٥)

(١) رضا، تفسير المنار (٣/٣٢٣-٣٢٤).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٧٣).

(٣) الرازي، التفسير الكبير (٣/٢٥٨).

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٧٣).

(٥) الصابوني، صفوة التفسير (١/١٩١).

يقول الشيخ محمد الغزالي: (وظاهر أن القوم كارهون لما صنع الله، وضائقون بمشيتته تعالى في إيثار العرب، واختصاصهم بالوحي الجديد، فكان الجواب الحاسم: "قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم" (١) أي: قل لهم يا محمد ﷺ، إن الأمور كلها بيد الله، ومنها أمر النبوة، فالخير كله بيد الله لا بأيديكم، والله تعالى يؤتي من خيره من يشاء من عباده، بفضله ورحمته، وهو تعالى واسع العطاء، كثير الإنعام، ويعلم من هو أهل لهذا العطاء والإنعام. (٢) وبهذا تكون الآيات الكريمة قد كشفت هذا الطريق الذي سلكه اليهود لكيد الإسلام والمسلمين، ونهت المسلمين إلى وسائل اليهود الخبيثة، ليتقوها ويحذروها ويواجهوها بالسلاح المناسب!

ثالثاً: تعنتهم في الأسئلة بقصد إحراج الرسول ﷺ

العنت لغة: دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة، تقول: أعنت فلان فلاناً إعناتاً: إذا أدخل عليه مشقة، قال أبو إسحاق الزجاج: العنت في اللغة المشقة الشديدة، وقال ابن الأثير: العنت المشقة والفساد، والهلاك، والإثم، والغلط والخطأ، والزنا، كل ذلك ورد وأطلق العنت عليه، وأعنته وتعنته تعنتاً: سأله عن شيء أراد به اللبس عليه والمشقة، قال تعالى: "ولو شاء الله لأعنتكم" (٣) أي: لو شاء لشدد عليكم، وتعنتكم بما يصعب عليكم أداؤه، كما فعل بمن كان قبلكم، وقال تعالى: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتكم﴾ (٤) أي: لو تعنتتم في الفساد والهلاك، وقال ابن الأنباري: وأصل التعنت: التشديد، فإذا قالت العرب: فلان يتعنت فلاناً ويعنته، فمرادهم يشدد عليه، ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه، قال: ثم نقلت إلى معنى الهلاك. (٥) وقال الراغب الأصفهاني: (المعانئة كالمعاندة، لكن المعانئة أبلغ، لأنها معاندة

(١) الغزالي، نحو تفسير موضوعي (ص ٣١).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٣/١)، والصابوني، صفوة التفسير (١٩/١).

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٠.

(٤) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٥) ابن منظور، اللسان مادة عنت (٤١٥/٩-٤١٦).

فيها خوف وهلاك، ولهذا يقال عَنَّتَ فلان: إذا وقع في أمر يخاف منه التلف).^(١) حين وجد اليهود أنفسهم قد انهزموا وخسروا في مجادلاتهم الدينية، ومخاصماتهم الكلامية لجأوا إلى أسلوب آخر لتشكيك المسلمين في عقيدتهم، ألا وهو توجيه الأسئلة الشاقة إلى رسول الله ﷺ بقصد إحراجه، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مطالبهم.^(٢) قال تعالى: ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك، وآتينا موسى سلطاناً مبيناً* ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم، وقلنا لهم اخلوا الباب سجداً، وقلنا لهم لا تعدوا في السبت، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾^(٣) وقال الواحدي: (نزلت في اليهود قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب جملة من السماء، كما أتى به موسى، فأنزل الله هذه الآية).^(٤) وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاءنا بالآلواح من عند الله، فأتنا بالآلواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله: "يسألك أهل الكتاب" إلى قوله: بهتاناً عظيماً، فجثا رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى، ولا على أحدٍ شيئاً، فأنزل الله: "وما قدروا الله حق قدره" الآية.^(٥) وقال ابن جريج إن اليهود والنصارى أتوا النبي ﷺ فقالوا: لن نتابعك على ما تدعوننا إليه، حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان، أنك رسول الله، وإلى فلان بكتاب أنك رسول الله، فأنزل الله تعالى الآية.^(٦) قال ابن جرير: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن أهل التوراة سألوا

(١) الراغب، المفردات (ص ٣٥٢).

(٢) المرصفي، للتكتور، معده الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه، الطبعة اليهودية (ص ١١-١٢).

(٣) سورة النساء: الأيتان (١٥٣-١٥٤).

(٤) للواحدي، أسباب النزول (ص ١٥٣).

(٥) للسيوطي، لباب النقل (ص ١٠٦).

(٦) المرصفي، للرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه (ص ١٢).

رسول الله ﷺ أن يسأل ربه، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء آية، معجزة جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها، شاهدة لرسول الله ﷺ بالصدق، أمره لهم باتباعه، وربما سألوه من ذلك كتاباً مكتوباً ينزل عليهم من السماء إلى جماعتهم، وجائز أن يكون ذلك كتباً إلى أشخاص بعينهم، بل الذي هو أولى بظاهر التلاوة: أن تكون مسألتهم إياه ذلك، مسألة لينزل الكتاب بلفظ الواحد، لا بلفظ الجماعة).^(١) ومعنى الآية: يسألك اليهود يا محمد ﷺ أن تنزل عليهم كتاباً من السماء مكتوباً جملة، كما جاء موسى بالتوراة لأبائهم، مكتوبة في الألواح جملة، مع أنه لا حاجة لهم إلى طلب ذلك، بعدما وضحت البراهين على نبوتك، والذي حملهم على هذا السؤال، هو التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك.^(٢) في قوله تعالى: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾^(٣) فردَّ الله تعالى عليهم ووبخهم مبيناً أن سؤالهم هذا ليس سؤال إيمان وتصديق فقال: "فقد سألوها موسى أكبر من ذلك"، أي: فقد سأل أسلافهم موسى سؤالاً، أكبر من ذلك، عناداً وجحوداً وتعنتاً.^(٤) قال صاحب الكشاف: (جواب الشرط مقتر معناه: إن استكبرت ما سألك عنه، فقد سألوها موسى أكبر من ذلك، وإنما أسند السؤال إليهم، وإن وجد من آبائهم في أيام موسى، لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم، ومضاهين لهم في

(١) الطبري، جامع البيان (٨/٦).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٢/١)، والماوردي، النكت والعيون (٣٨٩/٦).

(٣) سورة الإسراء: الآيات (٩٠-٩٣).

(٤) طهماز، عبد الحميد محمود، من موضوعات سور القرآن الكريم، حقوق الإنسان في سورة النساء (ص ١٨٢-١٨٣)، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

التعنت).^(١) يقول الفخر الرازي: (واعلم أن المقصود من الآية: بيان ما جبلوا عليه من التعنت، كأنه قيل: إن موسى لما نزل عليه كتاب من السماء، لم يكتفوا بذلك القدر، بل طلبوا منه الروية على سبيل المعاينة، وهذا يدل على أن طلب هؤلاء لنزول الكتاب عليهم من السماء، ليس لأجل الاسترشاد بل لمحض العناد).^(٢) "فقالوا أرنا الله جهرة" قال ابن جرير: (وتأويل ذلك: واذكروا أيضاً إذ قلتم يا موسى لن نصدقك، ولن نقر بما جئتنا به حتى نرى الله جهرة عياناً، برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا!!)، وأخرج عن ابن عباس قال: علانية، وعن ابن زيد: حتى يطلع إلينا.^(٣) "فأخذتهم الصاعقة بظلمهم" أي: نزلت عليهم نار من السماء تجلجل بصوت رهيب، فصعقتهم بسبب طغيانهم وظلمهم.^(٤) أما عبادتهم العجل ورفع الطور فوقهم، فقد تحدثنا عنه في غير هذا الموضع، وبذلك تكون الآيتان الكريمتان، قد كشفت عما يريد اليهود من إحراج للرسول ﷺ، عن طريق أسئلتهم المتعنتة، ووبختهم على ذلك، وساقطاً طرفاً من ذائلهم، ليعرفهم المؤمنون على حقيقتهم فيحذروهم، وبذلك يعود كيد اليهود إلى نحورهم،^(٥) وسألوه عن الروح، جاء في الصحيحين (واللفظ للبخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "بيننا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئ على عسيب، أي جريدة نخل، إذ مرّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه؟ أي: ما دعاكم إلى السؤال تخشون سوء عقابه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ، فلم يردّ عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقامت مقامي، فلما نزل

(١) الزمخشري، الكشاف (١/٦١٨).

(٢) الرازي، التفسير الكبير (٤/٢٥٧).

(٣) الطبري، جامع البيان (١/٢٨٩).

(٤) طنطاوي، بنو إسرائيل (ص ٢٠٤).

(٥) المصدر السابق (ص ٢٠٥).

الوحي قال: "يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً"^(١) وكذلك: سألو الرسول ﷺ، عن طعام أهل الجنة، وعن شرابهم، وسألوه عن ذي القرنين، وسألوه عن أصحاب الكهف، وغيرها من الأسئلة التي قصدوا من ورائها العنت، وإحراج الرسول ﷺ، والإساءة إليه، ولم يقصدوا من ورائها الإيمان والاسترشاد!

رابعاً: استهزأؤهم بالدين وشعائره:

قال تعالى محذراً المسلمين من هذا اللون من ألوان الكيد للدعوة الإسلامية من قبل اليهود: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾^(٢) ففي هذه الآيات الكريمة ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن موالاته أعداء الإسلام، ومناصرتهم، ومحبتهم من مشركين وكتابين، وسبب النهي عن موالاتهم كما هو واضح في الآية: هو اتخاذهم شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزواً يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب.^(٣) وقد فصلت الآيات أنواع المستهزئين، وبينت أنهم من أهل الكتاب والكفار، علماً بأن أهل الكتاب من الكفار، فلم هذا التفريق؟ لقد جاء هذا التفريق لبيان أن المقصود بالكفار هنا المشركون خاصة.^(٤) ولقد كان هذا الاستهزاء واللعب يقع من الكفار، كما كان يقع من اليهود، خاصة من أهل الكتاب، في الفترة التي كان هذا القرآن ينزل فيها على قلب رسول الله ﷺ للجماعة المسلمة

(١) أخرجه البخاري، في صحيحه، في كتاب التفسير، باب: "ويسألونك عن الروح" برقم: ٤٧٢١، انظر: ابن حجر، فتح الباري، (٨ / ٥١١).

(٢) سورة المائدة: الآيتان (٥٧-٥٨).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٧٢/٢).

(٤) للزمخشري، للكشاف (١/٦٨٣).

في ذلك الحين، ولم نعرف من السيرة أن هذا كان يقع من النصارى. ^(١) فلا يجوز ولا يليق بمؤمن بالله متبع للإسلام أن يحب أو يصادق أو يوالي أمثال هؤلاء، من كفره وفجرة ومشركين ويهود، الذين يسخرون ويستهنون بدينه، بل يجب عليه أن يبغضهم ويعاديهم. ^(٢) ثم بين الله تعالى جانباً من استهزاء اليهود بشعيرة من شعائر الإسلام، بعد أن بين لنا في الآية الأولى استهزاءهم بالدين على وجه الإطلاق، وفي ذلك أخرج القرطبي في تفسير: أنه كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا، وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدغت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فمن أين لك صياح مثل صياح العير، فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر، وقيل: إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم، وتغامزوا على طريق السخف والمجون، تجهيلاً لأهلها، وتنفيراً للناس عنها وعن الداعي إليها. ^(٣) ثم ختمت الآية ببيان علة استهزائهم بالدين، وهي سفاهتهم وقلة عقولهم. ^(٤) ونفى العقل عنهم لأنهم لم ينتفعوا به في أمر الدين، وإن كان لهم عقول ينتفعون بها في أمر الدنيا. ^(٥) وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كشفت للمسلمين مسلكاً آخر من مسالك كيد اليهود للدعوة للإسلامية وأتباعها، وردت عليهم وحذرت المسلمين من الانخداع بهم أو موالاتهم بعد أن عرفوا حقيقة نواياهم وديانتهم.

(١) قطب، الظلال (٩٢٢/٢).

(٢) الصابوني، صفوة التفسير (٣٢٤/١).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٦/٦).

(٤) ابن جزّي، التسهيل (١٨١/١).

(٥) الصابوني، صفوة التفسير (٣٢٤/١).

١٥. لقد استبدل أهل الكتاب بالشرائع التي أنزلها الله إليهم شرائع من عند أنفسهم فابتدع النصارى الرهبانية، وحسبوا ذلك تقرباً إلى الله تعالى، وهو في الحقيقة ضلال وغواية، وترك فريق من بني إسرائيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقطعوا الأرحام، وجعلوا ميزان التفاضل بينهم المال والجاه بدل التقوى والعمل الصالح.
١٦. لقد اتخذ اليهود دينهم وسيلة لطلب الدنيا، فأباحوا الربا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وتحايّلوا على محارم الله.
١٧. أنّ الجبن صفة ملازمة لليهود لا تتفكّ عنهم.
١٨. لقد نقض اليهود عهودهم مع الله ورسله والمؤمنين، وهذه الصفة من أبرز الصفات وأبينها في اليهود.
١٩. يحرص اليهود على الحياة ويتمسكون بها مهما كانت هذه الحياة عزيزة أو ذليلة، لفرط حُبهم لها واعتقادهم أنّها جنتهم.
٢٠. لقد قتل اليهود العديد من أنبياء الله ورسله، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، وتفاخروا بذلك، ودوتوه في توراتهم المحرقة واتخذوه شريعة لهم يسرون عليها.
٢١. اليهود، فاسدون ومفسدون في الأرض، ومن مظاهر إفسادهم تحريف التوراة وحشوها بالأكاذيب، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقضهم العهود والمواثيق، وترويج الفواحش والردائل بين الناس.
٢٢. لقد زكى اليهود أنفسهم رغم ما هم عليه من الفساد والضلال، وتقولوا على الله ما لم يقله: فادّعوا أن ذنوبهم مغفورة، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لا إثم عليهم ولا حرج في انتهاك حرّمات الآخرين وظلمهم !.

٢٣. يتصف اليهود بقسوة القلب، وغلظه، وبيسه، ويصرون على ذنوبهم ولا يستغفرون الله منها!.

٢٤. البخل والحسد من الأخلاق المتأصلة في نفوس اليهود.

٢٥. لقد كاد اليهود، ولا زالوا يكيّدون للإسلام وأهله بكلّ وسيلة خبيثة من تحالف مع المشركين، ومحاولة ردّ المسلمين عن دينهم، واستهزاء بالدين وشعائره وغيرها. وختاماً: فإنني لا أدعي أنني قد أعطيت هذا الموضوع حقّه، أو وفّيته ما يستحقّه فأني لمثلي ذلك، ولكن حسبي أنني بذلت جهدي، وأفرغت وسعي مع قلة بضاعتي، فإن أصبت قلله الحمد والمنّة، وإن أخطأت فمنه العفو والمغفرة، وما توفّيقني إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنبت، وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

فهرس الآيات

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٠١	﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾	٤٠	البقرة	٢٤
٠٢	﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾	٤١	البقرة	٦٠
٠٣	﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾	٤٢	البقرة	٦٠، ٥٧
٠٤	﴿ أتأمرون الناس بابر وتنسون أنفسكم ﴾	٤٤	البقرة	١٧١
٠٥	﴿ وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾	٥٥	البقرة	٤٦
٠٦	﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾	٥٦	البقرة	٤٦
٠٧	﴿ وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾	٥٨	البقرة	٢٧٨
٠٨	﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾	٥٩	البقرة	٢٧٨
٠٩	﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين ﴾	٦٢	البقرة	٢٣، ١٦
٠١٠	﴿ وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ﴾	٦٣	البقرة	٢٧٦، ٢٢٨
٠١١	﴿ ثم توليتهم من بعد ذلك ﴾	٦٤	البقرة	٢٢٨
٠١٢	﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾	٦٧	البقرة	٣٢
٠١٣	﴿ وإذا قتلتم نفساً فادارأتم فيها ﴾	٧٢	البقرة	٢٤٩

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٤.	﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾	٧٣	البقرة	٢٤٩
١٥.	﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾	٧٤	البقرة	٢٧٥
١٦.	﴿ أفطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾	٧٥	البقرة	٦٦
١٧.	﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾	٧٦	البقرة	١٥٣، ٦١
١٨.	﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾	٧٧	البقرة	١٥٣
١٩.	﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾	٧٩	البقرة	١٨٥، ٦٧
٢٠.	﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾	٨٠	البقرة	٢٧٢، ١٥٦
٢١.	﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾	٨١	البقرة	٢٧٢، ١٥٦
٢٢.	﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة ﴾	٨٢	البقرة	١٥٦
٢٣.	﴿ وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ﴾	٨٣	البقرة	١٧٢
٢٤.	﴿ وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماكم ﴾	٨٤	البقرة	١٧٤
٢٥.	﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾	٨٥	البقرة	١٧٤
٢٦.	﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ﴾	٨٧	البقرة	٢٤٦، ٢٤٤

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٧.	﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾	٨٩	البقرة	٢٩٠، ١٥٠
٢٨.	﴿بنسما اشتروا به أنفسهم﴾	٩٠	البقرة	٢٩٠
٢٩.	﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾	٩٣	البقرة	٢٧٦، ٤٤
٣٠.	﴿قل إن كانت لكم الآخرة خالصة عند الله﴾	٩٤	البقرة	١٦١
٣١.	﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾	٩٥	البقرة	١٦١
٣٢.	﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾	٩٦	البقرة	٢٤٠
٣٣.	﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾	٩٧	البقرة	٥٥
٣٤.	﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾	٩٨	البقرة	٥٥
٣٥.	﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾	١٠٠	البقرة	٢٣٩، ٢٢٨
٣٦.	﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾	١٠١	البقرة	١٥٣
٣٧.	﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرننا﴾	١٠٤	البقرة	٧٣
٣٨.	﴿وذكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾	١٠٩	البقرة	٢٩١، ٢٨٧
٣٩.	﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾	١١١	البقرة	١٦٠، ١٥٩

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
.٤٠	﴿ بلى من أسلم وجهه لله ﴾	١١٢	البقرة	١٦١
.٤١	﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ﴾	١١٣	البقرة	١٠٢، ٢٦٧
.٤٢	﴿ ولن ترضَ عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾	١٢٠	البقرة	٢٦٨
.٤٣	﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾	١٢٧	البقرة	ز
.٤٤	﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾	١٣٠	البقرة	٧٩
.٤٥	﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾	١٣١	البقرة	٧٩
.٤٦	﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾	١٣٢	البقرة	٧٩
.٤٧	﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾	١٣٣	البقرة	٧٩
.٤٨	﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾	١٣٤	البقرة	٧٩
.٤٩	﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾	١٣٥	البقرة	٧٩، ٢٦٦
.٥٠	﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾	١٤٠	البقرة	٨٠
.٥١	﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم ﴾	١٤٦	البقرة	٦٠
.٥٢	﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى ﴾	١٥٩	البقرة	١٥١

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
.٥٣	﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾	١٧٤	البقرة	١٥١
.٥٤	﴿ في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾	٢٢٠	البقرة	٣٠٠
.٥٥	﴿ ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى ﴾	٢٤٦	البقرة	٢٢٠
.٥٦	﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾	٢٤٧	البقرة	٢٢٠، ١٧٦
.٥٧	﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ﴾	٢٤٨	البقرة	٢٢٠
.٥٨	﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر ﴾	٢٤٩	البقرة	٢٢٠
.٥٩	﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾	٢٥٠	البقرة	٢٢٠
.٦٠	﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ﴾	٢٥١	البقرة	٢٢٠، ٩٣
.٦١	﴿ لا إكراه في الدين ﴾	٢٥٦	البقرة	١٩٥
.٦٢	﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾	٢٥٧	البقرة	١٩٥
.٦٣	﴿ وإذا قال إبراهيم رباً أرني كيف تحيي الموتى ﴾	٢٦٠	البقرة	٥٨
.٦٤	﴿ لا نفرق بين أحدٍ من رُسُلِهِ ﴾	٢٨٥	البقرة	٢٤٥

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٦٥.	﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾	١٩	آل عمران	٢٩١
٦٦.	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾	٢١	آل عمران	٢٤٧
٦٧.	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾	٢٢	آل عمران	٢٤٧
٦٨.	﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ ﴾	٢٣	آل عمران	١٥٨، ٦٢، ١٩٦، ٢٧٢
٦٩.	﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمْسَنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾	٢٤	آل عمران	١٩٦، ١٥٨، ٢٧٢، ١٩٨
٧٠.	﴿ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُم لَيُومٌ لَا رَبَّ فِيهِ ﴾	٢٥	آل عمران	١٩٦، ١٥٩، ١٩٩
٧١.	﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا ﴾	٣٣	آل عمران	٧٧، ٧٤
٧٢.	﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾	٣٥	آل عمران	١٤٨
٧٣.	﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾	٣٦	آل عمران	١٤٨
٧٤.	﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾	٣٧	آل عمران	١٤٨
٧٥.	﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ ﴾	٤٢	آل عمران	١٤٨

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٧٦.	﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي ﴾	٤٣	آل عمران	١٤٨
٧٧.	﴿ ويكلم الناس في المهد ﴾	٤٥	آل عمران	١٣٥
٧٨.	﴿ ومكروا ومكر الله ﴾	٥٤	آل عمران	١٠٦
٧٩.	﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ﴾	٥٥	آل عمران	١٠٦
٨٠.	﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾	٥٨	آل عمران	١٤٤
٨١.	﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾	٥٩	آل عمران	١٤٣، ١٣٨
٨٢.	﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾	٦١	آل عمران	١٤٣
٨٣.	﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾	٦٢	آل عمران	١٤٣
٨٤.	﴿ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾	٦٣	آل عمران	١٤٣
٨٥.	﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس ﴾	٦٤	آل عمران	٢٢
٨٦.	﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾	٦٥	آل عمران	٨١، ٧٨
٨٧.	﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾	٦٦	آل عمران	٨١
٨٨.	﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾	٦٧	آل عمران	٨٠
٨٩.	﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾	٦٨	آل عمران	٨٣
٩٠.	﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ﴾	٧١	آل عمران	٥٨
٩١.	﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب ﴾	٧٢	آل عمران	٢٩٧
٩٢.	﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾	٧٣	آل عمران	٢٩٧

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٩٣	﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾	٧٤	آل عمران	٢٩٧
٩٤	﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بدینار يؤده إليك ﴾	٧٥	آل عمران	٢٦٩
٩٥	﴿ بلى من أوفى بعهدہ واتقى ﴾	٧٦	آل عمران	٢٦٩
٩٦	﴿ وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾	٧٨	آل عمران	٧١
٩٧	﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبیین ﴾	٨١	آل عمران	٢٧٤
٩٨	﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل ﴾	٩٣	آل عمران	٢٨، ١٢، ٢٠٤
٩٩	﴿ فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك ﴾	٩٤	آل عمران	٢٠٤
١٠٠	﴿ قل صدق الله ﴾	٩٥	آل عمران	٢٠٤
١٠١	﴿ والذین إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ﴾	١٣٥	آل عمران	٢٧٣
١٠٢	﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ﴾	١٣٦	آل عمران	٢٧٣
١٠٣	﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾	١٦٧	آل عمران	١٣٣
١٠٤	﴿ لقد سمع الله قول الذین قالوا إنّ الله فقير ﴾	١٨١	آل عمران	٤٨
١٠٥	﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذین أوتوا الكتاب ﴾	١٨٧	آل عمران	٢٢٩، ١٥٢
١٠٦	﴿ فبظلم من الذین هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم ﴾	١٦	النساء	٢٠٥

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٠٧	﴿ الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾	٣٧	النساء	٢٨٣
١٠٨	﴿ ومن الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾	٤٦	النساء	٦٤ ، ٧١ ، ٧٣
١٠٩	﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾	٤٩	النساء	٢٥٩
١١٠	﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾	٥٠	النساء	٢٥٩
١١١	﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾	٥١	النساء	١٩٣
١١٢	﴿ أولئك الذين لعنهم الله ﴾	٥٢	النساء	١٩٣
١١٣	﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾	٥٣	النساء	٢٨٥
١١٤	﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾	٥٤	النساء	٢٨٧
١١٥	﴿ فمنهم من آمن به ﴾	٥٥	النساء	٢٨٧
١١٦	﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾	٦٠	النساء	١٩٥
١١٧	﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ﴾	١١٢	النساء	١٤٩
١١٨	﴿ ومن يكفر بالله وملائكته ﴾	١٣٦	النساء	٢٤٥
١١٩	﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾	١٥٣	النساء	٤٦ ، ٣٠١
١٢٠	﴿ ورفعنا فوقهم الطور ﴾	١٥٤	النساء	٣٠١
١٢١	﴿ فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ﴾	١٥٥	النساء	١٤٧ ، ٢٨١
١٢٢	﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾	١٥٦	النساء	١٤٧

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٢٣	﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾	١٥٧	النساء	١٠٣
١٢٤	﴿ بل رفعه الله إليه ﴾	١٥٨	النساء	١٠٣
١٢٥	﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾	١٥٩	النساء	١٤١، ١١٠
١٢٦	﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾	١٦٠	النساء	٢٠٥، ١٨٣
١٢٧	﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾	١٦١	النساء	١٨٣
١٢٨	﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾	١٧١	النساء	١٣٥
١٢٩	﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ﴾	١٢	المائدة	٢٣٠
١٣٠	﴿ فيما نقضهم ميثاقهم لعنهم ﴾	١٣	المائدة	٦٤، ٢٦، ٢٧٣، ٢٣٠
١٣١	﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾	١٤	المائدة	٣، ٢٧، ٢٣٠
١٣٢	﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾	١٥	المائدة	١٢، ٦٢
١٣٣	﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾	١٧	المائدة	١١٢

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٣٤	﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾	١٨	المائدة	٢٦٠، ١٤٠ ٢٦٣
١٣٥	﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ﴾	٢٠	المائدة	٢١١
١٣٦	﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴾	٢١	المائدة	٢١١
١٣٧	﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ﴾	٢٢	المائدة	٢١١
١٣٨	﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾	٢٣	المائدة	٢١١
١٣٩	﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾	٢٤	المائدة	٨٧، ٥٠ ٢١١
١٤٠	﴿ قال ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي ﴾	٢٥	المائدة	٢١١
١٤١	﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ﴾	٢٦	المائدة	٢١١
١٤٢	﴿ ولقد جاءتهم رسالتنا بالبينات ﴾	٣٢	المائدة	٢٤٧، ٢٤٣
١٤٣	﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب ﴾	٤١	المائدة	٢٦، ٢ ١٩٩، ٦٤
١٤٤	﴿ أكالون للسحت ﴾	٤٢	المائدة	١٨١، ١٨٠ ١٩٩،
١٤٥	﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة ﴾	٤٣	المائدة	١٩٩، ٦٣

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٤٦	﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾	٤٤	المائدة	٣ ، ١٦٤ ٢٠٢
١٤٧	﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾	٤٥	المائدة	٢٠٢
١٤٨	﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾	٤٦	المائدة	٢٠٢
١٤٩	﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾	٤٨	المائدة	ذ، ١١
١٥٠	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾	٥١	المائدة	٢٩٥
١٥١	﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ﴾	٥٢	المائدة	٢٩٥
١٥٢	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً ﴾	٥٧	المائدة	٣٠٤
١٥٣	﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ﴾	٥٨	المائدة	٣٠٤
١٥٤	﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا ﴾	٥٩	المائدة	١٠٢
١٥٥	﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم ﴾	٦٢	المائدة	١٨٢
١٥٦	﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم ﴾	٦٣	المائدة	١٨٢
١٥٧	﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾	٦٤	المائدة	٥١ ، ٢٢٥ ٢٥٢
١٥٨	﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة ﴾	٦٨	المائدة	٥٧

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٥٩	﴿ لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل ﴾	٧٠	المائدة	٢٣٠، ٢٥١
١٦٠	﴿ وحسبوا ألا تكون فتنة ﴾	٧١	المائدة	٢٥١
١٦١	﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾	٧٢	المائدة	١١٥، ١٢٣ ١٢٥
١٦٢	﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾	٧٣	المائدة	١٢٣، ١٢٦
١٦٣	﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ﴾	٧٤	المائدة	١٢٦
١٦٤	﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول ﴾	٧٥	المائدة	١٠٠، ١٢٦
١٦٥	﴿ قل اتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾	٧٦	المائدة	١٢٦، ١٢٨
١٦٦	﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾	٧٧	المائدة	١٢٦
١٦٧	﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ﴾	٧٨	المائدة	٢٤، ١٦٩
١٦٨	﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾	٧٩	المائدة	١٦٩
١٦٩	﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾	٨٢	المائدة	٥٠، ٢٢٧
١٧٠	﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾	١٠٩	المائدة	١١٧
١٧١	﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين ﴾	١١٦	المائدة	١١٧
١٧٢	﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴾	١١٧	المائدة	١١٧، ١٢٠
١٧٣	﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾	١١٨	المائدة	١١٧

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٧٤	﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾	١١٩	المائدة	١١٧
١٧٥	﴿ لله ملك السماوات والأرض ﴾	١٢٠	المائدة	١١٧
١٧٦	﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾	٩	الأنعام	٥٨
١٧٧	﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾	٦٠	الأنعام	١٠٧
١٧٨	﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾	٩٠	الأنعام	٧٥
١٧٩	﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾	٩١	الأنعام	٢ ، ٦٢ ، ١٥٢ ، ٦٤
١٨٠	﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ﴾	٩٢	الأنعام	١١
١٨١	﴿ لا تتركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾	١٠٣	الأنعام	٣٦
١٨٢	﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾	١٤٦	الأنعام	٢٠٧، ١٨٣
١٨٣	﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ﴾	١٤٧	الأنعام	٢٠٧، ١٨٣
١٨٤	﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾	١٥٥	الأنعام	٢١ ، ١٥
١٨٥	﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾	١٥٦	الأنعام	٢١ ، ١٥
١٨٦	﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾	٥٩	الأعراف	٣٤
١٨٧	﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾	١٣٨	الأعراف	٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٨٧

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
١٨٨	﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ ﴾	١٣٩	الأعراف	٣٩
١٨٩	﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾	١٤١	الأعراف	٣٦
١٩٠	﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾	١٤٢	الأعراف	٤٠
١٩١	﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾	١٤٥	الأعراف	١٥٤
١٩٢	﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا ﴾	١٤٨	الأعراف	٣٦، ٤٠، ٤٥
١٩٣	﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾	١٤٩	الأعراف	٤٢
١٩٤	﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسْفًا ﴾	١٥٠	الأعراف	٤١
١٩٥	﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ﴾	١٥٣	الأعراف	٣٦
١٩٦	﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾	١٥٧	الأعراف	٦١
١٩٧	﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾	١٦١	الأعراف	٢٧٨
١٩٨	﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا ﴾	١٦٢	الأعراف	٢٧٨
١٩٩	﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾	١٦٣	الأعراف	٣٠، ١٨٦
٢٠٠	﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾	١٦٤	الأعراف	١٨٦
٢٠١	﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾	١٦٥	الأعراف	١٨٦
٢٠٢	﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾	١٦٧	الأعراف	١٥٦
٢٠٣	﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾	١٦٩	الأعراف	٢٦٤

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٠٤	﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ ﴾	١٧١	الأعراف	٢٧٦
٢٠٥	﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾	٢	الأنفال	٢٧٣
٢٠٦	﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ﴾	٥٦	الأنفال	٢٣٩
٢٠٧	﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾	٢٩	التوبة	٢٠
٢٠٨	﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِيرُ ابْنِ اللَّهِ ﴾	٣٠	التوبة	٩٥ ، ٩٨ ، ١٣١
٢٠٩	﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾	٣١	التوبة	١١٩ ، ١٩١
٢١٠	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْآخِبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ ﴾	٣٤	التوبة	١٨٤
٢١١	﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ ﴾	٩٣	يونس	١٥١
٢١٢	﴿ فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾	٩٤	يونس	٢٨
٢١٣	﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً ﴾	٣٨	الرعد	١٦٧
٢١٤	﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مَرْسَلًا ﴾	٤٣	الرعد	٢٨
٢١٥	﴿ وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾	٣٥	إبراهيم	١٩٤
٢١٦	﴿ رَبِّ إِنهِنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾	٣٦	إبراهيم	١٩٤

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٢١٧	﴿ وقالوا يا أيها الذين نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾	٦	الحجر	١٠٣
٢١٨	﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾	٩	الحجر	٢
٢١٩	﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾	٢٩	الحجر	١٣٨
٢٢٠	﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ﴾	٣٦	النحل	٣٤
٢٢١	﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه ﴾	٤٠	النحل	١٨٩
٢٢٢	﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾	١٢٠	النحل	٧٨، ٧٥
٢٢٣	﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾	٤	الإسراء	٢٥٣، ٢٤
٢٢٤	﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾	٥	الإسراء	٢٥٣
٢٢٥	﴿ ثم رددنا لكم الكرة عليهم ﴾	٦	الإسراء	٢٥٣
٢٢٦	﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾	٧	الإسراء	٢٥٣
٢٢٧	﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾	٨	الإسراء	٢٥٣
٢٢٨	﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾	٢٩	الإسراء	٥٢
٢٢٩	﴿ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴾	٤٣	الإسراء	١١١
٢٣٠	﴿ وقالوا لن نؤمن لك ﴾	٩٠	الإسراء	٣٠٢
٢٣١	﴿ أو تكون لك جنة ﴾	٩١	الإسراء	٣٠٢
٢٣٢	﴿ أو تسقط السماء كما زعمت ﴾	٩٢	الإسراء	٣٠٢
٢٣٣	﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾	٩٣	الإسراء	٣٠٢

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٣٤	﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾	١٠٤	الإسراء	٢٥٨
٢٣٥	﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾	٥	الكهف	١٤٧
٢٣٦	﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾	١٦	الكهف	١٦٧
٢٣٧	﴿ قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً ﴾	٩٦	الكهف	١٩٢
٢٣٨	﴿ قالوا كيف تكلم من كان في المهد صبياً ﴾	٢٩	مريم	١٤٩
٢٣٩	﴿ قال إني عبد الله ﴾	٣٠	مريم	١٤٩، ١١٦
٢٤٠	﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾	٣١	مريم	١٤٩
٢٤١	﴿ وبرا بوالدتي ﴾	٣٢	مريم	١٤٩
٢٤٢	﴿ والسلام علي يوم ولدت ﴾	٣٣	مريم	١٤٩
٢٤٣	﴿ إنه كان صديقاً نبياً ﴾	٤١	مريم	٧٥
٢٤٤	﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾	٥٥	مريم	٧٥
٢٤٥	﴿ وإني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾	١٥	طه	٣٥
٢٤٦	﴿ ولتصنع علي عيني ﴾	٣٩	طه	٧٤
٢٤٧	﴿ اذهب أنت وأخوك بأياتي ﴾	٤٢	طه	٩١
٢٤٨	﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾	٤٣	طه	٩١
٢٤٩	﴿ فاتياه فقولا إنا رسولا ربك ﴾	٤٧	طه	٩١
٢٥٠	﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾	٦١	طه	١٨٠
٢٥١	﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾	٨٣	طه	٤٠، ٣٧

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٥٢	﴿ قال هم أولاء على أثري ﴾	٨٤	طه	٤٠
٢٥٣	﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾	٨٥	طه	٤٠
٢٥٤	﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾	٨٦	طه	٤٢
٢٥٥	﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾	٨٧	طه	٤١
٢٥٦	﴿ قال هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾	٨٨	طه	٩١
٢٥٧	﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم ﴾	٨٩	طه	٤٥
٢٥٨	﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ﴾	٩٠	طه	٩٢، ٤٤
٢٥٩	﴿ لن نبرح عليه عاكفين ﴾	٩١	طه	٩٢
٢٦٠	﴿ قال فما خطبك يا سامري ﴾	٩٥	طه	٤٣
٢٦١	﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾	٩٦	طه	٤٣
٢٦٢	﴿ إنما إلهكم الله ﴾	٩٨	طه	٣٧
٢٦٣	﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه ﴾	٢٥	الأنبياء	٣٤
٢٦٤	﴿ وجعلناهم أمة يهدون بأمرنا ﴾	٧٣	الأنبياء	٧٥
٢٦٥	﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرت ﴾	٧٨	الأنبياء	٩٥
٢٦٦	﴿ ففهمناها سليمان ﴾	٧٩	الأنبياء	٩٥
٢٦٧	﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾	١٠٥	الأنبياء	٢١٥

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٦٨	﴿ إِن فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾	١٠٦	الأنبياء	٢١٥
٢٦٩	﴿ إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾	١٧	الحج	٢٣، ١٩
٢٧٠	﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾	٧٥	الحج	٧٤
٢٧١	﴿ إِن الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا ﴾	٢٣	النور	١٤٩
٢٧٢	﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾	٢٤	النور	١٤٩
٢٧٣	﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾	٢٥	النور	١٤٩
٢٧٤	﴿ قَالَ إِن رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾	٢٧	الشعراء	١٠٣
٢٧٥	﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾	١٦	النمل	٩٥
٢٧٦	﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾	١١	القصص	٤٣
٢٧٧	﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾	٢٧	العنكبوت	٧٧
٢٧٨	﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾	٣٠	الروم	٣٥
٢٧٩	﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾	٤٠	الروم	١٠٩
٢٨٠	﴿ قُلْ يَتُوفَّاكُم مِّنْكُمْ الْمَوْتُ ﴾	١١	السجدة	١٠٨
٢٨١	﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾	٢١	الاحزاب	٧٥
٢٨٢	﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾	٣٧	الاحزاب	١٣٥
٢٨٣	﴿ إِن الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾	٥٧	الاحزاب	٨٧

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٨٤	﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكتسبوا ﴾	٥٨	الاحزاب	١٤٩
٢٨٥	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا موسى ﴾	٦٩	الاحزاب	٨٩
٢٨٦	﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾	١٠	سبأ	٩٣
٢٨٧	﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا ﴾	٥١	سبأ	١١٨
٢٨٨	﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ﴾	٣١	فاطر	١١
٢٨٩	﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾	٨٢	يس	١٣٥
٢٩٠	﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾	١٧١	الصافات	١٣٦
٢٩١	﴿ وَإِنْ لَهُ عُنْدَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾	٢٥	ص	٩٣
٢٩٢	﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾	٣٤	ص	٣٢
٢٩٣	﴿ نَعِمَ الْعَبْدَ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾	٤٤	ص	٩٣
٢٩٤	﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِرِينَ ﴾	٤٧	ص	٧٤
٢٩٥	﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾	٦	الزمر	٦
٢٩٦	﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ﴾	١٧	الزمر	١٩٥
٢٩٧	﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾	٣٠	الزمر	٢٤٦
٢٩٨	﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾	٤٢	الزمر	١٠٧، ٥٧

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٢٩٩	﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة ﴾	٥	فصلت	٢٨١
٣٠٠	﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾	٤١	فصلت	٢
٣٠١	﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾	٤٢	فصلت	٥٧، ٥، ٢
٣٠٢	﴿ ليس كمثل شيء ﴾	١١	الشورى	٣٦
٣٠٣	﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ﴾	١٣	الجاثية	١٣٨
٣٠٤	﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾	١٧	الجاثية	١٥٠
٣٠٥	﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾	١٠	الأحقاف	٦٠
٣٠٦	﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾	٣٥	الأحقاف	٨٨
٣٠٧	﴿ محمد رسول الله ﴾	٢٩	الفتح	٢٢٧
٣٠٨	﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾	٧	الحجرات	٣٠٠
٣٠٩	﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾	٢٨	الطور	١٧١
٣١٠	﴿ أم يريدون كيداً ﴾	٤٢	الطور	٢٩٤
٣١١	﴿ واصبر لحكم ربك ﴾	٤٨	الطور	٧٥
٣١٢	﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾	١٦	الحديد	٢٧٤
٣١٣	﴿ ثم قفينا على أثرهم بربنا ﴾	٢٧	الحديد	١٦٥
٣١٤	﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة ﴾	١٤	الحشر	٢٢٤
٣١٥	﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾	٥	الممتحنة	ز

الرقم	الآية	رقمها	السورة	الصفحة
٣١٦	﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْتُونَنِي ﴾	٥	الصف	٨٨
٣١٧	﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا ﴾	٦	الجمعة	٢٤٢
٣١٨	﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ ﴾	٧	الجمعة	٢٤٢
٣١٩	﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾	٨	الجمعة	٢٤٢
٣٢٠	﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾	١٢	التحریم	١٣٧، ١٢٨
٣٢١	﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾	٢٨	نوح	٣٩
٣٢٢	﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾	٥	المزمل	٧٤
٣٢٣	﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾	١٦	القيامة	٧
٣٢٤	﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾	١٧	القيامة	٧
٣٢٥	﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾	٩	النبا	١٨٨
٣٢٦	﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾	١٩	التكوير	٤٣
٣٢٧	﴿ وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾	٥	الفلق	٢٨٧

فهرس الأحاديث

الصفحة	أطراف الحديث	الرقم
٩٣	(أحب الصلاة إلى الله صلاة داود).	٠١
٢٠٤	(أقبلت يهود إلى النبي ﷺ)	٠٢
٢٩	(إن الله عز وجل ابتعث نبيه ﷺ لإدخال رجل الجنة)	٠٣
١٧٠	(إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة)	٠٤
١٦٩	(إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل)	٠٥
٢٧	(أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه)	٠٦
٢٤٤	(أن موسى رسول الله ذكر الناس يوماً)	٠٧
٨٩	(إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً)	٠٨
٩٩	(أن ناساً في زمن الرسول ﷺ قالوا)	٠٩
٥٥	(أن اليهود بعد أن سألوا النبي ﷺ أسئلة اجابهم عنها)	٠١٠
١٩٧	(أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا)	٠١١
	(إنهم حرّموا عليهم الحلال)	٠١٢
ث	(إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس)	٠١٣
٢٨	(بلغوا عني ولو آية)	٠١٤
٣٠٣	(بيننا أنا مع النبي ﷺ في حرث)	٠١٥
٣١	(تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة)	٠١٦
١٠٧	(الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا).	٠١٧

الرقم	أطراف الحديث	الصفحة
١٨.	(رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف)	٢٤٩
١٩.	(سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب)	٢٠.
٢٠.	(شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه)	٢١٧
٢١.	(صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ آية)	١٢١
٢٢.	(غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه، لا يتبعني رجل)	٢٤٥
٢٣.	(فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب)	١٩٢
٢٤.	(قاتل الله اليهود حرّمت عليهم الشحوم)	٢٠٨
٢٥.	(قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً)	٢٨٠.
٢٦.	(كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام)	٢٢
٢٧.	(لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم)	٣١، ٢٧
٢٨.	(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم)	١٣٠.
٢٩.	(لعن الله اليهود ثلاثاً)	٢٠٩
٣٠.	(ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير)	٢٤٦
٣١.	(مرّ على النبي ﷺ بيهودي محمّم مجلود)	٢٠٠
٣٢.	(المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور)	٥٣
٣٣.	(من لا يشكر الناس لا يشكر الله عز وجل)	ث
٣٤.	(والذي نفسي بيده)	١١٠.
٣٥.	(الولد مبخلة مجبنة)	٢٨٣

الرقم	أطراف الحديث	الصفحة
٣٦.	(ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه)	٧
٣٧.	(يا أيها الناس قولوا بقولكم)	١٣٠
٣٨.	(يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب)	٢٧
٣٩.	(يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر)	٨٨
٤٠.	(يوشك أن يكون خير مال الرجل غنماً)	١٦٧

فهرس التراجم والأعلام

١. الألويسي: (١٢١٧ - ١٢٧٠هـ). محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر محدث، أديب من المجددين، ولد في بغداد ومات فيها، كان سلفي الاعتقاد مجتهداً، تولى الافتاء ببلده، ثم عزل، فانقطع للعلم، سافر إلى الموصل فالأستانة، ومر بماردين، وسيواس، فغاب واحد وعشرون شهراً، ثم عاد إلى بغداد يدون رحلاته، ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته واستمر على ذلك إلى أن توفي رحمة الله، من كتبه: "روح المعاني" في التفسير، "ونشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول" تحدث فيه عن رحلته إلى الأستانة، "وكشف الطرة عن الغرة" وغيرها. (١)

٢. البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري، أصح كتاب على وجه الأرض بعد القرآن، ومن مصنفاته، التاريخ، وخلق أفعال العباد وغيرها، ولد في بخارى سنة (١٩٤هـ)، ونشأ يتيماً، وقام برحلة طويلة في طلب الحديث فزار خراسان، والعراق، ومصر، والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مائة ألف حديث، اختار منها في صحيحه ما وثق بروايته وفق شروطه، توفي في (خرتكنك) من قرى سمرقند سنة (٢٥٦هـ). (٢)

٣. ابن الأثير: المبارك بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو السعدات، مجد الدين، المحدث اللغوي الأصولي، ولد عام ٥٤٤هـ في جزيرة ابن عمر، ونشأ فيها، ثم انتقل

(١) الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (١٧٦/٧)، دار العلم للملايين، بيروت، (الطبعة السادسة ١٩٨٤م).
(٢) المصدر السابق (١٧٩/٧).

للموصل فاتصل بصاحبها، فكان من أخصائه، أصيب بمرض النقرس فبطلت حركة يديه ورجليه، ولازمه المرض إلى أن توفي في إحدى قرى الموصل عام (٦٠٦هـ) قيل إن تصانيفه كلها ألّفها في زمن مرضه إملاءً على طلبته، وهم يعينونه بالنسخ والمراجعة، من كتبه: "النهاية في غريب الحديث" و "جامع الأصول في أحاديث الرسول" و "الأنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف" و "المختار في مناقب الأخيار" و "تجريد أسماء الصحابة" وغيرها من المؤلفات، توفي سنة (٦٠٦هـ).^(١)

٤. ابن تيمية: أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام ابن عبد الله الحراني الدمشقي، الحنبلي أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام، ولد في حرّان سنة (٦٦١هـ)، وتحوّل به أبوه إلى دمشق فنبت واشتهر، امتحن وأوذي عدة مرات، فحبس بقلعة القاهرة، والإسكندرية ثم أطلق سراحه فسافر إلى دمشق، واعتقل بها مرتين، ومات معتقلاً بقلعة دمشق، سنة (٧٢٨هـ)، له عدة مؤلفات أهمها: مجموع الفتاوى "والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح "والصارم المسلول على شاتم الرسول".^(٢)

٥. ابن جريج: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي، أبو الوليد، وأبو خالد، فقيه الحرم المكي، وكان إمام أهل الحجاز في عصره، وهو أول من صنّف التصانيف في العلم بمكة، رومي الأصل من موالى قریش، قال الذهبي: كان ثبّتاً لكنّه يدّلس، مات سنة خمسين أو بعدها، وقد جاوز السبعين وقيل جاوز المائة.^(٣)

(١) المصدر السابق (٣٤/٦).

(٢) المصدر السابق (٢٧٢/٥).

(٣) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، تقريب التهذيب (ص ٣٦٢)، دار العلم، دمشق، (الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م)، والزركلي، الأعلام (٤/١٦٠).

٦. ابن جرير الطبري: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المفسر، المؤرخ الإمام، ولد في أمل طبرستان، سنة (٢٢٤هـ)، واستوطن ببغداد، عُرض عليه القضاء والمظالم فأبى، وهو من المؤرخين الثقات، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وهو أول من ألف كتاباً في التفسير بالمأثور، وفي تفسيره ما يدل على علمه الغزير، كان مجتهداً في الدين لا يقلد أحداً، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه، له مؤلفات كثيرة منها: جامع البيان في تفسير القرآن، المعروف "بتفسير الطبري"، وكتاب: أخبار الرسل والملوك المعروف "بتاريخ الطبري"، توفي سنة (٣١٠هـ).^(١)
٧. ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده بالقاهرة سنة (٧٧٣هـ)، كان في بداية حياته مولعاً بالأدب والشعر، ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن، والحجاز وغيرها لسماع الشيوخ ثم ما لبث أن ذاع صيته فقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره، قال السخاوي: "انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك، وكتبها الأكابر" ولي القضاء بمصر مرات، ثم اعتزل، مات بالقاهرة سنة (٨٥٢هـ) (أما مصنفاته فكثيرة جليلة منها: فتح الباري شرح صحيح البخاري، والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، والإصابة في تمييز أسماء الصحابة، وتقريب التهذيب، وسبل السلام في شرح بلوغ المرام.^(٢)
٨. ابن حزم: علي بن أحمد بن سعد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه يقال لهم "الحزمية،

(١) الزركلي، الاعلام (٦/٦٩).

(٢) المصدر السابق (١/١٧٨).

ولد بقرطبة سنة (٣٨٤هـ)، وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزراء، وتدبير المملكة ، لكنه زهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين ققيهاً، حافظاً يستتبط الأحكام من الكتاب والسنة، وكان بعيداً عن المصانعة ينتقد العلماء والفقهاء، فتمالأوا على بغضه والتحريض ضده، فطارده الملوك، فرحل إلى بادية نبله (من بلاد الأندلس) فتوفي فيها سنة (٤٥٦ هـ)، له مصنفات كثيرة أشهرها: الفصل في الملل والأهواء والنحل، وكتاب المحلى^(١).

٩. ابن زنجلة: عبد الرحمن من محمد، أبو زرعة، ابن زنجلة: عالم بالقراءات كان قاضياً مالكيًا، قرأ على أحمد بن فارس كتابه "الصاحبي" له مصنفات منها: "حجة القراءات" ، تحقيق الأستاذ: سعيد الأفغاني، وشرف القراء في الوقف والابتداء، توفي حوالي سنة (٤٠٣ هـ).^(٢)

١٠. ابن قدامة: عبد الله بن محمد بن قدامة الجماعلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، موفق الدين: فقيه من أكابر الحنابلة، ولد في جماعيل (من قرى نابلس بفلسطين سنة (٥٤١ هـ) تعلم في دمشق، ورحل إلى بغداد ، وأقام فيها نحو أربع سنين، وعاد إلى دمشق وفيها وفاته سنة (٦٢٠ هـ) من تصانيفه: "المغني" شرح به مختصر الخرقي في الفقه، "وروضة الناظر" في أصول الفقه، والمقنع وغيرها.^(٣)

١١. ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، الرويفعي الإفريقي، الإمام اللغوي الحجة، من نسل رويغ بن ثابت الأنصاري، ولد بمصر سنة ٦٣٠ هـ ، وقيل: في طرابلس الغرب، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي

(١) الزركلي، الأعلام (٤/٢٥٤-٢٥٥).

(٢) المصدر السابق (٣/٢٢٥).

(٣) المصدر السابق (٤/٦٧).

القضاء في طرابلس، عمي في آخر عمر، وعاد إلى مصر، فتوفي فيها سنة ٧١١هـ، وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، أشهرها لسان العرب الذي جمع فيه أمهات كتب اللغة فكاد يغني عنها جميعاً، ومن مؤلفاته: مختار الأغاني، وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس لأولي الأبواب، والنتخب والمختار في النوادر والأشعار، وغيرها الكثير. (١)

١٢. الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد، مفسر من أعيان الجزائر، ولد سنة (٧٨٦هـ)، زار تونس والمشرق، مات سنة (٨٧٥هـ)، من كتبه: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن، والأنوار في المعجزات النبوية، وروضة الأنوار ونزهة الأخيار، والذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز". (٢)

١٣. الجصاص: أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص: فاضل من أهل الري، سكن بغداد ومات فيها، عرض عليه القضاء فامتنع، انتهت إليه رئاسة الحنفية، له كتاب: أحكام القرآن، وكتاب في أصول الفقه، عاش من (٣٠٥ - ٣٧٠هـ). (٣)

١٤. حذيفة بن اليمان: حذيفة بن اليمان بن حسيل بن جابر بن ربيعة العبسي، من كبار الصحابة، وأمّه الرباب بنت كعب بن عدي الأنصاري كانت فيمن بايع رسول الله ﷺ من النساء، أسلم حذيفة وأبوه اليمان وأرادوا شهود بدران فصدّهما المشركون، وشهدا أحداً، فاستشهد اليمان بها، وشهد حذيفة الخندق وله بها ذكر حسن، وشهد ما بعدها من الغزوات، وروى حذيفة عن النبي ﷺ الكثير من الأحاديث، قال حذيفة رضي الله عنه: لقد حدثني رسول الله ﷺ ما كان، وما يكون حتى تقوم الساعة، وفي الصحيحين أنّ أبا الدرداء

(١) الزركلي، الأعلام (١٠٨/٧).

(٢) المصدر السابق (٣٣١/٣).

(٣) الزركلي، الأعلام (١٧١/١).

قال لعلمة أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره يعني حذيفة، شهد حذيفة فتوح العراق، واستعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد بيعته علي بأربعين يوماً وذلك سنة ست وثلاثين. (١)

١٥. الزجاج: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، ولد في بغداد سنة (٢٤١هـ) عالم بالنحو واللغة، كان في فتوته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو، فعلمه المبرد، من كتبه: "معاني القرآن" و "الاشتقاق" و "خلق الإنسان" و "الأمالي" و "إعراب القرآن" توفي ببغداد سنة (٣١١هـ). (٢)

١٦. زكريا الأنصاري: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، أبو يحيى، شيخ الإسلام، قاض مفسر، من حفاظ الحديث، ولد في سينكة (بشرقية مصر) سنة (٨٢٣هـ)، تعلم في القاهرة، كف بصره، ونشأ فقيراً معدوماً، اشتغل بالقضاء، ثم عزل، فاشتغل بالعلم إلى أن توفي سنة (٩٢٦هـ)، له تصانيف كثيرة منها: "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن" و "تحفة الباري على صحيح البخاري" و "فتح العلام بشرح الإعلام بأحاديث الأحكام" وغيرها. (٣)

١٧. الزمخشري: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد العلامة أبو القاسم الزمخشري النحوي اللغوي المعتزلي، المفسر، يلقب جار الله، لأنه جاور بمكة زماناً، ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) سنة سبع وستين وأربعمائة، تنقل في البلدان، كان وسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، متفنناً في كل علم، معتزلياً قوياً في مذهبه، مجاهراً به،

(١) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة (٣٩٨/١، ٤٤/٢، ٦٣٩/٧) تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

(٢) الزركلي، الأعلام (٤٠/١).

(٣) المصدر السابق (٤٦/٣).

داعية إليه، حنيفاً، علامة في الأدب والنحو، توفي في الجرجانية من (قرى خوارزم) سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة، له كثير من التصانيف البديعة منها: "الكشاف" في التفسير، "والفائق" في غريب الحديث، وأساس البلاغة، غيرها من المصنفات. (١)

١٨. الشافعي: محمد بن أدريس با عباس بن عثمان ابن شافع القرشي المطلبي، أبو عبد الله، أحمد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد في غزة بفلسطين سنة (١٥٠هـ) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، ثم مصر سنة (١٩٩) فتوفي بها سنة (٢٠٤هـ) وقبره معروف في القاهرة، قال الإمام أحمد بن حنبل: ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منه، وقال عنه المبرد: كان الشافعي أشعر الناس وأدبهم وأعرفهم بالفقه، والقراءات، أفنى وهو ابن عشرين سنة، وكان ذكياً مفرطاً، له تصانيف كثيرة أشهرها: كتاب "الأم" في الفقه، "والرسالة" في أصول الفقه، "والمسند" في الحديث. (٢)

١٩. الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسر مدرّس من علماء شنقيط (موريتانيا) ولد فيها سنة (١٣٢٥هـ) وتعلّم بها، واستقر مدرّساً في المدينة النبوية ثم الرياض، وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة، له كتب منها: أضواء البيان في تفسير القرآن، ومنهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، توفي بمكة المكرمة سنة (١٣٩٣هـ). (٣)

(١) الداودي، محمد بن علي بن أحمد، طبقات المفسرين، (٢/٣١٤-٣١٥ تحقيق: علي محمداً عمر، مكتبة وهبة، القاهرة،

(الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، الزركلي، الأعلام (٧/١٧٨).

(٢) الزركلي، الأعلام (٦/٢٦).

(٣) الزركلي، الأعلام (٦/٤٥).

٢٠. عبادة بن الصامت: عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، صحابي جليل، موصوف بالورع، أحد النقباء بالعقبة، ولد قبل الهجرة بثمان وثلاثين سنة، أخی رسول الله ﷺ وبينه وبين أبي مرثد، شهد المشاهد كلها بعد بدر، ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، روى عن النبي ﷺ ١٨١ حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ستة منها، وكان من سادات الصحابة، مات بالرملة أو ببيت المقدس سنة أربع وثلاثين للهجرة. (١)

٢١. عمر بن الخطاب: عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، ولد قبل بعثة النبي ﷺ بثلاثين سنة، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرفهم، وله السفارة فيهم، وهو أحد العمرين اللذين كان النبي ﷺ يدعو الله أن يعز الإسلام بأحبهما إليه، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع، قال عبد الله بن مسعود: ما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر، وقال عكرمة: لم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر، بويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر سنة ثلاث عشرة للهجرة واستشهد سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وهو في صلاة الصبح على يد أبو لؤلؤة فيروز الفارسي (غلام المغيرة بن شعبة) غيلة. (٢)

٢٢. الفخر الرازي: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن التيمي البكري، أبو عبد الله القرشي فخر الدين الرازي، من ذرية أبي بكر الصديق، الإمام المفسر أوجد أهل زمانه في المعقول والمنقول، وهو قرشي النسب، أصله من طبرستان، مولده في الري سنة

(١) ابن حجر، الإصابة (٣/٦٢٤-٦٢٥)، والزركلي، الأعلام (٣/٢٥٨).

(٢) ابن حجر، الإصابة (٤/٥٨٨-٥٩٠)، والزركلي، الأعلام (٥/٤٥).

(٥٤٤هـ) وإليها نسبته يقال له : ابن خطيب الري"، رحل إلى خوارزم، وما وراء النهر، وخرسان، أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها، له مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم منها: مفاتيح الغيب، المعروف بتفسير الرازي، والمحصول في علم الأصول، وغيرها الكثير وله شعر بالعربية والفارسية وكان واعظاً بارعاً باللغتين، توفي في هراة سنة (٦٠٦هـ).^(١)

٢٣. القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فزح الأنصاري الخزرجي، الأندلسي أبو عبد الله القرطبي، من كبار المفسرين، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق، واستقر بمدينة ابن خصيب (في شمال أسبوط، بمصر) وبها توفي في التاسع من شوال سنة إحدى وسبعين وثمانمائة، من مصنفاته: الجامع لأحكام القرآن، المعروف بتفسير القرطبي، وله "شرح الأسماء الحسنى" وكتاب "التذكار في أفضل الأذكار" وكتاب: "التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة".^(٢)

٢٤. كعب الأحبار: كعب بن ماته يكنى أبا إسحاق، أدرك النبي ﷺ، لكنه لم يسلم إلا في خلافة عمر رضي الله عنه، روى عن النبي ﷺ مرسلأً وعن عمر، وصهيب، وعائشة، وروى عنه الصحابة، كابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة وغيرهم، وروى عنه مجموعة من كبار التابعين كأبي رافع، وسعيد بن المسيب، ووقع ذكره في عدة مواضع في صحيح مسلم، وبعد كعب الأحبار رضي الله عنه من أكثر الصحابة رواية عن أهل الكتاب، قال عنه معاوية رضي الله عنه: ما رأينا في هؤلاء الذين يحدثونا عن أهل الكتاب أصدق من كعب وإن كنا لنبلوا عليه الكذب أحياناً، وقد أول بعضهم الكذب هنا بأنه عدم وقوع ما

(١) الداودي، طبقات المفسرين (٢١٤-٢١٦)، والزركلي، الأعلام (٣١٣/٦).

(٢) الداودي، طبقات المفسرين، (١٦٦/٢)، والزركلي، الأعلام (٣٢٢/٥).

يخبر به أنه سيقع - حيث كان يحدث بالقصص - لا أنه يكذب، وقال عنه أبو الدرداء:
كان عنده علماً كثيراً، وقال عنه ابن تيمية: لا يكافئه من خلقه أحد. (١)

٢٥. **لبيد بن ربيعة**: لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري، أبو عقيل، الصحابي الجليل رضي الله عنه، وهو الشاعر المشهور، كان فارساً شجاعاً وشاعراً سخيّاً، قال الشعر في الجاهلية دهرأ، ثم أسلم، ولما كتب إلى عامله بالكوفة سل لبيداً والأغلب العجلي ما أحدثا من الشعر في الإسلام، فقال لبيد: أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه، ويقال أنه ما قال في الإسلام إلا بيتاً واحداً:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويقال بل قوله:

الحمد لله الذي لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا (٢)

٢٦. **مجاهد بن جبر**: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، تابعي مفسر من أهل مكة، ولد سنة (٢١هـ) قال عنه الذهبي: شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس، فقرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت، تنتقل بين البلدان واستقر في الكوفة، له كتاب في التفسير، يقال: إنه مات وهو ساجد وذلك سنة (١٠٤هـ). (٣)

(١) ابن تيمية، الفتاوى، (٢١٦/١٧)، وابن حجر المسقلني، الإصابة (٦٤٧/٥ - فما بعدها).

(٢) ابن حجر، الإصابة (٦٧٥/٥).

(٣) الزركلي، الأعلام (٢٧٨/٥).

٢٧. محمد بن كعب: محمد بن كعب ابن سليم بن أسد، أبو حمزة القرطبي، تابعي ثقة عالم من الثالثة ولد سنة أربعين على الصحيح في خلافة علي رضي الله عنه، ووهب من قال ولد في عهد النبي ﷺ، فقد قال البخاري: إن أباه كان ممن لم يُنبت من سبي قريظة، روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، مات سنة ثمان ومائة، وقيل غير ذلك.^(١)
٢٨. المستورد بن الأحنف: كوفي، ثقة، من الثانية، روى عن عدد من الصحابة كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وحذيفة بن اليمان، قال عنه علي بن المديني ثقة، وقد ذكره ابن حبان في كتاب الثقات.^(٢)
٢٩. مسلم: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، النيسابوري، أبو الحسن، حافظ وإمام من أئمة الحديث، ولد بنيسابور سنة ٢٠٤هـ، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، أشهر كتبه "صحيح مسلم"، جمع فيه اثني عشر ألف حديث كتبها في خمس عشرة سنة، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة في الحديث وقد شرحه كثيرون من أشهرهم الإمام النووي، ومن كتبه المسند الكبير، والجامع والكني والأسماء، وغيرها.^(٣)
٣٠. النسفي: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات، حافظ الدين، فقيه حنفي، مفسر، من أهل إيذج (من كور أصبهان) نسيته إلى "نسف" ببلاد السند بين جيحون وسمرقند، له مصنفات جليلة منها: مدارك التنزيل في تفسير القرآن، وكنز الدقائق في الفقه، والمنار في أصول الفقه توفي سنة ٧١٠هـ).^(٤)

(١) ابن حجر، تقريب التهذيب (ص ٥٠٤).

(٢) المرزي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن، تهذيب الكمال (٤٣٧/٢٧) تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت (الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) وابن حجر، تقريب التهذيب (ص ٥٢٧).

(٣) الزركلي، الأعلام (٢٢١/٧).

(٤) المصدر السابق (٦٧/٤).

٣١. النووي: يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالفقه والحديث، ولد في "نوا" من قرى حوران، بسورية، وإليها نسبته، تعلّم في دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً، مات في نوا سنة (٦٧٦هـ)، له تصانيف كثيرة وجليّة منها: "المنهاج في شرح صحيح مسلم" و "تهذيب الأسماء واللغات" و "منهاج الطالبين" و "رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين".^(١)
٣٢. الواحدي: علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية، أبو الحسن الواحدي: مفسر عالم بالأدب، أصله من سامره بين الري وهمدان، مولده بنيسابور، كان من أولاد التجار من مؤلفاته: البسيط، والوسيط، والوجيز وكلها في التفسير، وله كتاب في أسباب النزول، توفي في نيسابور سنة (٤٦٨هـ).^(٢)

(١) الزركلي، الأعلام (١٤٩/٨).

(٢) الداودي، طبقات المفسرين (٣٨٧/١-٣٨٩)، والزركلي، الأعلام (٢٥٥/٤).

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعدات المبارك بن محمد الجزري ت ٦٠٦هـ ، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٨/١) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتاب العربي، القاهرة
- ابن تيمية الحرثاني، أبو العباس، أحمد بن عبد الحلیم ت: ٧٢٨هـ.
٣. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: الدكتور، علي حسن ناصر، والدكتور، عبد العزيز إبراهيم العسكر، والدكتور، حمدان محمد، دار العاصمة الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٤. دقائق التفسير، الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق: الدكتور: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، (الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ).
٥. مجموع الفتاوى.
٦. ابن جزّي، الكلبي، الغرناطي الأندلسي، محمد بن أحمد، ت: ٧٤١هـ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، دار الفكر، بيروت.
٧. ابن الجوزي، أبو الفرج، جمال الدين، عبد الرحمن بن علي بن محمد، ت: ٥٩٧هـ زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، (الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ).
- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، ت: ٨٥٢هـ.
٨. الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

٩. فتح الباري، شرح صحيح الإمام البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).
١٠. الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت (الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
١١. ابن حزم الأندلسي، أبو محمد، علي بن أحمد ت: ٤٥٦هـ ، الفصل في الملل والأهواء، والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
١٢. ابن حنبل الشيباني، أبو عبد الله، أحمد ت: ٢٤١هـ، مسند الإمام أحمد تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، وعادل مرشد، وإبراهيم الزبيق، ومحمد رضوان العرقسوسي، وكامل الخراط، مؤسسة الرسالة بيروت (الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
١٣. ابن زنجلة، أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد، ت: حوالي ٤٠٣هـ ، حجة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، (الطبعة الثانية، ١٤٠٢-١٩٨٢م).
١٤. ابن عادل، أبو حفص، عمر بن علي النمشقي الحنبلي ت: ٨٨٠هـ اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
١٥. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي ت: ٢٣٠هـ ، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة (الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
١٦. ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، (١٩٩٧م).

١٧. ابن عطية، الأندلسي، أبو محمد، عبد الحق بن غالب ت: ٥٤٦هـ المخرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
١٨. ابن فارس، أبو الحسن، أحمد بن زكريا ت: ٣٩٥هـ ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.
١٩. ابن قدامة المقدسي، أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن محمد ت: ٦٢٠هـ ، المغني على مختصر الخرقي، دار الكتب العلميّة، بيروت (الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر ت: ٧٥١هـ ،
٢٠. إغاثة اللفان من مصائد الشيطان، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الحديث، القاهرة.
٢١. فقه السيرة، تحقيق: عمر الفرماوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، (الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
٢٢. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق ودراسة: الدكتور، محمد أحمد الحاج، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- ابن كثير، أبو الفداء ، القرشي الدمشقي، إسماعيل بن عمر ت: ٧٧٤هـ.
٢٣. البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت.
٢٤. تفسير القرآن العظيم، دار الدعوة، تركيا.
٢٥. ابن ماجة، القزويني، أبو عبد الله، محمد بن يزيد، ت: ٢٠٧هـ ، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
٢٦. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري ت: ٧١١هـ ، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).

٢٧. أبو البقاء، الجعفري، صالح بن الحسن، الرد على النصارى، تحقيق الدكتور، محمد محمد حسانين، دار التوفيق النموذجية، القاهرة، (الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م).
٢٨. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، ت: ٧٥٤هـ، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
٢٩. أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث ت: ٢٧٥هـ، سنن أبي داود، دار ابن حزم، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
٣٠. أبو عبيد، القاسم بن سلام الهروي ت: ٢٢٤هـ، كتاب غريب الحديث، تحقيق: حسين محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
٣١. أبو زهرة، محمد، محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي، القاهرة.
٣٢. أبو السعود العمادي، محمد بن محمود ت: ٩٨٢هـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٣. أبو شعبة، محمد بن محمد، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير.
٣٤. أبو فارس، محمد عبد القادر، السيرة النبوية، دار الفرقان، الأردن، (الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
٣٥. أحمد، إبراهيم خليل، محاضرات في مقارنة الأديان، دار المنار (الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
٣٦. الأشقر، الدكتور، عمر سليمان، اليوم الآخر، - القيامة الكبرى - دار النفائس، عمان، (الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ - ١٩٩١م).
٣٧. الألويسي، أبو الفضل، شهاب الدين، السيد محمود ت: ١٢٧٠هـ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

٣٨. الأمر، جعفر، معجزة الأجيال، الصديقة مريم العذراء، دار الوفاء، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
٣٩. أنيس إبراهيم، ومنتصر، عبد الحليم، والصوالحي، عطية، وأحمد خلف الله، المعجم الوسيط، (الطبعة الثانية).
- البار، الدكتور، محمد علي،
٤٠. خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية، (الطبعة العاشرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
٤١. المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٤٢. البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، ت: ٢٥٦هـ، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المشهور، بصحيح البخاري، تحقيق: الدكتور: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير اليمامة، بيروت، (الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
٤٣. بدران، أبو العينين بدران، العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين، دار النهضة العربية، بيروت (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
٤٤. البقاعي، برهان الدين، أبو الحسن إبراهيم بن عمر ت: ٨٨٥هـ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- البغوي، الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، ت: ٥١٦هـ،
٤٥. التهذيب في فقه الإمام الشافعي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

- ٤٦ . معالم التنزيل، تحقيق: خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، (الطبعة الثانية)،
١٤٠٧م - ١٩٨٧م).
- ٤٧ . بوكاي، مورييس، القرآن الكريم، والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في
ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، لبنان، (الطبعة الرابعة ١٩٧٧م).
- ٤٨ . البيضاوي، ناصر الدين، أبو سعيد الشيرازي، عبد الله بن محمد ت: ٧٩١هـ ، تفسير
البيضاوي، المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: عبد القادر عطا العشا
حسونة، دار الفكر، بيروت، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- ٤٩ . الترمذي، أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة ت: ٢٧٩هـ، سنن الترمذي، تحقيق:
أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٥٠ . التميمي البغدادي، أبو بكر، أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، ت: ٣٢٤هـ ، كتاب
السبعة في القراءات، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة،
(الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ).
- ٥١ . الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف ت: ٨٧٥هـ ، الجواهر الحسان في تفسير
القرآن، المعروف بتفسير الثعالبي، دار إحياء التراث العربي، (الطبعة الأولى، ١٩٩٧م).
- ٥٢ . الثوري، أبو عبد الله ، سفيان بن سعيد بن مسروق ت: ١٦١هـ ، تفسير سفيان الثوري،
دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ).
- ٥٣ . الجاوي، محمد بن عمر نووي، ت: ١٣١٦هـ ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد،
دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- ٥٤ . الجصاص، أحمد بن علي الرازي، ت: ٣٧٠هـ ، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق
قمحاوي، دار إحياء التراث.

٥٥. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، ت: ٨١٦هـ ، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الإياري، دار الكتاب العربي، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ).
٥٦. جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
٥٧. الحاج، الدكتور، محمد أحمد، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، دار القلم، دمشق، والدار الشامية ، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
٥٨. حبنكة الميداني، عبد الرحمن، العقيدة الإسلامية وأسئلتها، دار القلم، دمشق ، (الطبعة السابعة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
٥٩. حوى، سعيد، الأساس في التفسير، دار السلام، القاهرة، (الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
٦٠. الخازن، علاء الدين، علي بن محمد بن إبراهيم ت: ٧٢٥هـ، ثاب التاويل في معاني التنزيل، المشهور بتفسير الخازن، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- الخالدي، الدكتور، صلاح عبد الفتاح،
٦١. إسرائيليات معاصرة، دار عمار، عمان، الأردن، (الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
٦٢. القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، والدار الشامية بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ).
٦٣. الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم، ت: ٣٨٨هـ ، معالم السنن، شرح سنن أبي داود، دار ابن حزم، بيروت، (الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٦٤. دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، نظرت جديدة في القرآن الكريم، دار القلم، الكويت،
(الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).
٦٥. الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير، دمشق، ودار
اليمامة، بيروت، (الطبعة السادسة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).
- الذهبي، الدكتور، محمد حسين،
٦٦. الإسرائيليات في التفسير والحديث، دار الإيمان، دمشق، (الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ -
١٩٨٥م).
٦٧. التفسير والمفسرين، (الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).
٦٨. الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله، محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني ت: ٦٠٦
هـ، التفسير الكبير، المسمى، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦٩. الراغب، الأصفهاني، الحسين بن محمد، ت: ٥٠٢هـ، المفردات في غريب القرآن،
تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، (الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ -
١٩٩٩م).
٧٠. رحمة الله الهندي، بن خليل الرحمن، العثماني، الكيرانوي، إظهار الحق، مطبعة الرسالة،
القاهرة.
- رضا، محمد رشيد،
٧١. تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، (١٤١٤هـ).
٧٢. الوحي المحمدي، ثبوت النبوة بالقرآن، ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام، دين الأخوة
الإنسانية والسلام، مؤسسة عز الدين، بيروت، (الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ).

- الزحيلي، الدكتور، وهبة،

٧٣. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، بيروت، (الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م).

٧٤. الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، (الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٧٥. الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر.

٧٦. الزركشي، بدر الدين، محمد بن عبد الله، ت: ٧٩٤هـ، البرهان في علوم القرآن، دار

الفكر، (الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٧٧. الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب

والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، (الطبعة السادسة، ١٩٨٤م).

٧٨. زكريا الأنصاري، أبو يحيى، ت: ٩٢٦هـ، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن،

تحقيق محمد الصابوني، عالم الكتب، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

٧٩. زكي، أحمد، انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح، دار الحديث.

- الزمخشري، أبو القاسم، جار الله، محمود بن عمر، ت: ٥٣٨هـ،

٨٠. أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، (الطبعة

الأولى ١٤١٩-١٩٩٨م).

٨١. الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)، وبهامشه، ابن المنير،

الإسكندري المالكي، ناصر الدين، أحمد بن محمد، ت: ٦٨٣هـ، الانتصاف فيما تضمنه

الكشاف من الاعتزال.

٨٢. زيدان، الدكتور عبد الكريم، موجز الأديان في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

- سابق، سيد العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت.

٨٣. السعدي، داود سليمان، أسرار الكون في القرآن، دار الحرف العربي، بيروت، (الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٨٤. السعدي، محمد دراسة في الأنجيل الأربعة والتوراة، دار الثقافة، بيروت، (الطبعة الأولى ١٩٨٥م).

٨٥. سغان، الدكتور، كامل، اليهودية تاريخاً وعقيدة، دار الاعتصام، القاهرة.

- السقا، الدكتور، أحمد حجازي،

٨٦. حقيقة النصرانية من الكتب المقدسة، دار الفضيلة، القاهرة.

٨٧. نقد التوراة، أسفار موسى الخمسة، السامرية، العبرية، اليونانية، دار الجيل، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).

٨٨. السموال، ورؤيا النبي ﷺ، تحقيق ودراسة الدكتور، محمد عبد الله الشراقوي، دار الجيل، بيروت، ومكتبة الزهراء، القاهرة، (الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ).

٨٩. السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، ت: ٧٥٦هـ، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور، أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٩٠. السيوطي، محمد عبد الواحد، شرح فتح القدير دار الفكر، بيروت، (الطبعة الثانية).

- السيوطي، جلال الدين، أبو بكر، عبد الرحمن، ت: ٩١١هـ،

٩١. الإتيان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٢. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر ، بيروت، ١٩٩٣م.
٩٣. لباب النقول في أسباب النزول ، دار المعرفة، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
٩٤. الشاطبي، إبراهيم بن موسى الغرناطي، الاعتصام، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، (الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
٩٥. الشافعي، محمد بن ادريس ، ت: ٢٠٤هـ . مسند الشافعي ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٦. شاهين، الدكتور مصطفى، النصرانية تاريخاً وعقيدة وكتاباً ومذاهب، دراسة وتحليل ومناقشة، دار الاعتصام، القاهرة.
٩٧. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، ت: ١٣٩٣هـ ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
٩٨. الشريدة، الدكتور: محمد حافظ، وغوراني، عمر عبد الخالق، الطائفة السامرية، تاريخها، عقيدتها، شريعتها، عاداتها، واقعها المعاصر، (الطبعة الأولى، نابلس ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- شلبي، الدكتور، أحمد،
٩٩. "مقارنة الأديان -٢- "المسيحية" مكتبة النهضة المصرية، (الطبعة العاشرة ١٩٩٣م).
١٠٠. مقارنة الأديان، (١) "اليهودية"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (الطبعة العاشرة ١٩٩٣م).
- الشوكاني، محمد علي بن محمد ت: ١٢٥٠هـ ،

١٠١. فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مطبعة مصطفى، البابي الحلبي وأولاده، مصر، (الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).
١٠٢. نيل الأوطار، دار الجيل، بيروت، (١٩٧٣م).
- الصابوني، محمد علي،
١٠٣. صفوة التفاسير، دار الفكر، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
١٠٤. النبوة والأنبياء، (الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
١٠٥. صالح، السيد سعد الدين، العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية، مكتبة الصحابة، جدة، ومكتبة التابعين، القاهرة، (الطبعة الثانية ١٤١٦هـ).
- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، ت: ٢١١هـ.
١٠٦. تفسير القرآن، تحقيق: الدكتور مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشيد، الرياض، (الطبعة الأولى ١٤١٠هـ).
١٠٧. مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت (الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ).
١٠٨. طبارة، عفيف، عبد الفتاح، روح القرآن الكريم، تفسير جزء قد سمع، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (١٩٩٦م).
١٠٩. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير، ت: ٣١٠هـ، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، (١٤٠٥هـ).
١١٠. طعيمة، الدكتور، صابر، التاريخ اليهودي العام، دار الجيل، بيروت، (الطبعة الثانية).
١١١. طنطاوي، الدكتور، محمد سيد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، دار الشروق، القاهرة، (الطبعة الأولى ١٩٩٧م).

- طهماز، عبد الحميد،

١١٢. من موضوعات سورة القرآن الكريم، التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران،

دار القلم دمشق، والدار الشامية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

١١٣. من موضوعات سور القرآن الكريم، حقوق الإنسان في سورة النساء، دار القلم، دمشق،

والدار الشامية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

١١٤. من موضوعات سور القرآن الكريم، الحلال والحرام في سورة المائدة، دار القلم، دمشق،

وإدار العلوم والثقافة، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

١١٥. عبد الوهاب، لواء أحمد، إسرائيل حرقت الأناجيل واخترعت أسطورة السامية، مكتبة

وهبة، القاهرة (الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

١١٦. عباس، الدكتور، فضل حسن، وفضل، سناء، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان، عمان.

١١٧. عباس، الدكتور، فضل حسن، اتقان البرهان في علوم القرآن، دار الفرقان، عمان.

١١٨. العك، خالد عبد الرحمن، تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول، دار المعرفة،

بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

١١٩. عناية، غازي، شبهات حول القرآن وتفنيدها، دار ومكتبة الهلال، بيروت،

(الطبعة الأولى ١٩٩٦م).

١٢٠. عوض، محمد عبد الرحمن، دراسات في الفكر والأديان، الاختلاف والاتفاق بين إنجيل

برنابا والأناجيل الأربعة، دار البشير، القاهرة.

١٢١. الغزالي، محمد، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة،

(الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

١٢٢. فتاح، الدكتور، عرفان عبد الحميد، اليهودية عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية، دار البيارق، بيروت، ودار عمّار، عمان.
١٢٣. الفيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب ت: ٨١٧ هـ، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
١٢٤. القاسمي، محمد جمال الدين ت ١٣٣٢ هـ، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت (الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م).
١٢٥. القرضاوي، الدكتور يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق القاهرة (الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ).
- القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، ت: ٦٧١ هـ.
١٢٦. الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، تحقيق: الدكتور أحمد حجازي، السقا، دار التراث العربي، القاهرة ١٣٩٨ هـ.
١٢٧. الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلميّة، بيروت، (الطبعة الخامسة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م).
١٢٨. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، (الطبعة السابعة عشرة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م).
١٢٩. القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، ت: ٧٣٩ هـ، الايضاح في علوم البلاغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (الطبعة الرابعة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م).
١٣٠. الكتاب المقدس: - العهد القديم والعهد الجديد - دار الكتاب المقدس، الشرق الأوسط.
١٣١. كجك، مروان، تهذيب سيرة ابن كثير، دار طيبة، الرياض (الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م).

١٣٢. كشك، عبد الحميد، في رحاب التفسير، المكتب المصري الحديث.
١٣٣. كمال، يوسف، التفسير الحضاري من القرآن الكريم، الأساس الأخلاقي للأمة من سورة آل عمران، دار التوزيع والنشر الإسلامية. مصر (الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
١٣٤. ماضي، الدكتور، محمود، عصمة الأنبياء بين اليهودية والمسيحية والإسلام، مكتبة الإيمان.
١٣٥. الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، ت: ٤٥٠هـ، النكت والعيون، المعروف بتفسير الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣٦. المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم، دار الفكر، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م).
١٣٧. مجلة الحكمة، العدد الثامن عشر، ١٤٢٠هـ، والعدد العشرون، ١٤٢٠هـ.
١٣٨. مجموعة من العلماء، ابن باز عبد العزيز، وابن عثيمين محمد، وابن جبرين بن عبد الله، فتاوى إسلامية، دار الأرقم، بيروت.
١٣٩. المحلي، محمد بن أحمد، جمال الدين، ت: ٩٩٠هـ، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت: ٩١١هـ، تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت.
١٤٠. الهائم المصري، شهاب الدين، أحمد بن محمد، ت: ٨١٥هـ، التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق: الدكتور، فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث، القاهرة، (الطبعة الأولى ١٩٩٢م).
١٤١. الهيثمي، علي بن أبي بكر، ت: ٨٠٧هـ، مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث، القاهرة، ودار الكتاب العربي، بيروت (١٤٠٧هـ).

١٤٢. مظهر، سليمان، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، القاهرة، (الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
- المرصفي، الدكتور، سعد،
١٤٣. الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، (الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
١٤٤. موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، (الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
١٤٥. المناوي، محمد عبد الرؤوف، ت: ١٠٣١هـ، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: الدكتور، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصرة، بيروت، ودار الفكر، دمشق، (الطبعة الأولى ١٤١٠هـ).
- المودودي، أبو الأعلى، مبادئ الإسلام، ترجمة محمد عاصم الحداد، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
١٤٦. البخار، عبد الوهاب، قصص الأنبياء، دار الفكر، بيروت.
١٤٧. السنخاس، أبو جعفر، أحمد بن محمد، ت: ٣٣٨هـ، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ).
١٤٨. الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الرياض، (الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
١٤٩. النسفي، أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود ت: ٧١٠هـ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار الكتب العلمية (الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م). نعااعة، محمود، تاريخ اليهود، دار الفكر، الأردن، (الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

١٥٠. النوي، محيي الدين، يحيى بن شرف، بن مري، ت: ٦٧٦هـ ، صحيح مسلم بشرح

النوي، دار الثقافة العربية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ).

- الواحدي، أبو الحسن، علي بن أحمد، ت: ٤٦٨هـ،

١٥١. أسباب النزول، تحقيق أيمن صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة، (الطبعة الثانية

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

١٥٢. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق،

والدار الشامية، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤١٥هـ).

١٥٣. ياسين، الدكتور، محمد نعيم، الإيمان، أركانه، حقيقته، نواقضه، جمعية عمال المطابع

التعاونية، عمان، (الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

١٥٤. ياقوت الحموي، أبو عبد الله، بن عبد الله، ت: ٦٢٦هـ، معجم البلدان، دار الفكر،

بيروت.

١٥٥. اليزيدي، أبو عبد الله ، عبد الله بن يحيى ابن المبارك، ت: ٢٣٧هـ، غريب القرآن،

وتفسيره، تحقيق: محمد سليم الحاج، عالم الكتب، بيروت، (الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ -

١٩٨٥م).

فهرس الفهارس

الصفحة	البیان
ج	١. فهرس الموضوعات
٣١٠	٢. فهرس الآيات القرآنية
٣٣٣	٣. فهرس الأحاديث النبوية
٣٣٦	٤. فهرس التراجم والأعلام
٣٤٨	٥. فهرس المراجع والمصادر
٣٦٥	٦. فهرس الفهارس

An-Najah National University

Faculty of Graduate Studies

**The Quran's Unveiling of the Deviations
of the People of the Book
and It's Annulment**

Prepared by:

Mousa Mahmoud Taha Saeed

Supervised by:

Dr. Muhammad Hafith Al-Shreidah

**Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree
of Master of Arts in Usool Ad-Deen, Faculty of Graduate
Studies, at An-Najah National University.**

Nablus/Palestine

1424H.-2003

Abstract

This study, titled " The Quran's Unveiling of the Deviations of the People of the Book and It's Annulment ", is divided into an introduction, three chapters, and a conclusion.

The study is an attempt to specify the meaning of the People of the Book and Islam's position on their narrations, which pertain to religious affairs.

In addition, the study has examined the deviations of the People of the Book in several aspects of their belief and ideology, such as their misconception of God, the Prophets, the Angels, Holy Books, and the Day of Judgment.

The study has discussed the types of legislative deviations of the People of the Book in terms of social, economic, political, and military affairs.

The study, as well, has brought to light many of their moral deviations and ingrained characteristics, as well as the consequences that this immorality had led to.

The researcher has applied the above analysis to the verses of the Holy Quran, which pertain to the People of the Book. He has drawn evidence on their deviations from the Holy Quran, and referred, in some cases, to the Old and New Testament.

The study has concluded the research with a major finding that the People of the Book, both Jews and Christians have diverted from the right path due to the changes and alterations they made to their books, and their turning away from the teachings of their Prophets.

Finally, I have put down an index for the study.